

روایات (الهلال

دوريس لیسنج

المحشاش من الحشاش



روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

تصدر عن مؤسسة
دار الهلال

العدد ٤٦٦ أكتوبر ١٩٨٧

صفر ١٤٠٨ هـ

No. 466 OCT. 1987

● الاشتراكات ●

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية
مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد
اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر
دولارا أو مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر أنحاء العالم
عشرون دولار بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال
فى ج . م . ع نقدا أو بحواله بريديه غير حكومية وفى
الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال .
وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة
اعلاه عند الطلب .

اسعار البيع فى البلاد العربية للاعداد العادية من
سلسلة روايات الهلال فئة ٧٥ قرشا للقارىء فى مصر

سوريا ١٨٠٠ ق . س - لبنان ١٠٠ ليرة - الاردن ٥٠٠
فلس - الكويت ٤٠٠ فلس - العراق ١٦٠٠ فلس -
السعودية ٧ ريال - السودان ٢٥٠ ق . سودانيا -
البحرين ١٢٠٠ فلس - الدوحة ٨ ريال - دى ٨ دراهم
- أبوظبى ٨ دراهم - مسقط ٨٠٠ بيسه - تونس ١٦٠٠
مليم - المغرب ١٥٠٠ فرنك - غزة والضفة ٧٥ سنتا -
داكار ١٠٠٠ فرنك - اليمن الشمالية ١٣ ريالا - عدن ١٤٤
سنتا - الصومال ١٣٠ بنى - لاجوس ١٢٠ بنى - ايطاليا
٣٠٠٠ ليرة - لندن ١٥٠ سنتا - اثينا ٢٠٠ دراخمه -
كندا ٥٠٠ سنت - البرازيل ٦٠٠ سنت - استراليا ٦٠٠
سنت .

رئيس مجلس الإدارة

مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير

مصطفى نبيل

سكرتير التحرير

محمود تاسم

الإدارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة

تليفون : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط



روايات الله

مجلة شهرية لنشر القصص العالمية

اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمي

الحقائق تقفى

للكاتبة

دوريس ليسنج

ترجمة

محمود مسعود



دار الهلال

مقدمة

الحشائش تغنى فوق القبور الساكنة ..
من هذا البيت الرائع فى قصيدة « الأرض الخراب » للشاعر
ت . س . اليوت استلهمت الكاتبة الانجليزية دوريس ليسنج عنوان
روايتها « الحشائش تغنى » التى تترجم لأول مرة الى اللغة العربية
- كاملة - واذا كانت الكاتبة قد استلهمت عنوان الرواية من القصيدة
التي قلبت موازين الشعر الانجليزى الحديث . فانها قد استلهمت
أحداث الرواية من السنوات الطويلة التى عاشتها فى جنوب افريقيا
حيث أقامت مع أسرتها فى الفترة بين عامى ١٩٢٤ و ١٩٤٩ واذا
كانت دوريس ليسنج قد ولدت فى مدينة كرمشاه ببلاد فارس فى
أكتوبر عام ١٩١٩ . فان رحيل أسرتها الى جنوب افريقيا للعمل
بوظيفة فى أحد البنوك قد جعل الصغيرة تعرف الكثير من متاعب
الزواج فى جنوب افريقيا . وراحت وهى الكاتبة البيضاء تدافع عن
حق هؤلاء السود فى العيش بكرامة فى بلادهم .. وعن متناقضات
هذا العالم الغريب قدمت روايتها الأولى « الحشائش تغنى »
فتحت هذه الرواية الأبواب للكاتبة ان تصبح - فيما بعد -
أحد أبرز كتاب عصرها .. ليس فى انجلترا وحدها .. بل فى
كافة أنحاء العالم .. وهى - منذ سنوات عديدة - مرشحة دائمة
للحصول على جائزة نوبل فى الادب . الا أن فوز مواطنها الانجليزى
ويليام جولدنج بالجائزة عام ١٩٨٣ قد أخرج دورها ربما لبعض
الوقت ..

واذا كانت دوريس قد سبقت رواية « الحشائش تغنى » ببعض
التجارب التى لم تنشر الا أن النقاد لا يزالون يعتبرون روايتها هذه
درة أعمالها ، رغم العطاء المتدفق فى الرواية والقصة القصيرة والمسرح
وايضا فى مجالات حياتية متعددة منها مناصرة حقوق المرأة . والايمان
بالتصوف الاسلامى ..

وقد أثار نشر هذه الرواية - عام ١٩٤٩ - غضبا شديدا من قبل
السلطات العنصرية فى جنوب افريقيا فطلبت من الكاتبة أن ترحل

عن البلاد التي آثرت ان تعود الى بريطانيا - وطن اجدادها - واختارتها
للاقامة الدائمة . ورغم ان الكاتبة لم تعد قط الى جنوب افريقيا
بعد قرار ابعادها عن الاراضى . فقد استلهمت الكثير من مؤلفاتها
الاولى من هذا البلد العنصرى فقدمت خماسية « أبناء العنف » التي
نشرتها على مدى ثلاثين عاما . والتي تعد بمثابة مسيرة ذاتية عن
حياة دوريس ليسنج سواء فى روديسيا أو فى المملكة المتحدة .
كما قدمت حول هذا العالم أيضا مجموعة ضخمة من القصص
الافريقية نشرت فى عام ١٩٦٥ فى كتاب يحمل اسم « حكايات
افريقية » .

وتقول دوريس ليسنج انها لم تصدم برحيلها الى بريطانيا . فقد
قوبلت روايتها « الحشائش تفنى » باستحسان ونجاح لدرجة انها
استطاعت أن تعيش ميسورة الحال من عائد هذه الرواية لبعض
الوقت .

وقد شهدت حياة دوريس ليسنج الادبية العديد من التحولات .
فبعد المرحلة الافريقية - كما يسميها النقاد - قدمت مسرحية « التيه
أو كل فى بيدائه » فى أواخر الخمسينيات والتي حاولت فيها ان
تضم صوتها الى أصوات أعضاء مسرح الغضب فى إنجلترا والذي
كان يتزعمه « جون أوسبورن » إلا أنها ما لبثت أن هجرت المسرح
وغضبه بعد أن التقت بالكاتب الأمريكى كيرت فونجوت صاحب العديد
من الروايات التى تنتمى الى أدب الخيال السياسى وأبدت
اعجابها بما يكتبه . . ونشرت روايتها « مذكرات باق على قيد
الحياة » عام ١٩٦٠ حول مدينة أصابها وابل من السماء فمسخت
شخوصها وتغلغلت الكوابيس فى جوانبها .

وقد توقفت دوريس ليسنج عن الكتابة بضع سنوات لتلمذت
خلالها على ايدى بعض رجال التصوف المسلمين وقد تأثرت بهذه
الاجواء فى رباعيتها التى نشرتها بين عامى ١٩٧٦ و ١٩٨٣ والتى
أطلقت عليها اسم « رباعية الفضاء الميتافيزيقية » . ومن بين أجزائها
« البطاقة الذهبية » و « شيكاستا أو الأرض الخراب » و « الزواج
بين المناطق ٣ ، ٤ ، ٥ » وفى عام ١٩٨٤ أحدثت السيدة ليسنج ضجة
اعلامية كبرى حين أرسلت فتاة ذات اسم مجهول تحمل مخطوط
أحدث رواية لها الى دار نشر وطلبت منها أن تضع اسمها على الرواية

.. فما كان من الناشر الا ان رفض الكتاب بحجة ان مؤلفته لاتزال مبتدئة .. وكانت الفضيحة .

اما أحدث كتاب نشر للكاتبة فى العام الماضى فهو « امسرة ارهابية » ..

والمتتبع لانتاج دوريس ليسنج سوف يلاحظ ان هناك عالما مميزا للمرأة . لذا أصبحت نساء رواياتها رمزا لما تعانيه المرأة دائما .. هذه المرأة التى تطحنها ظروفها الاجتماعية .. وتطحنها سيادة الرجل وفحولته . ومن أبرز هؤلاء النسوة ماري تيرنر بطلة رواية « الحشائش تغنى » التى تساق الى قدرها فى مزرعتها الفقيرة مثلما يساق القربان الى المحراب فى المعابد القديمة .. عليها ان تدفع ثمنها لقوانين اجتماعية صدئة قاسية - اما مارتاكويست بطلة خماسية « ابناء العنف » فهى تعيش داخل صراعات أيديولوجية متعددة . اما الملكة الياشا فى رواية « الزواج بين المناطق ٣ ، ٤ ، ٥ » فهى تمثل لاوامر الالهة بان تتزوج رجلا يتسم بالفحولة والبدائية رغم أنها المرأة المتحضرة السامية المشاعر . ثم تعود لاطاعة الاوامر مرة أخرى حين توافق على ان يتزوج « عطا » من امرأة أخرى عملا على زيادة النسل فى كوكب حزين مهدد بالخراب ..

وحول موقفها من قضايا تحرير المرأة تقول دوريس ليسنج : « لا يرجع ارتباطى بحركة تحرير المرأة الى عام ١٩٦٠ حين كتبت « البطاقة الذهبية » .. فانا الى افكارى اليسارية قبل ذلك . وفى اليسار يعتبرون موقف المرأة موضوع مناقشة لاينتهى ..

وترى ليسنج .. من خلال احدى شخصياتها النسائية - انه عندما ستكسب المرأة الاشتراكية فعليا ان نصنع ثورة جديدة ضد الرجال . اما عن رواية « الحشائش تغنى » فقد أعيدت طباعتها منذ اربع سنوات من جديد لتواكب الاحداث الساخنة التى تدور فى جنوب افريقيا . وقامت السينما البريطانية بالاشتراك مع بعض الدول الافريقية بانتاجها فى فيلم سينمائى ضخم - عرض فى مهرجان القاهرة عام ١٩٨٤ - من اخراج مايكل ريبورن وبطولة الممثلة الامريكية المعروفة كارين بلاك التى جسدت شخصية ماري تيرنر . وقد التزم الفيلم التزاما كاملا بالنص الروائى .. وذلك حسبما يقول المخرج انه قد خاف من ان يفقد الفيلم الجاذبية التى تتمتع بها الرواية .

« جريمة قتل غامضة »
« لمراسل خاص »

« عشر على ماري تيرنر ، زوجة ريتشارد تيرنر وهو »
« مزارع في منطقة نيجزي ، مقتولة في الشرفة الامامية »
« بمنزلها في المزرعة صباح أمس . وقد تم القبض »
« على خادمهما الذي اعترف بارتكاب الجريمة . ولم يكتشف »
« بعد الدافع لاقترافها ، وان كان المظنون أن الفاعل »
« كان يسعى لاستلاب بعض الغنائم الثمينة »

ان الصحيفة التي نشرت هذا الخبر لم تذكر مزيدا من التفاصيل
... ولابد ان كل الناس في كافة أرجاء الاقليم قد القوا نظرة
على هذه النبذة بعنوانها المثير ولم يخامرهم سوى هزة غضب يسير
يمازجها احساس اقرب الى الارتياح ، وكأنما تحقق عندهم ما كانوا
يعتقدونه ، وكأن ماوقع لم يكن الا شيئا كانوا يتوقعونه .. اذ انه
عندما يقدم الاهالي على السرقة أو القتل أو الاغتصاب ، يكون هذا
احساس السكان من الجنس الابيض ..

وبعدئذ يقلبون صفحة الجريدة الى شيء آخر ..

بيد ان سكان « المنطقة » ممن كانوا يعرفون أسرة تيرنر سواء
بالمشاهدة أو من خلال ماتلوكة اللسن عنها على مدار الاعوام الطوال
- لم يقلبوا الصفحة بمثل هذه السرعة - فلابد ان الكثيرين منهم
قد اقتطعوا النبذة المنشورة في الصحيفة ودسوها بين رسائلهم
القديمة او بين صفحات كتاب ، محتفظين بها ربما كفال او نذير ،
لكي ينظروا فيما بعد الى ورقها المصفر بأعين مغمضة مندثرة ،
في الخفاء .. ذلك أنهم لم يتناقشوا في امر هذه الجريمة ، وهو
ما بعد اكثر الامور غرابة .. فكانما كانت لديهم حاسة سادسة
نبأتهم بكل ماينبغي ان يعرفوه ، وان كان الافراد الثلاثة الذين هيأت
لهم ظروفهم معرفة الحقائق وامكانية شرحها لم يقولوا شيئا ..
هكذا لم يعمد احد الى مناقشة هذه الجريمة .. ولو قال قائل :

« انه حادث سيء » لعلت وجوه القريبين منه تلك النظرة المتحفظة الحذرة ، وكان الرد لا يجاوز هذه الكلمات : « هو حادث سيء جدا » - ويكون في هذا القول الفصل .. ويبدو انه كان ثمرة اتفاق صامت على أن قضية تيرنر لا ينبغي ان تعطى استفاضة وذبوعا لامبرر لهما عن طريق الثرثرة والاقاويل المتواترة .. وعلى الرغم من هذا كله ، فان الاقليم كان اقليما زراعيا ، حيث لا تتلاقى فيه تلك الاسر البيضاء المنعزلة بعضها عن بعض الا على فترات متباعدة وهم في ظلما للاتصال بأبناء جلدتهم ، يتبادلون الاحاديث ويتناقشون في كل شيء ، ويتناولون بالتشريح والتحليل شتى الاحداث ، متكلمين كلهم في وقت واحد ، مستغلين لقاء ساعة أو نحوها قبل عودتهم الى مزارعهم حيث لا يشاهدون سوى وجوههم ووجوه خدمهم الزوج على مدار الاسابيع بلا انقطاع .. فالطبيعي اذن ان تكون هذه الجريمة مناط النقاش مدى شهور متعاقبة ، وان يغدو الناس شاكرين ممتنين لطوء شيء يتحدثون عنه ويخوضون فيه ..

وقد يبدو في نظر القريب عن الاقليم ان شخصا مثل تشارلي سلاثر الملقب بالنشاط والحيوية قد تنقل من مزرعة الى مزرعة يطلب الى الناس ان يلتزموا الصمت والهدوء .. ولكن كان ذلك شيئا أبعد عن تفكيره .. فان الخطوات التي اتخذها « ومثله لا يصدر عنه أي عمل خاطيء » كانت من وحي القرينة ودونما تخطيط واع .. والواقع ان أطرف شيء في الموضوع كله هو ذلك التوافق الصامت اللاواعي ، الذي كان فيه كل فرد يتصرف مثل سرب من الطيور التي تتواصل بعضها ببعض عن طريق نوع من التخاطر ..

ومنذ وقت طويل قبل ان يرتفع الستار عن جريمة القتل وتسلط الاضواء على أسرة تيرنر ، كانت الألسنة تتحدث عن الاسرة بأسلوب الاستنكار والتجريح وكان أفرادها من المنبوذين والشواذ . والواقع انهم لم يظفروا بمحبة الناس ، على الرغم من ان القليلين من الجيران التقوا بهم أو شاهدوهم حتى على البعد . لكن ما الذي كان يدعو الى مثل هذا النفور ؟ كل ما هناك ان آل تيرنر كانوا يؤثرون العزلة . فلم يشاهدوهم احد قط في حفلات الاقليم الراقصة او اجتماعات السمر او المسابقات الرياضية .. ولا بد انه كان في حياتهم ما ينجعلون منه - كان ذلك هو الاحساس العام .. بل كان بمثابة لظمة في وجه المجتمع .. خصوصا حياتهم المنعزلة في مثل ذلك البيت الذي

يَقْطَنون فيه وهو اقرب الى صندوق ! .. كان يفتقر لهم هذا لو كانت اقامتهم فيه مؤقتة ، وليست دائمة ! .. وباللهعجب ! .. ان بعض الاهالى انفسهم « وان لم يكونوا كثيرين لحسن الحظ » كانوا يسكنون فى بيوت مماثلة ، واى انطباع يكون لديهم اذا شاهدوا اناسا من البيض يسكنون مثلهم هكذا ! ..

ثم هناك من الناس من استخدم عبارة « البيض المساكين » وهو وصف اثار القلق فى النفوس .. ففى تلك الايام لم تكن ثمة فرص لجمع الثروات واكتناز الاموال « وذلك قبل عهد اباطرة مزارع التبغ » ، ولكن كان ثمة تفرقة عنصرية .. كانت الجبالية الصغيرة ممن يطلق عليهم الافريقان « - وهم اهل الجنوب الافريقى من اصل اوروبى - كانت تعيش حياتها الخاصة ، وكان البريطانيون يتجاهلونهم .. كان « البيض المساكين » هم « الافريقان » ، وماهم قط بريطانيين .. بيد ان من وصف آل تيرنر بأنهم من « البيض المساكين » تحسك بهذا الوصف فى عناد واصرار .. وما هو الفارق ؟ وما هو بديل « البيض المساكين » ؟ كان الفارق يكمن فى اسلوب الحياة ونمط المعيشة ، وما كان آل تيرنر بحاجة الا الى كثرة من الاطفال وتزايد فى الانجاب لكى ينطبق عليهم ذلك الوصف تماما ! ..

ومع ذلك ، وبرغم هذه النعوت التى كانت تلوكها بعض الالسنه ، فان آل تيرنر كانوا من البريطانيين مافى ذلك شك .

هكذا كان اهل الاقليم يعاملون آل تيرنر وفقا لناموس الغصبية ، وهو اول قاعدة فى مجتمع الجنوب الافريقى ، وان كان آل تيرنر قد تجاهلوه تماما .. وهذا هو ماجعلهم محلا للكراهية ..

والواقع انه كلما فكر الانسان فى هذا ، كلما بدت له القضية اكثر غرابه .. لا من ناحية جريمة القتل ذاتها ، ولكن من ناحية مشاعر الناس حيالها - تلك المشاعر التى تجلت فى رثائهم لحال ديك تيرنر وغضبهم العنيف ضد مارى ، وكأنها كائن منفر وملثاث ، فكان القتل لها جزاء وفاقا ! .. وعلى الرغم من هذا فانهم لاذوا بالصمت ولم ينحازوا الى السؤال والاستقصاء ..

وعلى سبيل المثال ، لابد انهم راحوا يتساءلون من هو ذلك « المراسل الخاص » الذى بعث بالنبا الى الصحيفة .. لابد انه شخص فى الاقليم ، لان النبذة التى نشرت لم تكن تتضمن طابع

الاسلوب الصحفى .. لكن من هو ؟ .. ان مارستون ، مساعد المزرعة ، قد بادر بالرحيل عن الاقليم عقب الجريمة مباشرة .. ربما كان دنهام ضابط الشرطة هو الذى كتب الى الصحيفة بصفته الشخصية ، وان لم يكن هذا محتملا .. بقى اذن تشارلى سلاتر ، وهو الذى يعرف من احوال آل تيرنر اكثر مما يعرفه احد آخر ، وكان فى مسرح الجريمة يوم حدوثها .. ومن الممكن ان يقول الانسان انه راح يشرف عمليا على معالجة القضية ، بل انه كانت له الاسبقية على الضابط ذاته .. وكان شعور الناس هو ان هذا شىء جد سليم وملائم .. والا فمن ذا الذى يحفل ويهتم ، غسیر المزارعين البيض ، اذا استجلبت امرأة حمقاء على نفسها القتل على يد رجل من الاهالى لاسباب وبواعث قد يفكر فيها الناس ، ولكنهم ابدا لا يذكرونها ولا يفصحون عنها قط ؟ .. فذلك طابع حياتهم ، ولهم أسر وزوجات ، والخطر مائل من حولهم ..

ولكن الاجنبى عن الاقليم قد يستغرب ان يباح لتشارلى سلاتر ان يتولى زمام الاشراف على القضية ، وان يعمل على ان يمر كل شىء بأذنى قدر من التعقيب والبيان .. وقد يسأل سائل لماذا عمد سلاتر حينما حمل اليه عمال المزرعة نبأ الجريمة ، الى تسطير رسالة الى الضابط فى مركز الشرطة بدلا من استخدام التليفون ؟ .. ومع ذلك فان كل من عاش فى الاقليم كان يعرف ماهو حال التليفون هناك .. فالانسان يرفع السماعه بعد ادارة القبض مرات عديدة فلا يسمع الا طقطقة تسرى فى كافة السماعات ، مصحوبة بأنفاس تتردد ، وحفيف أصوات ، وسعال مكتوم ! ..

كان سلاتر يقيم على بعد خمسة اميال من مزرعة تيرنر .. وقد هرع اليه عمال المزرعة عندما اكتشفوا الجثة .. وعلى الرغم من خطورة الحادث فقد تجاهل سلاتر التليفون ، وبعث برسالة شخصية مع احد الاهالى على دراجة الى الضابط دنهام فى مركز الشرطة على بعد اثنى عشر ميلا .. فبادر الضابط بإيفاد ستة من أفراد الشرطة الوطنيين الى مزرعة تيرنر ، للبحث عما يمكن ان يعثروا عليه .. وعرج الضابط بسيارته على مقر سلاتر اولا ، اذ ان اسلوب صياغة الرسالة اثار فضوله ، وكان ذلك هو سبب وصوله الى مسرح الجريمة متأخرا ..

ولم يضطر أفراد الشرطة الزوج الى البحث بعيدا عن القاتل ..

فبعد القاء نظرة عامة على الجثة ، وتفقد المكان امام الربوة الصغيرة
التي يقوم عليها المنزل - شاهدوا موسى ذاته ينهض من بين دغل
من الاغصان الجافة في مواجهتهم مباشرة .. وقد تقدم اليهم
مستسلما .. فوضعوا القيود حول يديه ، ثم عادوا الى المنزل في
انتظار وصول سيارات الشرطة .. وهناك ابصروا ديك تيرنر يخرج
من خلف الشجيرات الكثيفة قرب المنزل وفي اعقابيه كلبان
ينبحان .. كان مذهب العقل ، يكلم نفسه بجنون ، هائما على
وجهه بين الشجيرات جيئة وذهابا ويداه مليئتان بأوراق الشجر
وتربة الارض .. ولكنهم تركوه طليق السراح مع مراقبته عن كثب
فهو رجل ابيض ، وان كانت به جنة ، والزنوج لا يضعون ايديهم
على الرجال البيض حتى ولو كانوا من افراد الشرطة ..

وقد تساءل الناس بفضول لماذا استسلم القاتل طواعية ...
صحيح انه لم تكن ثمة فرصة كبيرة للهروب ، ولكن كانت الفرصة
متاحة فعلا .. اذ كان بوسعه ان يهرب الى التلال ويختفي الى حين
او كان يستطيع التسلل عبر الحدود الى المستعمرات البرتغالية ..
بيد ان العالمين بتاريخ الاقليم يعرفون التفسير الشافي - خصوصا
اولئك الذين اطلعوا على مذكرات ورسائل رجال الارشاليات التبشيرية
والمستكشفين الاوائل ، عن الاحوال في المناطق التي يحكمها الملك
لونجولا .. كانت القوانين صارمة .. وكل انسان كان يعترف
مايمكنهم ان يفعلوه .. فاذا اقترف احد شيئا لايفتقر ، مثل
ملازمة احدى نساء الملك ، عوقب عقابا ذريعا لامنحاة منه ولا
عاصم ، وهو وضعه فوق « خازوق » على ربوة عالية .. وله ان
يقول قبل انزال العقاب به : « اننى ارتكبت عملا خاطئا ، وانا اقر
بهذا .. وعلى هذا فلينزل بى العقاب ..

وعلى اية حال فان تشارلى سلاتر حالما بعث بالاخطار المكتوب
الى مركز الشرطة ، قصد الى مقر آل تيرنر ، مسرعا بسيارته
الامريكية الكبيرة فى الطرقات الزراعية الوعرة ..

من يكون تشارلى سلاتر ؟ .. هو القاسم المشترك الاعظم فى
مأساة آل تيرنر ، من البداية الى النهاية .. انه يتجسم فى القصة
طوال سياقها .. وبدونه كان يمكن الا تتطور الامور على النحو
الذى تطورت اليه ، وان كان مقضيا ان ينكب آل تيرنر بما نكبوا
به ، طال الزمان او قصر ، وعلى هذا الوجه او ذاك ..
كان سلاتر يعمل فى لندن مساعدا فى محل بقالة .. وكان

يجد لذة في أن يقول لأطفاله انه لولا وفرة نشاطه وسعة حيلته وجسارته لبقوا يتقلبون في أزقة لندن وأحيائها الفقيرة في ملابس رثة وخرق بالية .. وقد ظلت طباع بيئته تلك تلازمه حتى بعد أن قضى عشرين عاما في افريقيا .. لقد هبط إليها تستحوذ عليه فكرة واحدة لا ثانية لها ، وهي أن يجمع ثروة .. وقد وفق في هذا ، وجمع مالا وفيرا .. وكان بفطرته رجلا فظا غليظ القلب أدنى الى القسوة وأبعد عن الرحمة .. وكان يباشر الزراعة وكأنه يدير ذراع آلة تخرج له أوراق النقد من طرفها الآخر .. وكان قاسيا مع زوجته ، وكم عرضها لمشاق لا ضرورة لها في البداية .. وكان قاسيا مع أطفاله ، الى أن جمع ماله المنشود ، وبعدها أباح لهم كل ما يشتهون .. وكان فوق كل شيء قاسيا مع العمال الأجراء في مزرعته .. كانوا وهم الأوز الذي يبيض له البيض الذهبي ، لا يزالون في تلك المرحلة التي لم يكونوا يعرفوا فيها أن هناك أنماطا أخرى للعيش غير إنتاج بيض من ذهب للغير .. أنهم الآن قد عرفوا هذا ، وهم بسبيل هذه المعرفة ، ولكن سلاتر كان يؤمن بالزراعة المقترنة بالكرباج .. لقد علق على بابه الامامي ، وكان شعاره المعلن الذي يقول : « لن اتردد في القتل اذا لزم الأمر » .. بل انه قتل عاملا من الاهالي ذات مرة في سورة غضب .. وكان جزاؤه غرامة قدرها ثلاثون جنيها .. ومنذ تلك المناسبة التزم كبح جماح غضبه .. ولكن الكرابيج أدوات طيبة في عرف آل سلاتر ، وان لم تكن كذلك في نظر أولئك الذين هم أقل منهم عزيمة .. وكان سلاتر هو الذي أخبر ديك تيرنر منذ عهد بعيد ، عندما ابتداء ديك في إدارة مزرعته ، أن على المرء أن يشتري الكرباج قبل المحراث او المسحاة ، وان كان ذلك الكرباج لم يشمر خيرا لآل تيرنر ، كما سترى

وكان سلاتر في تكوينه الجسدي رجلا قوى البنية ، عريض المنكبين ، أدنى الى القصر ، مفتول الذراعين ، تنم سمات وجهه عن الدهاء والمكر المقترنين بالحذر .. وكانت تعلوها منه خصلة شعر كثيف اشقر جعلت صورته اقرب الى سجين محكوم عليه .. بيد انه لم يكن ممن يبالون بالمظاهر .. وكانت عيناه الصغيرتان الزرقاوان لا تكادان تلوحان في وجهه بسبب طول تقطيهما نتيجة للاعوام المتعاقبة في وهج شمس افريقيا الجنوبية .. ولم يتمالك وهو يكاد يحتضن عجلة القيادة لفرط تعجله الوصول

الى بيت آل تيرنر ان راح يتساءل : كيف ان مارستون الذى كان
رغم كل شىء موظفا عنده لم يحضر اليه للإبلاغ عن الجريمة ، او
على الاقل لم يبعث برسالة ..؟ فآين هو ؟.. ان الكشك الذى يسكنه
لا يبعد أكثر من مائتى ياردة عن البيت ذاته .. لعله ارتعب من
الموقف وهرب ؟.. ان كل شىء جائز من جانب هذا الطراز من
الشباب الانجليزى ، كما فكر سلاتر .. كان يكن فى أعماقه احتقارا
لبنى جلدته من الانجليز ذوى الوجوه الناعمة والاصوات المسترخية
ممتزجا بالبهر من تربيتهم وسلوكهم .. ان ابناءه ، اولئك الذين
شبهوا الان وترعرعوا ، كانوا فى عداد « الجنتلمان » .. فهو قد
انفق مالا كثيرا لكى يصبحوا هكذا .. بيد انه كان يحتقرهم كذلك
لنفس السبب .. ولكنه فى نفس الوقت كان فخورا بهم .. وهذا
التناقض قد تجلى فى مسلكه حيال مارستون .. فسلك نصفه
جفوة ولا مبالاة ، ونصفه احترام خفى .. اما فى لحظته الراهنة
فلم يخامرة سوى شعور الاستياء والمضض ...

ولم يلبث وهو فى منتصف الطريق ان شعر بالسيارة تهتز
فتوقف .. فقد حدثت ثقب فى إحدى العجلات ، بل فى عجلتين
.. ووجد شظايا زجاج مكسور متناثرة فى الوحل الاحمر فى
الطريق .. ولم يتمالك ان نفس عن استيائه بهذه الخاطرة اللاواعية
« ليس قريبا على آل تيرنر ان يتناثر الزجاج المحطم فى طريق
دارهم ! » .. وحين فكر ان تيرنر ذاته هو الان اجدر بالثناء والعطف
لما اصبح فيه ، تركز استياؤه على مارستون ، مساعد المزرعة ،
ذلك الذى رأى سلاتر انه كان عليه ان يمنع وقوع الجريمة على
نحو ما .. والا فما الفائدة من استخدامه ودفع أجره ؟.. ومع
ذلك فان سلاتر ينبغى ان يكون منصفاً ، خصوصا فيما يتعلق بأفراد
من بنى جلدته .. هكذا تمالك مشاعره ، ونزل من السيارة
فأصلح ثقباً فى إحدى العجلتين وأبدل اطار الثانية متجسماً عناء
الوحل المحمر ، حتى استغرقت منه هذه العملية ثلاثة أرباع الساعة
... وما ان فرغ فى النهاية وألقى حطام الزجاج فى الغابة حتى كان
العرق يغمر وجهه وشعره ..

وعندما وصل الى البيت فى النهاية أبصر وهو يقترب من خلال
الشجيرات ست دراجات لامعة مستندة الى الحوائط .. ووقف
تحت الاشجار امام المنزل ستة من أفراد الشرطة الوطنيين وبينهم
موسى الزنجى ويده مقيدتان امامه .. وكانت الشمس تشرق فوق

القيد الحديدى وقوق الدراجات وفوق اوراق الشجر المتكاثفة ..
كان هذا الصباح شديد الحرارة والرطوبة ، والسماء ملبدة بسحب
مثقلة بنذر المطر ..

وتقدم سلاتر نحو أفراد الشرطة الذين بادروه بالتحية .. كانوا
مطربشين لابسين زيا رسميا اقرب الى الملابس التنكرية ، وهو
مالم يكن سلاتر يحبه ، اذ كان يفضل ان يرتدى عماله من الزنوج
المثزر الوطنى .. وكان أفراد الشرطة الذين يختارون بعناية من
ذوى اللياقة الموفورة يبدون فى تناسق بدنى طيب ، ولكنهم كانوا
أدنى من موسى بكثير ، اذ كان شابا ماردا هرقليا ، وكان فاحمسا
مصقولا كالأبنوس ، مرتديا قميصا و « شورتا » يعلوهما بلل الرطوبة
والوحل

ووقف تشارلى امام القاتل مواجهة وراح يتفرس فى وجهه ..
فرد الشاب تحديقه بمثله فى غير مبالاة ودون ان تلم عيناه عن
شئ .. كانت نظرات سلاتر تشف عن التشفى والشماتة ، وان
مازجها خوف مستتر .. لكن قيم الخوف ؟ .. من موسى الذى كان
فى حكم المحكوم عليه بالاعدام شنقا ؟ .. غير أنه كان فى دخيلته
يشعر بقلق واضطراب ، ثم مالبت ان تقض هذا الاحساس متمالكا
نفسه ، والتفت فوق نظره على ديك تيرنر الذى وقف على بعد
خطوات قلائل ، ملطخا بالوحل ..

قال له سلاتر بلهجة الامر : تيرنر ! ..
نظر ديك اليه ، وبدا أنه لايعرفه .. فأمسك تشارلى بذراعه
وجذبه نحو سيارته .. لم يكن وقتها يعرف أن الرجل قد أصيب
بلوثة جنون لا شفاء منها .. وبعد أن أجلسه فى مقعد السيارة
الخلفى دلف الى داخل المنزل .. فألقى مارستون واقفا فى الغرفة
الامامية ويداه فى جيوبه وقفة الهدوء اللامبالى ، غير أنه بدا شاحب
الوجه ظاهر الاجهاد ..

قال له تشارلى من قوره بلهجة الالهام :

- أين كنت ؟ ..

فأجاب الشاب بهدوء :

- أن مستر تيرنر كان يوقظنى فى العادة .. ولكننى فى هذا
الصباح نمت متأخرا .. وعندما دخلت الى المنزل وجدت مسر
تيرنر ملقاة فى الشرفة .. وبعد ذلك جاء أفراد الشرطة .. وبقيت
انتظر حضورك ..

ولكن الشاب بدا فى حالة تخوف .. كان الخوف من الموت هو الذى لابس نبرات صوته ، لا مثل الخوف الذى كان يشيع فى تصرفات تشارلى ، لان الشاب لم يقم فى هذه البلاد المدة الطويلة التى تهيب له ان يفهم سر خوف سلاتر الدقيق ...

فمغم تشارلى استياء .. اذ كان لا يتكلم الا عند الضرورة ، وجعل ينظر الى مارستون طويلا فى استغراب ، وكأنما يريد ان يستخبر لماذا لم يتجه عمال المزرعة لاستدعاء رجل كان نائما على بعد ياردات قليلة من المنزل ، ولكنهم اتجهوا بوحى الفريزة لاستدعائه هو شخصا .. وعلى اية حال فان نظراته الى مارستون الان لم تكن مشوبة بالنفور أو الاحتقار .. كانت نظرات رجل الى شاب يحتمل ان يغدو شريكا له فى العمل اذا هو برهن على جدارته ..

وانثنى تشارلى ودخل الى غرفة النوم .. كانت ماري تيرنر جسدا متصلبا تحت ملء بيضاء متسخة .. وبرزت من أحسد طرفى الملاء كتلة من شعر أصفر كالقش ، ومن الطرف الثانى قدم باهتة عجفاء .. ثم حدث الان شئ غريب .. فان الكراهية والاحتقار اللذين كانا من المتوقع ان يرتسما على وجهه عند نظره الى القتائل ، قد مسحا الان ملامح وجهه وهو يحدق فى ماري .. لقد قطب جبينه ، وزم شفثيه عاضا على أسنانه حتى كان لتقلص سننحته طابع شرير .. ولولا انه وقف مديرا ظهره نحو مارستون لدهش الشاب لرؤيته على هذه الحال .. ثم لم يلبث تشارلى ان استدار بحركة حادث غاضبة وغادر الغرفة ، دافعا الشاب أمامه .. قال مارستون : كانت ممددة فى الشرفة .. فرفعتها الى الفراش .

وارتعد الشاب لذكرى ملمس الجسد البارد ، ومضى يقول :
- ... فقد بدا لى انه لاينبغى أن تبقى ملقاة على هذه الصورة ..

وتردد برهة ، ثم اردف قائلا وعضلات وجهه تختلج :

- كان الكلبان يلعبان جسدها ..

أوما تشارلى برأسه وهو يرمق الشاب بنظرة حادة ، فما كان يهمه أن تكون القتيلة فى أى موضع .. وفى نفس الوقت حمس للشاب رباطة جأشه اذ قام بهذه المهمة الكريهة ..

واستطرد مارستون قائلا :

- كان الدم فى كل موضع .. افقمت بتنظيفه .. ثم خطر فيما

بعد انه كان يجب على ان اتركه للبوليس ..
فقال تشارلى سارحا : لا غرابة فيما فعلت ..
وجلس على احد الكراسى الخشبية الخشنة فى الغرفة الامامية
ولبت مستغرقا فى التفكير وهو يصفر بخفوت من خلال أسنانه
الامامية .. ووقف مارستون لدى النافذة ينتظر وصول سيارة
الشرطة .. وبين فينة واخرى كان تشارلى يدير نظره حول الغرفة
فى تحرز ، مجيلا لسانه على شفثيه .. وما عثم أن عاد الى التصفير
الخافت ، الذى ثقل على اعصاب الشاب ..
واخيرا قال تشارلى بحذر ، وفى شبه نذير :
- ماذا تعرف عن هذا الحادث ؟ ..

استغرب مارستون لهجة تشارلى ، وتساءل فى نفسه ما الذى
يعرفه هذا الرجل ذاته ؟ .. كان متمالكا أعصابه ، وأن احسن بها
متوترة .. وقد رد قائلا :
- لا اعرف .. لا شىء فى الواقع .. الموقوف كله يبدو
صعبا ..

وامسك متريدا وهو يتطلع الى تشارلى على نحو اقرب الى
الاستعطاف ..

ان نظرة الاستعطاف اللينة هذه ضايقت تشارلى لصدورها عن
رجل ، بيد انها سرته كذلك : فقد سره أن الشاب فى وجل منه ..
انه ليعرف هذا الطراز من الشباب حق المعرفة .. كثيرون منهم
جاءوا من انجلترا لتعلم الزراعة .. وكانوا عادة من خريجي المدارس
العامة ، متعلقين بانجليزيتهم ، ولكنهم قابلون للتكيف الى حد بعيد
... وهذا التكيف فى نظر تشارلى يصلح من شأنهم ويقيس
عشارهم .. وكان من الغريب أن يرى المرء بأية سرعة كانوا يعتادون
هذا التطور الجديد ، ويندمجون فى هذه البيئة التى يألفوها من
قبل ..

وعندما كان المستوطنون القدامى يقولون : « على الانسان ان يفهم
هذه البلاد » - فانما كانوا يعنون « أن عليك أن تتعود على افكارنا
تجاه الأهالى » ... كانوا يقولون واقعا : « تعلم افكارنا وتشرب آراءنا
والا فارحل عن هنا .. نحن لا نريدك بيننا » .. كان معظم هؤلاء
الشبان الوافدين قد تربوا ونشئوا على افكار مبهمة عن المساواة ..
وبعد انقضاء اسبوع أو نحوه كانوا يصدمون بأسلوب معاملة الأهالى
.. كانوا يشتمون مئات المرات كل يوم من الأسلوب المستخف المهين

الذى يتحدث به المستوطنون عنهم ، وكأنهم قطعان من الماشية ، ناهيك بما يتعرضون له من ضرب او اذى .. كان أولئك الشبان على استعداد لمعاملة الاهالى لمخلوقات آدمية .. بيد أنهم لم يكونوا يستطيعون ان يقفوا فى مواجهة المجتمع الذى جاءوا ينضمون اليه وينخرطون فيه .. ثم لاينقضى وقت طويل حتى يصيبهم التفسير .. واذا هذا الشباب المهذب قد غلظت حراسه لتتكيف مع هذه البيئة القاسية القائظة التى جاءوا اليها .. وفى النهاية يحتذون اسلوبا جديدا فى معاملة الاهالى يضاهى مااستهدفوا له من وقدة الحر وتصلب الاجساد .

ولو ان مارستون قد اقام بضعة شهور اخرى فى البلاد الهسان الامر ، كما كان تقدير تشارلى .. ومن اجل هذا كان يتطلع الى الشاب عابسا مستخبرا ، لا نظرة تحامل ولا ادانة ، ولكن نظرة الحذر والترقب ..

قال له تشارلى : ماذا تعنى بقولك ان الموقف كله يبدو صعبا ؟ .. بدا تونى مارستون محرجا متمللا كأنما لا يستقر على رأى يأخذ به ويعرب عنه .. والواقع ان هذا كان حاله .. ان الاسابيع التى أمضاها فى جوار آل تيرنر بجوها المأساوى لم تكن ممسا يساعده على التماس تفكير سليم .. كان امام معيارين ، احدهما الذى جاء به وثنائهما الذى تبناه ، مازالا يتصارعان فى دخليته ... ثم هو قد آنس الآن فى لهجة تشارلى تحذيرا اثار التساؤل والعجب فى نفسه .. فما هذا الذى يحذره منه ؟ .. كان الموقف كله غير عادى .. فأتين رجال الشرطة ؟ .. وبأى حق استدعى تشارلى وهو جار ، قبله هو ، مع انه فى الواقع فرد من افراد البيت ذاته ؟ ... ولماذا كان تشارلى يمسك بزمام الموقف بهذا الهدوء ؟ ..

ان افكاره عن الحق والصواب قد اضطربت موازينها .. كان فى حالة تشوش فكرى .. ومع ذلك كانت له افكاره الخاصة عن الجريمة ، تلك التى لايمكنه ان يصرخ بها مباشرة ، هكذا ، وببساطة ... وعندما أخذ يعيد التفكير فى الموقف ، بدت له الجريمة منطقية بدرجة كافية .. وباستعراض ما سلف فى الايام القلائل الماضية ، كان بوسعها ان يرى ان شيئا كهذا كان لابد ان يحدث ، بل انه ليكاد يقول انه كان يتوقع حدوثه ، على نحو عنيف عاصف .. ان الغضب والعنف ، والموت - بدأ كل هذا طبيعيا فى هذا البلد الشاسع

القاسى .. انه جيل يفكر كثيرا منذ ان جاء عفوا الى البيت فى هذا الصباح ، متعجبا من ذلك التأخير الذى آنسه من الجميع ، لسكى يجد مارى تيرنر ملقاة مقتولة فى الشرفة ، وأفراد الشرطة فى الخارج يحرسون خادم البيت ، وديك تيرنر هائما على وجهه مجنونا وان كان جنونه فى الظاهر غير خطر .. ان الظواهر التى لم يكن فهمها من قبل ، قد فهمها الان ، وهو على استعداد للكلام عنها .. بيد انه كان فى جهل من اتجاه تشارلى .. ان حواليه شيئا لم يستطع ان ينفذ الى كنهه ..

راح يقول فى النهاية ردا على تشارلى :

- المسألة هكذا .. اننى عندما وصلت الى هنا لأول مرة ، لم

اكن اعرف كثيرا عن البلد ..

فقال تشارلى بتهكم بالغ القسوة :

- شكرا عن هذا الايضاح ...

ثم اردف على الاثر :

- هل عندك اية فكرة . لماذا قتل هذا الزوجى مسز تيرنر ؟ ..

- حسن ... عندى فكرة ما .. نعم ..

- الافضل ان نترك الامر للضابط اذن ، عندما يصل ..

كان هذا بمثابة صد له عن الكلام ، والجام فمه .. وهكذا امسك

تونى لسانه ، غاضبا ، ولكن متحيرا ..

- وعندما جاء الضابط وقف برهة يتطلع الى القاتل ، ثملقى

نظرة على ديك من خلال نافذة سيارة سلاتر ، وبعدها دخل الى

المنزل .. وقال مخاطبا تشارلى :

- اننى ذهبت الى مزرعتك ياسلاتر ...

وفى نفس الوقت اوما براسه الى تونى وهو يرمقه بنظرة حادة

... ثم انتقل الى غرفة النوم .. كانت انطباعاته مماثلة لانطباعات

سلاتر : الكراهية والحقد تجاه القاتل ، والرثاء لديك ، والاحتقار

المشوب بالغضب والمرارة حيال مارى ...

كان الضابط دنهام قد امضى فى البلاد سنين عديدة .. وحين

لمح تونى التعبير المرتسم على وجهه احس بصدمة .. بل ان وجهى

الرجلين وهما واقفان يحدقان فى الجثة جعلاه يشعر بالقلق ، وحتى

بالخولب .. انه هو نفسه كان يخامر اشمزازا يسير .. لكن

ذلك لم يكن شعوره الغالب .. وانما كان فائره وورثاؤه وهو يعرف ماعرفه ..

ومالبث الرجال الثلاثة ان انتقلوا الى غرفة الجلوس صامتين .. وقد وقف تشارلي سلاتر والضابط دنهام جنباً لجنب مثل قاضيين وكأنما قد اتخذا هذا الموقف عن عمد .. ووقفت تونى فى مواجهتهما .. وكان رابط الجاش متمالك الاعصاب ، بيد انه شعر بتأثم غريب يستحوذ عليه ، لا لشيء سوى وقفتها تلك ، وقد راحا يتطلعان اليه بوجهين فيهما من التحفظ المزوج بالدهاء مالم يستطع ان يسبر اغواره ويتأدى الى مراميه ..

ثم قال الضابط دنهام باقتضاب :

— قضية سيئة

لم يجب أحد .. ففتح الضابط دفتر احوال كان بيده وشرع قلمه ، قائلاً لتونى :

— مجرد أسئلة قليلة ، اذا لم تمنع ..

وعندما أوما الشاب برأسه اضاف الضابط :

— منذ متى أنت هنا ؟ ..

— منذ حوالى ثلاثة أسابيع ..

— هل كنت تقيم فى المنزل ؟ ..

— لا .. فى كشك فى آخر الدرب ..

— هل كنت ستشرف على هذه المزرعة مدة سفرهما ؟ ..

— نعم .. لمدة ستة شهور ..

— وبعد ذلك ؟ ..

— بعدها كنت أنوى ان أنتقل للعمل فى احدى مزارع التبغ ..

— متى عرفت بأمر هذه الواقعة ؟ ..

— انهم لم يستدعوني .. فقط استيقظت من النوم ، ثم عثرت

على مسنن تيرنر ..

أبان صوت تونى الآن انه قد وقف موقف الدفاع .. لقد شعر

انه جرحت كرامته واهين آذ لم يستدعه أحد ، واكثر من هذا لان

هذين الرجلين بدأ انهما يريان انه لشيء طبيعى وصواب اذ يتجاهلونه

على هذه الصورة ، وكان خدائهم عهده بالبلاد لا تؤهله لاي نوع من

المسئولية .. ثم انه استاء من الكيفية التى يجرى بها استجوابه

فما من حق لهما ان يفعلا هذا ، ومن ثم بدأ الغضب يعتمل فى

صدره — ذلك وان كان يعرف تماما انهما على غير وعى بالقسومة

البادية في مسلكهما ، وان من الخير له ان يحاول وان يفهم المعنى الحقيقى لما يدور الان ، لا ان يقف متحفزا للدفاع عن كرامته ..

— هل كنت تتناول طعامك مع الاسرة ؟ ..

— نعم ..

— بغض النظر عن هذا ، هل كانت لك هنا — اتصالات اجتماعية ان جاز هذا التعبير ؟ ..

— كلا ، بتاتا .. اننى كنت مشغولا بتعلم مهنتى الجديدة ..

— هل كنت على صلة طيبة مع تيرنر ؟ ..

— نعم .. اظن هذا .. اقصد ، انه لم يكن من السهل التعرف به .. كان شديد الانهماك فى عمله .. وكان من الواضح انه لم يكن سعيدا قط بمفارقة المزرعة ..

— نعم .. هو مسكين فعلا .. وشدد ما كان يعانى من جراء ابتعاده عن المزرعة ..

كانت لهجة الضابط تشف عن التعاطف والرثاء ، رغم حدة كلماته ثم لم يلبث ان اطبق فمه اطباقا . وكأنما يريد ان يحتفظ بمظهره الجاف ..

اخيم صمت طويل .. ثم اطبق الضابط دفتر الاحوال .. بيد انه لم يتم بعد مهمته ... فقد راح يتأمل تونى بحذر ، مفكرا فى كيف يصوغ سؤاله التالى .. او هذا هو مابدا لتونى ، الذى راي ان اللحظة قد حانت للدخول فى صميم القضية .. والواقع ان ذلك لاح فى وجه تشارلى ، الذى شفت ملامحه عن تحفز مشوب بالحدر والدهاء ، والتخوف ايضا .. فى حين قال الضابط دنهام بلهجة اصطنع فيها العفوية :

— هل رايت شيئا غير عادى اثناء وجودك هنا ؟ ..

— نعم .. رايت ..

اندفع هذا الرد من تونى ، الذى صمم فجأة الا يستجيب للضغط او التخويف ، اذ ايقن انه الان عرضة لهذا فعلا .. وقد تطلع اليه الرجلان مقطبين ، وتبادلا نظرة سريعة ثم تباعدت أعينهما على الاثر كأنما خافا ان يبدو تواطؤهما ..

— وما الذى رايت ؟ .. آمل انك تدرك ما فى هذه القضية من نواح لا تبعث على الارتياح ؟ ..

كان السؤال في الواقع أقرب الى الرجاء .. وقد رد توني بجفاء :

- ان اية جريمة قتل فيها قطعاً مالا يبعث على الارتياح ..
- عندما تبقى في هذه البلاد مدة طويلة كافية ، فسوف تفهم اننا لا نحب ان يعمد الزنوج الى قتل نساء من البيض ..
لم يتمالك توني ان غضب لتكرار عبارة « عندما تبقى في هذه البلاد مدة طويلة كافية » التي وجهت اليه اكثر من مرة ، وود ان يتدفع من قوره للكشف عن الحقيقة في غير لف ولا دوران .. لكن المسألة لم تكن بهذه البساطة .. ان الحقيقة التي عرقها ، او تكهن بها ، عن ماري ، تلك الحقيقة التي افق هذين الرجلين يتساوئان الآن لتجاهلها يمكن ان يذكرها في غير غباء .. لكن ما كان يعنيه قبل هذا كله ، هو ان يفهم الجوانب الخلفية ، والظروف ، والطباع المتعلقة بديك وماري ، ونسيج حياتهما .. وهذا ما لم يكن من السهل بلوغه .. انه قد توصل الى الحقيقة بصورة غير مباشرة ، ولا مفر ان يكون بيانها بهذه الصورة .. وكان احساسه القسالب الان ، وهو الرثاء لكل من ماري وديك والزنجي ، الى جانب السخط على الظروف كلها - هو ما جعل من الصعب عليه ان يعرف من اين يبدأ البيان ...

قال اخيراً : اسمعوا ... سأقول لكم كل ما أعرفه منذ البداية ، فقط سوف يستغرق هذا بعض الوقت .. انني أخشى ..

- تقصد أنك تعرف لماذا قتلت مسز تيرنر ؟

كان السؤال مشوباً بالمرور وكأنه ضربة وقائية .. فقال توني :
- لا ... ليس هذا ما أقصد ... فقط بإمكانى ان أكسبون نظرية ..

- اننا لا نريد نظريات .. نريد حقائق .. وعلى أية حال عليك ان تفكر في حالة ديك تيرنر .. ان ما حدث ويحدث هو شيء كرهه .. جداً بالنسبة اليه ... يجب ان تذكر - هذا المسكين ..

هكذا أعادوا الكرة برجائهم البطن المجاني للمنطق ..

وبدا توني يفقد أعصابه ، فقال باستياء :

- هل تريدون او لا تريدون ان تسمعوا ما عندي ؟ ..

- تكلم .. تذكر فقط اننى لا اريد ان اسمع تخيلاتك .. اريد ان اسمع حقائق .. هل رأيت شيئاً « محمداً » يمكن ان يلقي

الضوء على هذه الجريمة ؟... على سبيل المثال ، هل رأيت هذا الولد يحاول السطو على مجوهراتها ، أو شيئا من هذا القبيل ؟... نريد شيئا محددا ... لا شيئا فى الهواء ...

ضحك تونى ، حتى نظر اليه الرجلان بحدة ... فقال :
- أنتم تعرفون كما اعرف أن هذه القضية ليست شيئا يمكن تفسيره بشكل مباشر هكذا ... تعرفون هذا تماما ...
بدا كأنهم أمام طريق مسدود ... وأخيرا تكلم الضابط دنهام مقظبا وكأنه لم يسمع ما قاله تونى :

- على سبيل المثال أيضا ، كيف كانت مسز بيرنر تعامل هذا الولد ؟... هل كانت تعامل خدمها معاملة حسنة ؟...

رغم شعور تونى بالفضيب من هذا الموقف ، فقد تعلق بهذا السؤال كبداية للكلام ، وقال :

- الحقيقة أنها كانت تعاملهم معاملة سيئة ، فيما أظن ... ذلك وإن كان من ناحية أخرى ...

- كانت تضايقه ، مثلا ؟... لا بأس ... الحقيقة أن النساء فى هذه البلاد على هذه الشاكلة ، غالبا ... ألسن كذلك ياسلاتر ؟...
أن زوجتى ذاتها تثير جنونى أحيانا من هذه الناحية ... ليست لديهن أية فكرة عن أسلوب التعامل مع الإهالى ...

فقال تشارلى : أن التعامل معهم يحتاج إلى رجل ... أنهم لا يفهمون أن يتلقوا الأوامر من النساء ... وهم يلزمون نساءهم بالطاعة والخضوع ...

وضحك تشارلى ... وضحك الضابط ... والتفت كلاهما إلى صاحبة ، والتفتا بدورهما إلى تونى ، سعيا إلى تلطيف حدة الموقف ...
هكذا انفرج التأزم ، وزال الخطر ... ومرة أخرى ألقى الشاب نفسه بلا حول ... وانتهت المقابلة كما يبدو ، وهو لا يكاد يصدق حواسه ...

قال الشاب : لكن استمعوا منى ...
ثم توقف عن اتمام كلامه ، واستدار الرجلان يتطلعان إليه بنظرات رصينة تشف عن الاستياء ... وكان فيها من التحذير مالا تخطئه العين ... تحذير من النسوع الذى يوجه إلى انسان غير قليل الخبرة يوشك أن يقول شيئا أكثر مما ينبغى ، فيتعرض للخذلان ... كان هذا فى الحق أكثر مما يستطيع تونى احتماله ... وهكذا غلب على أمره ... وغسل يديه من القضية ، خصوصا وقد

الفي الرجلين متضامنين تماما في موقفهما منه ، متفاهمين قلبا
وقالبا ، دون ان يشعرا بأية غرابة في هذا المسلك ، او خروج على
القانون .. وهل ثمة شيء خارج على القانون على اية حال ؟ ..
ان مدار بينهم كان اقرب الى حديث عابر ، بعيدا عن الطابع
الرسمي بعد اقفال دفتر الاحوال !...

وفي النهاية التفت تشارلي الى الضابط قائلا :
- الافضل نقل الجثة من هنا .. الانتظار اكثر من ذلك لا يتفق
مع حرارة الطقس ..

فقال الضابط : نعم ...
وتقدم لاصدار الاوامر اللازمة لذلك ..
وكانت هذه الاشارة العابرة الى شخص ماري المنكودة هي آخر
ما صدر في حقها .. وهل من غرابة في هذا ولم يكن مدار سوى
حديث ودي بين المزارع الذي كان اقرب جار لها ، وبين ضابط
الشرطة الذي كان يمر بالبيت في طوافه كمجرد ضيف عابر ،
ثم مساعد المزرعة الذي لم يلبث فيها اكثر من اسابيع معدودة ؟ ..
لم تكن اذن هذه مناسبة رسمية ، وهكذا تعلق - تونى بهذا الخاطر
انتظارا للتحقيق الذي سيعقد في المحكمة ، والذي ستدور اجراءاته
بصورة اقوم واكثر دقة ..

وما لبث الضابط ان قال وكأنما يفكر بصوت مسموع ناظرا الى
تونى :

- ان القضية ستكون امام المحكمة كمجرد اجراء دوليني
بالطبع ...

ووقف الضابط قرب سيارة الشرطة يراقب رجاله وهم ينقلون
جثة ماري تيرنر التي لفت بملاءة الى المقعد الخلفي .. كانت الجثة
متبسية وقد امتد منها ذراع متصلب حال دون ادخالها من الباب
الضيق بعد جهد .. واخيرا نجحت المحاولة واغلق باب السيارة ..
لم قامت مشكلة اخرى .. فلم يكن من الممكن وضع موسى القسائل
معها في نفس السيارة ، اذ ليس من المقبول ، ان يودع فيها رجل
اسود قرب امرأة بيضاء ، حتى لو كانت ميتة وهو قاتلها .. ولم
تكن هناك سوى سيارة تشارلي ، وفيها ديك تيرنر ، جالسا
يحقق مختبلا في مقعدها الخلفي .. فلم يبق اذن سوى ان يمشي
موسى على قدميه في حراسة افراد الشرطة فوق دراجاتهم ، الى
مركز البوليس ..

وبعد أن تمت هذه الترتيبات كلها ، سادت فترة توقف ...
لقد وقفوا قرب السيارتين ، في لحظة الافتراق ، ينظرون الى
البيت المشيد بالأجر الأحمر ذي السقف الذى تشع منه الحرارة ،
وما حوله من اشجار الغابة المتكاثفة ، وقد تحرك أفراد الشرطة
السود مبتعدين تحت الاشجار فى مسيرتهم الطويلة .. وفى هذا
كان موسى جامد الملامح ، تاركاً لهم أن يوجهوه دونما حركة من
جانبه .. كان وجهه فارغاً من الملامح .. وبدأ انه يحدق مباشرة
فى الشمس .. ترى هل كان يفكر أنه لن يراها كثيراً بعد الان ؟ ..
مستحيل أن يقال فى هذا أى شيء .. أهو الندم ماكان يفكر فيه ؟
لم تكن ثمة أدنى علامة على ذلك - أهو الخوف ؟ لم يبدأ أن الامر
هكذا - وكان الرجال الثلاثة ينظرون الى القاتل متخلدين الى مخاطرهم
الخاصة ، متأملين ، مقطعين ، ولكن دون أن يبدو أنه أصبح يهمهم
أمره الان فى شيء .. كلا .. كان غير ذى أهمية - كان مجرد فرد
من الاهالى ، يسرق ، ويهتك الأعراض ، ويقتل ، لو سنحت له أقل
فرصة .. وحتى بالنسبة الى تونى فلم تعد له أهمية ، وكان مبلغ
معارفته بعقلية مثله ضئيلاً الى الحد الذى لا يهيب له أساساً للتأمل
والتصور ...

وما لبثت تشارلى ان قال لصاحبه وهو يومئ بإبهامة الى ناحية
ديك تيرنر ؟

- وماذا بتختص هذا ؟ ..

وكان المعنى الذى أراده هو : أين مكانه أينما يختص بالتحقيق
القضائى ؟ ..

فاجاب الضابط الذى كانت له خبرة موقورة فى مسائل الوفاة
والجريمة والجنون :

- يبدو لى أنه لا رجاء منه فى أى شيء ...

كان الشيء المهم عندهما هو مارى تيرنر .. ولكن بعد نهايتها على
هذه الصورة ، فإنها لم تعد مشكلة .. وانما كانت الحقيقة الوحيدة
التي بقيت ماثلة تتطلب التعامل معها هى وجوب المحافظة على
المظاهر .. وكان الضابط دنهام يفهم هذا حق الفهم ، فذلك جزء
من عمله ، وهو ان لم يكن مدونا فى اللوائح والتعليمات ، فهسو
مفهوم ضمنا فى روح البلاد التى يعمل فيها ، منغمسا حتى الصميم
... ولم يكن هناك من يفهم ذلك أكثر من تشارلى سلاتر .. وهكذا
وقفوا معاً متضامنين فى تلك اللحظات الاخيرة ، وكأنما يحركهما دافع

واحد ، ومشاعر متبادلة من الأسف أو الخوف - قبلهما غادرا المكان ، وجهين تحذيرهما الآخر الصامت الى تونى ، ناظرين اليه فى جد ورصانة ..

وهاهو ذا قد بدأ يفهم الآن .. لقد عرف ، على الاقل ، ان تلك المواجهة الصامتة التى دارت رحاها فى الغرفة التى غادروها لم تكن لها علاقة بالجريمة فى حد ذاتها .. ان الجريمة نفسها لم تكن شيئا .. ان الصراع الذى تم حسمه فى سياق مآدار من كلمات قلائل ، أو بالاحرى فى لحظات الصمت بين الكلمات ، لم تكن له صلة بالمضمون السطحي للواقعة .. وهو خليك ان يفهم كل شيء فهما أفضل فى غضون شهور قلائل ، بعد ان « يصبح معتادا على هذه البلاد » - وعند ذلك سوف يبذل قصارى جهده لتسليان ماعرفه ، ذلك لان معاشية التفرقة العنصرية بكل مضامينها ، تعنى ان يغمض المرء عينيه ويفلق عقله على اشياء كثيرة ، اذا اراد المرء ان يبقى عضوا مقبولا فى هذا المجتمع .. ولكن فيما بين ذلك ، سوف تعرض له لحظات قصيرة يرى فيها الاشياء بوضوح ، ويفهم « الحضارة البيضاء » التى تقاتل للدفاع عن نفسها هى التى كانت كامنة فى مسلك تشارلى سلاتر والضابط دنهام - « الحضارة البيضاء » التى لن تقر بأية حال ان شخصا أبيض ، وعلى أخص الخصوص امرأة بيضاء ، يمكن ان تنشأ له علاقة انسانية ، سواء كانت خيرة أو فاسدة ، مع شخص أسود .. ذلك لانها ما ان تقر ذلك حتى تنهار ، ولا شيء يمكن ان ينقذها .. وعلى هذا فلا يمكن ، فوق كل شيء ، ان تسمح بالفشل والتردى ، مثل الذى كان من آل تيرنر ..

ومن الممكن ان يقال ، فى لحظات الوضوح والصفاء تلك ، وبسبب ماعرفه تونى من خفايا الجريمة ، انه كان الشخص الوحيد بين الحضور الذى تقع على عاتقه مسئولية كبرى فى ذلك اليوم - اذ لا يمكن بأى حال ان يخطر ببال أى من سلاتر أو الضابط دنهام انهما على خطأ وهما يؤمنان ايمانا عميقا بمسئوليتهما فى نطاق مسئوليتهما حيال موضوع التفرقة العنصرية .. غير ان تونى كان يريد هو أيضا ان يكون مقبولا فى هذه البيئة الجديدة التى وفد اليها .. لامناص امامه من ان يتكيف معها ، فان لم يفعل كان النبذ منها مصيره المحتوم .. القضية واضحة لذى عينين .. لقد سمع عبارة « التعود على افكارنا » تردد امامه بلا انقطاع بحيث لم يكن يستطيع ان يخذع

نفسه بالالوهام .. ثم لو أنه عمل بوحى افكاره المضطربة من الصواب والخطأ ورؤيته لما يدور أمام عينيه من ظلم وطمس للحقيقة - فما جدوى هذا فيما يتعلق بالقاتل ؟ .. ان موسى سوف يعدم شتقا على أية حال .. فهو قد ارتكب جريمة قتل ، وهذه حقيقة واقعة ... فهل ينوى ان يمضى فى الكفاح فى الظلام من أجل المبدأ ؟ .. واذا كان هذا ، فأى مبدأ ؟ .. لو أنه تقدم وقتها ، كما أوشك ان يفعل ، عندما صعد دنهام فى النهاية الى السيارة ، وقال : اسمع : اننى لن أقفل قمى من هذه المسألة - فما الذى كان يجنيه ؟ .. من المحقق ان الضابط ماكان ليفهمه .. انما كان وجهه يتقلص ، ويقطب استياء ، ويقول له : « تقفل فمك عن أى شيء ؟ .. من طلب منك ان تقفل فمك ؟ » .. ولو أن تونى غمغم كلاما عن المسئولية لنظر الضابط نظرة معنوية الى تشارلى وهز كتفيه .. ولربما استمر تونى فى كلامه متجاهلا تلك الهزة وما فيها من دلالة على الامعان فى الفساد والتمادى فى الانحراف عن الحق ، ورد عليه قائلا : « اذا كان لابد من القاء اللوم على أحد ، فلتختص مسز تيرنر باللام .. لا يمكنك ان تأخذ بالوجهين .. اما ان يكون الناس البيض مسئولين عن تصرفاتهم ، او غير مسئولين .. لابد لجريمة قتل من اثنين - كجريمة من هذا النوع .. ذلك وان كان المسموم لا يسعه ان يلومها هى أيضا .. فهى لا تستطيع ان تكون الا كما هى وكما طبعت عليه .. أقول لك اننى اقيمت هنا، وهو مالم يفعله احدكما والمسألة كلها بالغة الصعوبة حتى ليستحيل القول بمن هو اولى باللوم » .. وعند ذلك كان يمكن ان يرد الضابط قائلا : « بإمكانك ان تقول ماتظنه صوابا أمام المحكمة فى التحقيق القضائى » ... نعم .. هذا ماكان يمكن ان يقوله الضابط ، وكان القضية لم يبت فيها طبقا لما دار ، وأن لم يذكر هذا علانية بالطبع ، منذ عشر دقائق لا اكثر .. بل ربما اضاف الضابط قائلا : لا ليست المسألة مسألة القاء اللوم والتبعة على احد .. فهل ذكر احد شيئا من توجيه أى لوم ؟ .. لكن لن يمكنك ان تهرب من حقيقة ان هذا الرجل قد قتلها .. هل يمكنك هذا حقا ؟ » ..

هكذا لم يقل تونى شيئا .. وانطلقت سيارة الشرطة مبتعدة خلال الاشجار .. وتبعها تشارلى سلاتر فى سيارته مع ديك تيرنر .. وبقي تونى وحده فى الفناء المكشوف الخلوئى ، مع بيت خاو ...

ولم يلبث أن دلف الى الداخل متباطئا ، تستحوذ عليه صورة واحدة جليلة هي التي ظلت معه بعد احداث الصباح ، والتي بدت له المفتاح للقضية كلها : تلك هي النظرة التي ارتسمت على وجه الضابط وسلأتر عندما نظر الى الجثة ، تلك النظرة الهستيرية التي كان قوامها الكراهية والخوف ...

جلس تونى واضعا يده على رأسه الذى مسه صدى اليم ، وما لبث أن نهض ثانية وجاء من رف ترب فى المطبخ بزجاجة مكتوب عليها « براندى » وشربها عن آخرها .. لقد شعر بخلخلة فى الركبتين والمخدين .. وكان مبعث تخاذله هو النفور الشديد من هذا البيت الصغير الاشوه الذى بدا أنه يضم بين جدراناه ، وحتى فى صميم بنيانه من الاجر والاسمنت ، الرعب والهول المتولدين من جريمة القتل . وخالطه فجأة احساس بأنه لن يقوى على احتمال البقاء فى هذا البيت ، ولو مدى لحظة اخرى ..

ولم يتمالك أن تطلع الى السقف ذى الصاج العارى المشقق ، والى الاثاث البالى الكالنج ، والى الارضية الحجرية التربة المغطاة بجلود الحيوانات الممزقة - فتملكه العجب من كيف استطاع ذاك الاثنان : مارى وديك تيرنر ، احتمال العيش فى مثل هذا المكان ، على مدار تلك السنين الطوال ؟! .. ياللعجب حقا ! .. انه حتى الكشك الصغير - المسقف بالقش الواقع خلف المنزل الذى يقيم فيه كان أفضل من هذا البيت ! .. ما الذى جعلهما يمتضيان فى حياتهما دون حتى اقامة سقف مشيد ؟ .. ان الحرارة فى هذا المكان كفيلة بأن تسلم اى انسان الى الجنون ! ..

وعند هذا الحد خالط عقله تشوش يسير بفعل البراندى الذى ضاعفت الحرارة من مفعوله ، غير أنه مضى فى تأملاته ليتساءل كيف بدأت هذه الاحداث كلها ، ومتى نجمت هذه المأساة ؟ ... ذلك لأنه تشبث بعناد بيقينه الراسخ على الرغم من كل ما قاله سلأتر والضابط ، من دوافع الجريمة لابد من التماسها والبحث عنها فى الماضى البعيد ، وأن هذه الدوافع هي البالغة الاهمية .. ترى اى نوع من النساء كانت مارى تيرنر ، قبلما جاءت الى هذه المزرعة ، ثم رويدا رويدا فقدت توازنها بفعل الحرارة ، والوحدة ، والفقر ؟ .. وديك تيرنر ذاته - ماذا كان كنهه ؟ .. والقائل ؟ .. ولكن هنا توقف تفكيره لقصور معرفته .. انه لم يستطع حتى أن يتصور ماهية عقل مثله ..

ومر بيده على جبينه فى محاولة أخيرة يائسة للتوصل الى لون من الرؤية الواضحة التى تستخلص الجريمة من تعقيدات هذا الصباح ، وتجعل منها شيئاً بارزاً متحدد المعالم .. بيد أنه أخفق فى محاولاته .. فقد كانت الحرارة مشتدة .. ثم انه كان لا يزال حائقاً فى مسلك الرجلين .. وشعر بدوار فى رأسه .. لابد ان درجة الحرارة فى هذه الغرفة تجاوزت المائة ، حتى لم يتمالك ان نهض من مقعده رغم تخاذل ساقيه .. مالهذه البلاد !.. لماذا يحدث له هذا ، ويتورط فى قضية معقدة كريمة مثل هذه القضية ، وهو حديث العهد بالوصول والاقامة هنا ، وهو لا يستطيع ان يقوم فى القضية بدور القاضى والمحلفين ليصل الى القرار الفصل ؟! .. مشى متعثراً الى الشرفة ، حيث ارتكبت الجريمة فى الليلة الماضية .. وقع نظره على لطخة متحمرة على الارض ، وبركة صغيرة من مياه المطر يخالطها لون وردى .. وشاهد الكلبين الكبيرين يلعبان حوافى المياه ، وما ان صاح بهما تونى حتى تراجعاً خائعين ..

ولم يلبث ان وقف مستنداً الى الحائط وجعل يحدق فى أوراق الشجر التى بدت زاهية الخضرة فى أعقاب المطر الذى تدفق طوال الليل .. وخيل اليه ان اشجار الغابة تضج بأصوات خفية ظلت تطن فى سمعه حتى أرهقت اعصابه وقال لنفسه فجأة : « سأرتحل من هذا المكان .. سأذهب الى الطرف الاقصى لهذا الاقليم .. اننى اغسل يدي من هذه الواقعة .. ليفعل عشرات من أمثال سلاتر ودنهام ما هم فاعلوه - فما شأنى بهم وما شأنهم بى ؟! » .. وفى هذا الصباح حزم متاعه وقصد الى مزرعة سلاتر ليخبره انه لن يبقى .. فبدأ تشارلى غير مكترث ، بل أقرب الى الارتياح ... فقد تراءى له انه لم تعد هناك حاجة الى مدير أعمال بعد ان تحتم الا يعود ديك الى مزرعته ..

وبعد ذلك أصبحت مزرعة تيرنر تستخدم مراعى لماشى تشارلى سلاتر .. أما البيت فقد ظل خاوياً على عروشه .. ولم يمض وقت طويل حتى تهدم ..

وعاد تونى إدراجه الى المدينة حيث أصبح يتردد على البارات والفنادق حيناً من الوقت ، منتظراً ان يسمع عن عمل يناسبه .. بيد ان قابليته السالفة للعمل لم تلبث ان فارقت ، وغداً عصياً متمرداً .. وقد زار عدة مزارع ، ولكنه كان ينسحب فى كل مرة ، اذ فقدت اعمال المزارع بريقها فى نظره .. وفى جلسة المجازمة

التي جرت كما قال الضابط دنهام انها ستكون مجرد اجراء رسمي ادلى تونى بالاقتوال التي كانت منتظرة منه .. وقيل في الجلسة ان الزنجى قد قتل ماري تيرنر وهو في حالة سكر بحثا عن نقود ومجوهرات ..

وبانتهاء المحاكمة مضى تونى يطوف هائما بلا هدف الى ان نفذت نقوده .. فكان عليه ان يفعل شيئا لكي يجد القوت .. وقد التقى برجل من روديسيا الشمالية أخبره عن مناجم النحاس وما فيها من أجور عالية مذهشة .. فبدأ هذا الكلام مغريا له حتى انه استقل القطار في اليوم التالي الى منطقة مناجم النحاس وفي نيته ان يقتصد من النقود ما يهيء له القيام بعمل لحسابه الخاص .. لكن ما ان وصل الى هناك حتى بدا ان المرتبات ليست في المستوى المرتفع الذي سمع به على البعد .. ثم ان تكاليف المعيشة كانت باهظة ، والى جانب هذا كان الكل يفرطون في شرب الخمر .. ولم يمض وقت طويل حتى ترك العمل في المناجم وأشتغل بالاعمال المكتبية التي جاء الى أفريقيا لتحاشيها .. بيد ان الأمور لم تكن الى هذا الحد من السوء ، وكان عليه ان يتقبل الواقع على علاته ، فالحياة لا يمكن ان تكون على ما يشتهي الإنسان .. وهذا في الواقع ما كان يقوله لنفسه كلما تملكه الانتباض والغم واستعرض طموحاته السابقة ..

وقد غدا في نظر أبناء الأقليم الذين عرقوا بأمره سماعا ، ذلك الشاب الوافد من موطنه في أنجلترا الذي لم يجد عزما للصمود اكثر من أسابيع قلائل في اعمال المزارع ، وكان ينبغي له ان يعتصم بالجلد والصبر الى النهاية ..

الفصل الثانى

على امتداد خطوط السكك الحديدية وتقاطعاتها فى كافة أرجاء جنوبى افريقيا ، قامت على مسافات قصيرة لاتتجاوز عدة أميال مراكز صغيرة كانت تبدو للمسافر مجرد مجموعة من الابنية الرثة ، ولكنها كانت مراكز ربط للمزارع المنتشرة فى أنحاء الاقاليم ، اذ تضم محطة سكة الحديد ، ومبنى البريد ، واحيانا احد الفنادق ، ولكن المتجر دائما ...

ولو اراد الباحث ان يلتبس شعارا يعبر عن جنوبى افريقيا - تلك التى أنشأها ارباب رءوس الاموال واقطاب المناجم ، والتى استكشفها الرواد الاوائل ومن تلاهم من رجال الارساليات التبشيرية ممن كان يروعههم ما آلت اليه مكتشفاتهم - لما وجد الباحث شعارا غير « المتجر » .. ان المتجر قائم فى كل مكان .. ولو قاد الانسان سيارته مسافة عشرة أميال من متجر لوصل الى المتجر التالى .. ولو أطل المسافر برأسه من احدى مركبات القطار لشاهد المتجر مائلا امامه ... كل منجم له متجره ، وكل مجموعة مزارع لها متجرها ...

والمتجر فى كل مكان عبارة عن مبنى واطىء من طابق وحيد ، مقسم الى أقسام صغيرة مثل قطعة الشيكولاته ، تشمل قسم البقالة ، وقسم الجزارة ، وقسم المشروبات ، يضمها سقف واحد من الحديد المتعرج .. وفيه منضدة عالية من الخشب ، خلفها رفوف تضم كل شئ : من المشروبات الكحولية الى فرش الاسنان ، مختلط بعضها ببعض .. وعن كئب منها علقت ملابس قطنية رخيصة ذات ألوان زاهية ، وتكدست الى جانبها علب أحذية ، او دواليب زجاجية تضم روائح عطرية ومطريات ، وربما حلوى متنوعة ... وتنبعث من المتجر على الدوام روائح لا يخطئها الانف : روائح الورنيش والجلود المجففة ، والفواكه المحفوظة : والدم الجاف المنبعث من الذبح خلف المتجر ، والصابون النفاذ الرائحة ... ويقف خلف المنضدة شخص يونانى ، او يهودى ، او هندي ... وفى أحيان كثيرة يلعب اولاد هذا الرجل - المكروه دائما من المنطقة

كلها كمستغل واجنبي - يلعبون بين الخضراوات المزروعة ، لان مساكنهم قائمة خلف المتجر ..

والمتجر عند الوف الناس في جنوبي أفريقيا هو الخلفية الدائمة لطفولتهم ، وما اكثر الاشياء التي تتركز حوله .. وعلى سبيل المثال ، ذكريات تلك الليالي عندما تتوقف السيارة بعد مسيرة طويلة لا نهاية لها في الظلام القارس المشبع بالاتربة ، تتوقف فجأة امام مربع مضاء قبع فيه الرجال عاكفين على كتوس بين ايديهم ، وحيث يدلف القادمون الى المشرب الباهر الضياء لاحتساء رشقات من سائل ناري « يدفع عنهم الحمى » ... او هو المكان الذي تلم به السيارة مرتين في الاسبوع لاختد البريد الوارد ، والالتقاء بجميع اصحاب المزارع على مبعدة اميال فيما حول المكان لاتباع البقوليّات وقراءة الرسائل الاتية من ارض الوطن ، متكئين على رفرف السيارة غير عابئين في لحظاتهم تلك بوقدة الشمس او التفاف الكلاب بين الاتربة الحمراء تنهش كالذباب ما القى اليها من اللحم ، وزمر الاطفال السود يحملقون عن كئيب - تلك اللحظات التي تعود باصحاب الرسائل الى ارض الوطن الذي يعتلج في صدورهم الحنين اليه اشد الحنين ، وان كانوا لا يرتضون العودة اليه اختيارا وطواعية ، واذ يقول اولئك الذين قضوا على انفسهم بالنفى : « ان الجنوب الافريقي يستحوذ عليك استحواذاً » - يقولونها رغم ذلك في مضمض ..

اما لدى ماري ، فان كلمة « الوطن » التي تتردد بأشد الحنين ، كان معناها انجلترا ، على الرغم من أن ابويها كانا من مواطني الجنوب الافريقي ، ولم تطأ اقدامهما قط ارض انجلترا .. كان معناها انجلترا نتيجة لايام تلقي رسائل البريد تلك ، عندما كانت تتسلل الى المتجر لمراقبة السيارات في قدومها ، ثم في ارتحالها محملة بالموثون والرسائل والمجلات الواردة من وراء البحار ..

ولدى ماري كان المتجر محور حياتها ، بل كان اهم لديها مما كان لمعظم الاطفال .. وبداية فانها عاشت دائما في مدى النظر منه في احد تلك المساكن الصغيرة المغبرة .. وكانت دائما تهرع اليه لاحضار رطل من الخوخ المجفف او علبه سالمون لامها ، او للبحث ان كانت الجريدة الاسبوعية قد وصلت .. وكانت تلبث هناك ساعات ، تحديق في اكوام الحلوى ذات الالوان ، ناظرة خلسة الى البنت اليونانية الصغيرة التي لا يسمح لها بأن تلعب معها ، لان أمها

قالت إن أبيها من المخلصين .. ثم أنها فيما بعد وقد كبر ، أصبح
 للمتجر لديها معنى آخر .. فهو المكان الذي كن أبوها يتاع منه
 شراؤه .. وأحياناً كانت أمها يشتد بها الانفعال والسخط وتسمى
 إلى « البارمان » شاكبة من أنها لا تستطيع التوفيق بين المسافة
 المطالب وهذا زوجها يندر « ماهيته » في الشراب .. وكانت تراه
 تعرف ، حتى ، وهي طفلة ، أن أمها كانت تسمى بقصة النسيم
 واستغرائهم احزانها ، وأنها في الواقع كانت تستطيب نده ، أو غروف
 هناك في لشرب ، بينما الشرابون العابرون ينظرون إليها بنعنف
 .. كانت مسطبة السكوى بصوت محزون ، سارم من زوجها ،
 قائلة : « كل ليلة يمدد إلى البيت من هنا .. كل ليلة .. »
 منى أن أقوم بتربية ثلاثة الفان من النور المثبتة عندما تطول
 العود إلى البيت .. وبعدما تنف جامدة في مكانها تنطس
 المؤاساة من التي يستلوي على النور ، التي تعده من حقها
 لكي تنفها على .. بيد أنه يقو لها في النهاية : « لكن
 ماذا يمكنني أن أفعل .. لا يمكنني أن أرفض بيع الشروب له ،
 هل هذا يأمحاني ؟ » .. وفي النهاية ، وبعد أن تؤدي هذا الشها
 وتنال كذايتها من العطف ، تنقلب عاتدة أدراجها وليدة الخطر مبتازة
 ساحة الأتربة الحمراء إلى دارها ، ممسكة بيد ماري .. وكانت
 امرأة طويلة القامة عجفاء تقدح عيناها البرتقان شرواً .. لقد
 اتخذت من ماري وهي في مستهل صباها خدينة لها .. وكانت
 تجلس إلى ماكينة الخياطة تسكب الدموع الغزيرة ، فلا تسك ماري
 إلا أن تواسيها وهي في كرب من الأمر ، وبودها أن تستطيع فراراً ،
 وإن شعرت بأهبيتها أيضاً ، وعدت بمقت أباه ..
 ولم يكن معنى هذا أن كان يفرض في الشراب حتى الشمن ،
 اقليلاً ما كان مخموراً مثل بعض الرجال الذين كانت ماري شاهدهم
 خارج البار فيلقون في قلبها الرعب من هذا المكان .. كان يحسني
 من الشراب كل ليلة مايفضي به إلى لون من الخدر مزوج بالروح ،
 ثم يعود إلى البيت متأخراً لتناول عشاء بارد ، يأكله وحيداً ..
 وكانت زوجته تعامله ببرود وقلة اكتراث .. وكانت تستبني
 استخفافها به وسخريتها منه إلى حين يفد أصدقائها لتناول
 الشاي ، وكأنها كانت لا تريد أن تمنح زوجها الأرتياح معرفة أنها
 تهتم به على أي وجه من الوجوه ، أو تشعر بأي شيء من أجله ،
 حتى ولا بالاختقار والاستهزاء .. كانت تتصرف وكأنه غير موجود

فى دائرة حياتها .. ومن الناحية العملية فقد كان كذلك .. كان يأتى بالنقود الى البيت ، وهى لم تكن بالكافية .. وفيما عدا ذلك كان بمثابة صفر فى المنزل ، وكان يعرف هذا .. وكان فى تكوينه رجلا قصيرا ، أشعث الشعر ، محتقن الوجه ، ثقيل المزاج .. وكان يلقب اصغر الرسميين بلقب « سيدى » ، ويصرخ فى وجوه العاملين تحت امرته من الأهالى .. وكان عاملا فى السكك الحديدية لتزويد القطارات بالمياه

ولقد كان المتجر بالنسبة لمارى ايضا ، فضلا عن كونه مركز النشاط فى الاقليم ومصدر سكر ابيها - كان المكان المرهوب العاتى الذى يبعث بالفواتير آخر الشهر .. لم يكن من الممكن سداد الفواتير كاملة ، وكانت أمها دائما تستعطف صاحب المتجر لمنحها مهلة شهر آخر للسداد .. وكان أبوها وأمها يتشاجران بسبب هذه الفواتير اثنتى عشرة مرة فى العام ... ولم يكن هذا الشجار يشور بينهما ألا من أجل النقود .. وأحيانا كانت أمها تنوه بجفاء قائلة أنه كان بوسعها أن تزيلة الحال سوءا لو أنها احتلت مثال مسز نيومان التى أنجبت سبعة أطفال ، ولكنها اقتصرت على ثلاثة أفواه فقط لأطعامهم .. وقد مضت فترة طويلة قبلما أدركت مسارى مغزى هذا التعريض ، فلم يبق سوى قم واحد لأطعامه ، هو قمها ، لان أخاها وأختها توفيا بالدوسنتاريا فى إحدى السنوات العاصفة بالآتربة .. وفى ذلك الحين خيم الوراق على أبويها فترة قصيرة بسبب الحزن الذى جمع بينهما ، وإن كانت ماري قد تنفست الصعداء بل خامرتها السعادة إذا أصبحت تعيش فى بيت خلا من المشاجرات فجأة .. على أن هذه المرحلة لم تدم طويلا ، وإن كانت فى نظرها أسعد فترة فى طفولتها ..

ثم تنقلت الأسرة ثلاث مرات قبلما ذهبت ماري الى المدرسة ، بيد أنها فيما بعد لم تستطع التمييز بين الأماكن الثلاثة التى أقامت فيها .. تذكرت فقط قرية مكشوفة تربة قامت من خلفها صفوف من أشجار الصمغ وأمامها ساحة ترابية تتوزع فيها الآتربة وتهبط على الدوام بسبب العربات المارة التى تجرها الثيران ، ويلفها هواء حار رآكد كانت تشقه مرارا كل يوم صرخات القطارات الكسيحة .. التربة ودجاج .. آتربة وأطفال وأهال رحل .. آتربة ومنجر .. المنجر دائما ..

وبعد ذلك أرسلت الى مدرسة داخلية ، فتغيرت حياتها .. لقد

فدت سعيدة غاية السعادة ، بل بلغ من فرط سعادتها انها أصبحت تجزع من العودة الى البيت فى العطلات ، الى أبيها المغمور ، وامها المعرورة ، والدار الصغيرة التى كانت اقرب الى صندوق خشبى اقيم على طوالة ..

وعندما بلغت ماري السادسة عشرة تركت المدرسة والتحقت بعمل فى مكتب بالمدينة ، وكانت واحدة من تلك المدن الصغيرة المتناثرة مثل زبيب فى كعكة جافة على بنيان جنوب افريقيا ... ومرة أخرى كانت سعيدة غاية السعادة .. وبدأ كأنها ولدت لممارسة العمل على الآلة الكاتبة والاختزال والمحاسبة وباقى الاعمال المكتبية الروتينية .. كانت تحب الاشياء التى تتم بيسر وامان فى تعاقب مرسوم .. وما أن بلغت عامها العشرين حتى كان لها عمل طيب ، وأصدقاء شخصيون ، وركن تأوى اليه فى حياة المدينة ..

وبعدئذ توفيت أمها وأصبحت وحيدة تماما فى الدنيا ، اذ كان أبوها يبعد عنها مسافة خمسمائة ميل ، بعد أن نقل الى محطة سكة حديد أخرى .. وهى لم تكن تراه الا نادرا ، وكان هو فخورا بها ، بيد أنه « وهذا أهم شيء » تركها وشأنها .. بل انهما لم يتبادلا الرسائل ، اذ لم يكونا من طراز الاهل المتراسلين .. وقد مرت ماري بالخلاص منه .. ولم يروعها قط انها أصبحت وحيدة فى الحياة ، بل انها أحبت هذا .. وبدأ كأنها باسقاط أبيها من حسابها قد انتقمت على نحو ما لعذابات أمها .. ولم يدر بخلدها قط أن أباه ربما نال نصيبا من المعاناة أيضا ، ولو قيل لها هذا لردت بقولها « وفيما كان عذابه ومعاناته ؟ .. هو رجل ، اليس كذلك ؟ .. وفى قدرته أن يفعل ما يحب » .. ولقد ورثت عن أمها انوثتها المعجبة ، تلك التى لم تكن لها فى حياتها أى معنى على الإطلاق ، اذ كانت ذلك الوجود المريح المبهج لامرأة وحيدة فى الجنوب الافريقى ، ولم تكن تعرف الى أى حد هى محظوظة ... وانى لها أن تعرف ؟ ... انها لم تفهم شيئا من الأحوال فى البلاد الأخرى ، ولم يكن لديها معيار لتقييم حياتها على هديه ...

ولم يخطر ببالها قط ، على سبيل المثال ، أن تفكر ولو لحظة فى أنها وهى ابنة العامل البسيط فى السكك الحديدية ، والمرأة التى كانت تعاني الشقاء بسبب الضغط الاقتصادى - لم يخطر ببالها أن فى استطاعتها أن تعيش الآن كما يحلو لها ، وأن تتزوج ،

إذا رغبت ، أي انسان تريد ... ان هذه الأمور لم تدر في خاطرها
قط ...

ولقد ثلثت بحتي الخامسة والعشرين من عمرها دون ان يحدث
أي شيء ينال من الحياة الرتيبة المريحة التي عاشتها .. ثم توفي
أبوها .. فأدى ذلك إلى ازالة الحلقة الأخيرة التي كانت تقيد بها بطفولة
كانت تمتد أن تذكرها .. ولم يبق الآن شيء يربطها بالبيت الصغير
الكئيب انقائم على طويالة ، وبالقطارات الأزعقة ، وبالأتربة ، وبالشجار
الدائم بين أبييها .. لا شيء يتنا .. لقد قدت مرة .. وبعد أن
انتهت حنازة أبيها عادت إلى المكتب الذي تعمل فيه ، وراحت تتطلع
إلى حياة تستمر كما عهدتها من قبل .. كانت سعيدة كل السعادة
ولعل هذه المخصصة كانت سمتها الإيجابية الوحيدة ، إذ لم يكن
بها من سمات أخرى تميزها عن غيرها ، على الرغم من أنها كانت
في سن الخامسة والعشرين هذه في أوج ملاحظتها .. فإن محضر
الرضا بحياتها تلك قد أنقضى عليها نصارة موفورة ... كانت فتاة
نحيلة الحرد ، ذات شعر خفيف أدنى إلى الشقرة ، وعينين زرقاوين
جادتين ، وملابس أنيقة .. وكان أصحابها يصقونها بالشـعـراء
النحيلة ، وكانت تصنع آزياء نجوم السينما الفتيات ...

وعندما بلغت الثلاثين من عمرها لم يحدث لها أي تغيير .. وفي
عيد ميلادها الثلاثين خاطبتها دهمسة مبهمه لم تبلغ منها حدا القلق -
إذ لم تشعر بأي اختلاف في شيء - من أن الأعوام قد انطوت بشل
هذه السبعة .. سن الثلاثين .. بدأ لها أنه عمر طويل .. بيد أن
هذا لم يكن يعنيها في شيء .. وفي نفس الوقت لم تكثر بالاحتفال
بعيد ميلادها ذاته .. لقد تركته وراءها نسيا منسيا .. بل لقد
امسختها أو أنه أن تفعل شيئا كهذا ، تلك التي لم يخطر لها أنها
تختلف في شيء عن ماري ابنة السادسة عشرة ..

كانت حتى ذلك الحين مكترية خاصة لرئيسها ، وكانت تنال
مرتبا طيبا .. ولو أنها أرادت ، لاستطاعت أن تكون لها شقة
خاصة ولعاشت حياة مرفهة .. ولم يكن ثمة شيء يحول دون أن
تعيش وحدها ، تقود سيارة خاصة ، وتستمتع بوقتها في دائرة
محدودة .. بيد أن ذلك كان ضد فطرتها ..

فقد اختارت أن تعيش في ناد للفتيات ، كان قد أنشئ في الواقع
لمساعدة النساء اللاتي لا يستطعن كسب نقود كثيرة ، غير أنها أقامت
في النادي مدة طويلة إلى حد أن احدا لم يفكر في أن يطلب إليها

مغادرته .. وكان اختيارها لهذا النادي لأنه كان يذكرها بالمدرسة
الداخلية ، وهي التي كانت يكره مغادرة المدرسة .. فقد كانت
تحب جموع الفتيات ، وتتناول الطعام في قاعة الطعام الرحبة ..
وفي النادي كانت شخصا له أهميته ، فقد كانت أكبر سنا من
الأخريات ، وغدت بينهن اقرب الى شخصية العمه العاتس التي
يسعين اليها للاقضاء بالمتاعب الشخصية .. اما من علم يئن لديها
ماتكاشف به أحدا ، اذ بدا وكأنها بدجاة من اسماست وشرهات
والمنازعات التي يتقلب فيها تحيرها .. وأكثر ما كان يزعجها ان يكون
لها صلات خاصة مع أحد .. وكانت سميرة بين كل أولئك الشابات
تتحفظ ان ينطق بجلده : « لن يسعدني شيء ان اتسبون
مثلكم » ...

هكذا كانت جذ سيدة في النادي ...
وفي خارج نادي الفتيات ، وفي خارج المكتب في حيث كانت
لها أهميتها أيضا نتيجة للاعتماد على نفسها تعمل فيه ،
كانت تعيش حياة مليئة بالنشاط والحيوية .. ومع ذلك كانت
حياة سلبية في بعض نواحيها ، اذ كانت تعتمد فيها على الغير تماما
... فهي لم تكن المرأة التي تدعو الى انحفلات ، او تغدو مركز
الدائرة في الاجتماعات .. كانت لا تزال مجرد الفتاة التي تدعى ،
فتستجيب ..

كانت حياتها في الحق نخارجة هي المؤلف ، ولم تلبث الظروف
التي انوزتها أن بدأت في التغير ، وعندما بلغ هذا التغير مداه ،
لا تلبث المرأة أن تنظر اليها وكأنها « العصر الدنبي » المول ...
كانت ماري تستيقظ من نومها في وقت متأخر ، لتذهب الى
المكتب في الموعد المقرر .. وكانت تعمل بكفاءة واقتدار حتى موعد
الفداء الذي كانت تتناوله في النادي .. وبعد عمل ساعتين آخرين
في فترة بعد الظهر كانت تغدو حرة ، فتلعب الشمس والهسوكي
او تمارس السباحة .. ودائما كان يحدث هذا مع رجل ، وهو
واحد من أولئك الرجال العديدين الذين يدعونها الى صحتهم
ويعاملونها كأخت ، وفي هذا كانت ماري نعم الرقيقة .. وكما بدا
ان لها مائة من الصديقات ، دون ان تختص احداهن بصداقة خاصة
فكذلك بدا ان لها مائة صديق يدعونها لصحتهم ، او الذين تزوجوا
ثم أصبحوا يدعونها الى بيوتهم .. هكذا كانت صديقة لنفسها

البلدة .. وفى الامسيات كانت تذهب دائما الى الحفلات الخاصة التى كانت تدوم الى منتصف الليل ، او ترقص ، او تذهب الى دور السينما .. واحيانا كانت تذهب الى دور السينما خمس امسيات فى الاسبوع .. وهكذا لم تكن تأوى الى الفراش قط قبل الثانية عشرة ليلا او اكثر .. وعلى هذه الوتيرة مضت حياتها ، يوما بعد يوم ، واسبوعا بعد اسبوع ، وسنة بعد سنة ..

بيد انها لم تلعب دورها الحقيقى .. اذ انها لم تتزوج .. وكرت السنون تباعا .. وتزوج اصدقاءها .. وقامت بدور اشبينه العروس مرات عديدة .. وكان اطفال الاخرين يشبون ويكبرون ، بيد انها مضت فى حياتها رفيقة طيبة وجليه محبوبة ، تؤدي عملها بجد ودأب ، مستمتعة بحياتها فى المكتب ، ودون ان تكون وحيدة مدى لحظة واحدة ، الا حين تدلف الى مخدعها للنوم ..

ولقد بدأ انها لا تهتم بالرجال ، عاطفيا .. ومع ذلك كانت حياتها ، خارج النادى والمكتب ، تعتمد كليا على الرجال على الرغم من انه لو قيل لها هذا لبادرت بنفى هذا الاتهام ساخطة حائقة .. هكذا كانت ماري ظاهرة فريدة ، امرأة فى الثلاثين بغير حب ، بكل ملحقاته من الصداق او الارق او الاضطرابات العصبية والنفسية ... بل لم تكن تعلم انها طراز نادر المثل بين بنات حواء ...

كانت لاتزال تعد نفسها واحدة من « الفتيات » .. كانت اذا جاء فريق لعب الكريكت الى البلدة ومسنت الحاجة الى شركاء فى اللعب ، يادر منظمو الدورة الى الاتصال بماري تليفونيا ، فتسارع الى تلبية الدعوة ..

وفى اخلال ذلك كانت لاتزال ترسل شعرها على كتفها كما تفعل البنات ، وترتدى فساتين زاهية الالوان كالتى يرتدينها ، وتبدو فى صورتها المتحفظة المستحشية الساذجة .. ولو انها تركت لشأنها لمضت فى حياتها على هذه الوتيرة ، مستمتعة بهذه الحياة الامتاع كله - الى ان يصبح الناس ذات يوم فيجدونها قد استحال دون ان تدرى الى واحدة من تلك النساء اللاتى مسهن الكبر وعسدت عليهن الشيخوخة دون المرور بفترة منتصف العمر : عجوزا متقضنة متيبسة الأطراف ، عطوفة المشاعر ، مواظبة على التدين وصحبة الكلاب الصغيرة ..

وعندئذ يختصونها بالعطف والترفق ، لانها « فقدت احب مباهج

الحياة » .. ومع ذلك فكم فى الحياة من أناس لا يريدون هذه المباهج منذ البداية .. فقد كانت ماري تتذكر « البيت » أو « عش الزوجية » فى صورة ذلك الصندوق الخشبى القائم على طوالة وهو يهتز من قواعده كلما مرت به القطارات ، وتتذكر من الزواج صورة أبيها وهو عائد الى البيت مخمورا محتقن العينين ، وتتذكر من الاطفال صورة أمها ومعالم وجهها وهى تشيع طفلها الاخرين الى مثواهما الاخير ، وجه جزوع يمزقه الاسى والتفجع وان بدا كقطعة صخر جلمود .. كانت ماري تحب اطفال الاخرين ، غير انها كانت ترتعد لدى التفكير فى أن يكون لها طفل من أحشائها .. كان يعتلج فى صدرها الحنين فى حفلات الزفاف ، بيد انها كانت تحس بكراهية عميقة لما يسمونه « الجنس » ... وإذا كانت قد عرضت لها مناسبات عاطفية قليلة فى بيتها ذاك ، فقد حرصت أشد الحرص على نسيانها منذ عهد بعيد ..

ومن المؤكد انها كانت تشعر ، فى بعض الاوقات ، بقلق وعدم ارتياح مبهم كانا ينالان من مباهج أنشطتها الاجتماعية فى بعض الفترات .. فمثلا ، كانت تذهب الى الفراش بعد سهرات السينما وهى راضية قريرة العين ، عندما تقول لنفسها فجأة : « يوم آخر مضى ! .. فلا تلبث أن تشعر بشيء من الفزع ، وكان دعامة غير مرئية قد سحبت من تحتها .. ولكنها لا تلبث بفكرها العقلانى واقتناعها بأن التفكير فى الذات أمر يجلب القيم ، أن تدلف الى الفراش وتطفىء أنوار غرفة النوم .. ومع ذلك كانت لا تتمالك قبل أن تستسلم لسلطان الكرى أن تتساءل : « أهذا كل شيء ؟ .. عندما أصبح عجوزا ، هل سيكون هذا هو كل ما استرجعه من الماضى ؟ .. لكن ما أن يحل الصباح حتى تنسى هذا ، وتتعاقب الايام تباعا ، وتعود سعيدة كما كانت .. ذلك انها لم تكن تعترف ماتريده .. كان يخطر لها على نحو مبهم أنه شيء أكبر من هذا واحفل ، لون من الحياة مختلف تماما عما عهدت .. بيد أن هذا العارض لم يكن يستمر طويلا ، وإذا هى من جديد راضية بعملها فى المكتب ، ومع أصدقائها الذين تعول عليهم ، وبحياتها فى النادى ، وبرفاقها الذين كانوا يعاملونها معاملة مبراة كانت على الدوام خلوا من حكاية « الجنس » السخيفة ...

غير أن كل النساء يلبسن ذات يوم ، عاجلا أو آجلا ، ذلك

الصفط القاهر الندين ، زان برنطن بالزواج .. ولكن ماري التي ظلت مريلا في منته من هذا ، لم تثبت أن ووجهت به فجأة ، وعلى نحو غير مألوف ..

فقد كانت يوما في زيارة صديق متزوج ، وفيما هي جالسة في اشرفة وحدها ومن خلفها حرفة مضادة يدور فيها بين الجالسين حديث خافت ، إذ سمعتهم يذكرون اسمها ... فنهضت لسكى بدخلهم وتعلم من وجودها ، إذ لم تستغ أن يشعر أصدقائها أنها كانت تسترق السمع .. ثم لم تثبت أن عدلت عن ذلك وعادت إلى أطراف انتظارا للحظة مناسبة حتى تنظروا بأنها جاءت توا عن طريق الحديقة .. فاستمعت إلى هذا الحديث الذي جعل وجهها يلتهب احمرارا ويديها تلتصقان شرقا :

- انها لم تعد في سن الخامسة عشرة .. هذا شيء مضحك ! ..
بكنها أحدهم عن ملابسها الصبيانية ! ..
- كم عمرها ؟ ..

- لابد أن تكون فرق الثلاثين .. انها كانت تعمل منذ فترة طويلة قبل أن بدأت أنا العمل ، منذ أكثر من اثنتي عشرة سنة ..
- إذا لا تتزوج ؟ .. لابد انها سحبت لها فرص كثيرة ..
وفر ، ضحكة جافة كان الجواب :

- لا إذن هذا .. أن زوجي ذاته كان مهتما بها مرة ، لكنه يظن انها لن تتزوج أبدا .. انها ليست من هذا النوع ، ليست من هذا النوع ذي حل .. هناك شيء ما ينقصها ! ..
- أه ، لا أعرف ..

- أر تنيرا كثيرا قرا عليها : على أي حال .. منذ فترة قصيرة شامديا في الشارع وكنت لا أعرفها .. هذه خبيثة .. انظروا اليها وهي تمارس تلك الألعاب الكثيرة ، فإن بشرتها صارت مثل ورق « اسنفرة » ، وقد زاد تحولها ..
.. لكنها فتاة لطيفة جدا ..

- أر برودها لن يتمكن نارا على أي حال ..
- لكن ماري ستكون زوجة لا بأس بها .. فهي من النوع الذي يصلح للزواج ..

- ينبغي لها أن تتزوج رجلا أكبر منها .. أن رجلا في الخمسين مناسب لها .. سوف ترون : سوف تتزوج شخصا

مناسبا بما فيه الكفاية لكي يصبح ابا لها ذات يوم ..

— ليس بإمكان احد ان يتنبأ بالمستقبل !..

وتلت ذلك ضحكة أخرى ، من القلب في الواقع ، ولكنها بدت خبيثة في سمع ماري .. لقد صغقت واهينت في الصميم ، ولكنها شعرت بجرح عميق اذ يعمد أصدقائها إلى التحدث عنها بهذا الأسلوب .. لقد كانت سليمة الطوية إلى حد كبير ، وغير مدركة لنفسها بالنسبة للغير ، حتى لم يذنب بخلدائها قط ان الناس يمكن ان يتناقشوا في أمرها من خلف ظهرها .. وبالتلك الأشياء التي قالوها عنها !.. لقد جلست في مكانها تلتوي وتبصر يديها .. ثم لم تلبث ان تمايلت وتقدمت الى الفرانة للانضمام إلى أصدقائها الغادرين ، أولئك الذين حيوها بحفاوة وكأنهم منذ لحظات لم يعمدوا الخناجر في قلبها ولم يفقدوها كل توازن ، حتى أصبحت لا تستطيع ان تعرف نفسها في الصورة التي صوروها بها ..

ان تلك الحادثة اليسيرة التي يمكن الا يكون لها تأثير على شخص له معرفة قليلة بطبيعة العالم الذي تتقلب هي فيه ، كان لها تأثير عميق على ماري .. فقد أصبحت وهي التي لم تجد أي وقت للتفكير في نفسها ، تجلس في غرفتها ساعات كل مرة تتساءل : « لماذا قالوا عني هذه الأشياء ؟ .. ماذا جرى لي وما الذي ذهاني ؟ ما هو قصدهم عندما قالوا « انني لست من هذا النوع » ؟ .. وذهبت تتطلع في حذر وفيما هو اقرب إلى التوصل في وجوه أصدقائها لكي ترى ان كان يمكن أن تجد فيها آثارا تتعاملهم عليها والتنديد بها .. بل كانت أشد انزعاجا وأكثر شقاء لانهم بدؤا كمالوف عاداتهم محياليها ، يعاملونها بصداقتهم العادية .. وبدأت تتشكك وتستنبط معاني مزدوجة في حيث مالا يقصد ان يكون كذلك ، وتتوسم سوء النية في نظرة أي شخص لا يكن لها غير الود ..

وفي قلبها لمعاني الكلمات التي أسترقت السمع انيها بمحض الصدفة ، جعلت تفكر في طرق لتحسين بحالها .. فنزعت من شعرها الشريط الذي كانت تحيطه به ، وان فعلت هذا على أسف ومضض ، اذ كانت تظن انها كانت تبدو أوفر ملاحظة بلقائف الشعر الفزير حول محياها المستطيل النحيل .. وأبتاعت لنفسها ملابس جاهزة لم تعد تشعر فيها بالراحة السالفة ، اذ كانت تحس انها أقرب إلى طبيعتها في الفساتين و « الجونلات » النباية ... ولأول مرة في حياتها بدأت تحس بالخرج مع الرجال ... كسار

يخالطها من قبل قدر يسير من الاحتقار لهم ، لم تكن على وعي كامل به ، وهو الذى درا عنها فكرة « الجنس » وكأنما هى مخلوق شاذ حقاً .. فلم يلبث ذلك الاحساس السالف ان ذاب ، وفقدت تماسكها امام الرجال .. وهكذا بدأت تبحث فيما حولها عن رجل تتزوجه .. مادام أصدقاءها يظنون انه ينبغي لها ان تتزوج ، فقد يكون فى هذا ما يبتغونه لها .. وكان اول رجل سمحت لنفسها ان يقترب منها ، ارملا فى الخامسة والخمسين ، له أطفال صغار .. ذلك لانها شعرت انها ستكون اكثر امانا معه - اذ لم تكن تربط مسألة العناق والقبلات وفورة العاطفة برجل فى منتصف العمر يغذو مسلكه معها اقرب الى الابوة ..

وكان الرجل ذاته يعرف تماما ما يريد : اما لطفاله ، وانسمانة تشرف على شئون بيته .. وهو قد وجد فى ماري رفيقا طيبا ، وكانت رحيمة بأطفاله .. وفى الواقع ما كان يتهىء شىء اكثر ملائمة ومادام قد تعين عليها ان تتزوج ، فهذا هو نوع الزواج الذى يناسب حالتها اكثر من سواه ..

لكن الامور تطورت الى عكس ما كان يراد ، حين بدأ الرجل يطارحها الحب .. فقد انتابها نفور عنيف حتى لقد هربت منه .. كان ذلك وهما جالسان فى غرفة المعيشة المريحة فى بيته ، وعندما بدأ يقبلها هربت من البيت الى ظلام الليل ، وظلت تجسرى فى الشوارع الى النادى .. وهناك ارتمت فوق الفراش وانخرطت فى البكاء .. وما كان احساسه حيالها بالذى يذكيه مثل هذا النوع من الحماقة ، وأن كان شاب اصغر منه سنا ويحبها حبا جسديا قد يجد فيه طرافة واثارة .. وفى صباح اليوم التالى لم تتمالك ان ارتفعت لمسلكتها ، وهى التى كانت على الدوام مسيطرة على اعصابها ولا تخشى شيئا اكثر من الفضيحة .. وهكذا احتسذرت اليه ، غير ان ذلك كان نهاية القصة ..

والآن اقلت نفسها نهبا للحيرة والاضطراب ، لا تدري ما الذى تريده - لقد بدا لها انها هربت منه لانه « رجل مسن » - تلك هى الصورة التى رتبها عقلها .. ولكنها ذهبت ترتعد ، واخذت تتحاشى الرجال الذين هم فوق سن الثلاثين .. انها هى نفسها كانت فوق هذه السن ، ولكن كانت تخال أنها لا تزال فى عسداد البنات ..

وطوال الوقت ، وعلى غير وعى منها ، كانت تتطلع الى زوج ،
وان لم تعترف لنفسها بهذا ..

وخلال تلك الاشهر القلائل قبل زواجها ، كان الناس يتحدثون
عنها بكيفية كانت قميئة بأن تثير في نفسها المضاضة والالام لو انها
تفطنت الى ذلك .. فان القصة المروعة والمضحكة معا لهربتها تلك
الليلة من عاشقها المسن ، مالبثت ان انتشرت في دائرة اصدقائها
الواسعة ، وان كان من المستحيل ان يقول أحد من هو الذي عرف
بأمرها .. ولكن ما ان تسامعوا بها حتى استقبلوها بهز الرءوس
والضحك وكأنما جاءت مصداقا لشيء كانوا يعرفونه منذ عهد طويل .
بالعجب !.. امرأة في الثلاثين تتصرف هذا التصرف !.. لقد
ضحكوا ، وان كان ضحكهم خلوا من البهجة ، من أن يكون هذا
مسلكها في هذا العصر الذي أصبح فيه « الجنس » مسألة علمية .
ضحكوا منها ولم يغفروا لها ، وبدأ لهم أنها تستحق ماجرى
لها ..

ومن بواغث الاسف أن هذه المرأة التي بلغت سن الثلاثين ونالت
حظا طيبا من التعليم وكانت تستمتع بحياتها في بيئة حضارية
ولها اطلاع جيد على أحوال عصرها - لم تكن تعرف عن نفسها
الا القليل ، أو اقل القليل ، وهكذا تفقد توازنها على هذه
الصورة .. لأن بعض النساء الثرائيات قلن أنه لابد لهن من
الزواج ..

ثم لم تلبث ان التقت بذيكَ تيرنر .. كان يمكن ان يكون أى شخص
آخر .. أو بالاحرى كان هو أول رجل التقت به يعاملها وكأنها
رائعة وفريدة في نوعها .. كانت في أمس الحاجة الى شيء
كهذا ... كانت حاجتها اليه لاستعادة احساسها بتفوقها
على الرجال ، وهو ما كان يهيج في أعماقها طوال سنى حياتها
الماضية ..

كان لقاؤهما عرضا في دار السينما .. كان دخوله الى الدار في
يوم جاء فيه الى البلدة من مزرعته .. وكان مجيئه اليها من
المناسبات النادرة ، الا اذا كان عليه ان يبتاع السلع التي لا يمكنه
الحصول عليها في المتجر المحلي ، وهو ما كان يحدث مرة أو مرتين
في العام .. وفي هذه المناسبة التقى مصادفة برجل لم يره منذ
سنوات ، وقد أقراه بتمضية الليل في البلدة وارتياح السينما ..
والواقع انه عجب من نفسه أو كاد لقبول هذه الدعوة ، اذ كان كل

هذا أبعد ما يكون عن مألوف عاداته .. وقد ترك سيارة النقل الخاصة بمزرعته والمحملة بأكداس من أكياس الحبوب وبمسحاتين لتسوية التربة خارج دار السينما رغم مظهرهما اللئيم عن المكان .. وفي الحق ان ذلك تيرنر كان يكره البلدة ، اذ كان يعاني من « الكلوستروفوبيا » أو الخوف المرضي من الاماكن الضيقة والمقفلة بعكس الفضاء الرحيب الذي يتقلب فيه وهو في المزرعة ، ومن ثم كان حريصا على الهروب من البلدة بأسرع ما يستطيع عائدا الى مزرعته حيث يشعر انه في مثواه الحقيقي ..

وقد عدا كرهه كان ذلك يكره السينما .. وعندما وجد نفسه في داخل الدار في هذه المناسبة ، عجب ما الذي دهاه حتى وافق على الدخول .. ولم يستطع ان يجعل عينيه مركبتين على الشاشة وألقى الممثلات الفارعات الناعمة الوجوه يثرن ملله ، وبدأت له القصة بلا معنى .. وكان الطقس حارا وخائفا .. وبعد برهة تجاهل الشاشة تماما وراح يدير النظر في المتفرجين .. من أمامه وفيما حوله ومن خلفه صفوف و صفوف من الناس يجسدون في الشاشة - مئات من الناس « طاروا » من اجسادهم وغدوا يعيشون حيوات أولئك البلهاء المائلين امامهم ، حتى زاد قلقا وضيقا ! ..

ثم أشعل سيجارة ، وجعل يحدق في الستائر المخملية التي تحجب ابواب الخروج ... وبينما هو ينظر على امتداد الصف الذي جلس فيه ، أبصر شعاعا من الضوء ينقط من مكان ما فوقه ، كشف عن استدارة اخذ ولفائف من شعر نسائي أشقر لامع .. لقد بدا له الوجه كأنه يطفو ، مشبعا في تطلعه بالحنين ، صموها بلون وردى مذهب في الشعاع المخضر الغريب .. فلم يتمالك أن وكن صاحبه وسأله : « من هذه ؟ .. » .. أجابه متبرما بعدة نظيرة قصيرة : « ماري » .. لكن هذا الاسم لم يشف قليل ذلك ، ومضى يحدق في ذلك الوجه السابح الجميل والشعر المرسل ، وبعد انتهاء العرض راح يبحث عنها مسرعا في غمار الخارجين من دار السينما ..

بيد انه لم يستطع رؤيتها ، وتصور على نحو غامض انها ذهبت مع شخص ما ... وفي النهاية اركبوا معه في السيارة فتسببا لا يصالها الى منزلها لم يكذب وجه اليها نظره ، وان بدت له ملابسها وكعبها العالي الرنان مشيرة للضحك .. وفي انطريق نظمرت

الفتاة من فوت منكبها الى الاكوام المكدسة فى السيارة خلف المقعد
الامامى وسألته بكلمات متسارعة ولهجة متكلفة :
— ماهذه الاشياء العجيبه فى الخلف ؟ ..

فقال لها :

— ألم تر فى حياتك مسحة لتسوية التربة ؟ ..

ولم يلبث ان أنزلها ، غير آسف فى المسكان الذى تقيم فيه
— مبنى كبير مليء بالأنوار والناس .. وعلى الأثر نسيها
تماما ..

غير أنه غذا يحلم بالفتاة ذات الحيا الفنى المتطلع والشعر المموج
اللامع .. كان ترفا أن يحلم بامرأة ، وهو الذى حرم على نفسه
شيئا كهذا .. لقد بدأ العمل فى مزرعته منذ خمس سنوات ، ولم
يستطع حتى الآن أن يجعلها تدر عليه أى كسب .. وقد أصبح
مدينا لبنك الأراضى ، وغدت المزرعة مرهونة ، إذ لم يكن لديه
رأس مال على الإطلاق ، عندما بدأ العمل .. ثم انه تخلى عن التدخين
والشراب وكل شيء نيسا عدا الضروريات .. وراح يشتغل بشكل
طاقته منذ السادسة صباحا حتى السابعة ليلا ، متناولا طعامه فى
الحقول ، مركزا كل جهده على المزرعة .. وكان يحلم الأوحدة هو
أن يتمكن من الزواج ويكون له أطفال ، لولا أنه لم يكن باستطاعته
أن يطلب من امرأة مشاركته مثل هذه الحياة .. وأول ميتين عليه
هو أن يتخلص من الديون ، ويقيم له بيتا ، وتتهيا له بعض مناعم
الحياة اليسيرة .. وبعد أن تحامل على نفسه وأضناها فى هذا
العمل الشاق كان الحلم الذى ظل يرأوده هو أن تكون له زوجة
يدلها .. وفى خلال ذلك كان يعرف تماما نوع البيت الذى يريد
أن يبنيه : ليس من نوع تلك الابنية المكتلة التى تلتصق فوق سطح
التربة الزراعية ، وإنما هو بيت فسيح الأجزاء به شرفات مكشوفة
فى الهواء الطلق ، وستوفه من أعواد الحشائش الفارعة التى تجاوز
أطوال الرجال .. ولكن بدأ له أحيانا أنه بعيد كل البعد عن تحقيق
مايريده .. فقد كان سوء الحظ حليفه الدائم حتى أطلق عليه جيرانه
فى المزارع أنجورة اسم « أيوب المبلى » ، إذ كانت الرياح إذا هبت
تلقى هو عنفوانها قبل الآخرين ، وكانت الأمطار إذا هطلت غزيرة
غدت مزرعته مثل أرض المستنقعات .. فإذا قروا ان يزوع القطن
لاول مرة كسدت سوق القطن فى عامه ذاك ، وإذا لاح نذر أسراب
العجرات فى الجو ايقن بقدرية قريية انها ستهاجم اول ما تهاجم

بشائر حقل الذرة في مزرعته .. ثم ان حلمه أصبح في العهد
الاخير أبعد منلا واكل بهرا .. كان وحيدا ، ويريد زوجة ، وفوق
كل شيء اطفالا ، وطبقا لما كانت الامور تسير امامه فلسوف تمضي
سنوات قبل ان يتم له ما يريد ..

ومع ذلك فقد خامره الامل بانه لو استطاع ان يسدد بعض ديونه
ويضيف غرفة في بيته ويقتني بعض الاثاث ، فربما تهيأ له ان يفكر
في الزواج .. وفي خلال ذلك كان يفكر في فتاة السينما .. فقد
أصبحت بمثابة البؤرة في عمله وتصورات .. وراح يلغى نفسه
من أجل هذا ، اذ كان يعرف ان التفكير في النساء ، وخاصة
امراة بعينها ، هو من المحاذير الخطرة مثل معاقرة الخمر .. وبعد
مضي شهر على زيارته للبلدة ، الفى نفسه يخطط لزيارة أخرى ..
ولم يكن ذلك ضروريا وكان يعرف هذا .. ولكنه استسلم لهذا
الاغراء .. وفي البلدة اتم بسرعة المهمة اليسيرة التي جاء من أجلها
وراح يبحث عن يدله على اسم ماري كاملا ..

وعندما أوقف سيارته أمام المبنى الكبير عرقه في الحال ، بيد أنه
لم يربط الفتاة التي أوصلها الى مقرها تلك الليلة بالفتاة التي
استأثرت بلبه في السينما .. وحتى عندما خرجت الفتاة الى باب
المبنى ووقفت في الردهة لترى من جاء يسأل عنها ، فانه لم يعرفها
... رأى أمامه فتاة طويلة نحيلة ذات عيين زرقاوين وشعر
معقود حول رأسها ... وكانت الفتاة ترتدى بنطلونا ، وهو يرى
ان النساء لابسات البنطلون تبدين في نظره أبعد عن الانوثة بعدا
شاسعا .. فهو من ارباب العقلية القديمة .. ثم سمعها تقول له :
« هل تبحث عني ؟ » ..

لقد قالتها في حيرة واستحياء ، وفي الحال تذكر ذلك الصوت
الساذج الذي سألته عن مستحاة تسوية التربة في السيارة حتى جعل
يصدق اليها غير مصدق .. لقد شعر بخيبة أمل بالغة حتى بدا
يتلعثم ويتململ في وقفته .. ولم يلبث ان بدا له أنه لا يستطيع
الوقوف هكذا الى الابد ، متحملا فيها ، فسألها أن تتركب معه
فترة للنزهة .. ولم تكن الامسية وقتها طيبة .. وقد خامره
الغضب لانخداعه وضعفه .. واما هي فكانت مزهوة ولكن مندهشة
تسائل لماذا سعى الى صحبتها في السيارة ، مذرائه الآن لا يتكلم ،
واخذ يقود السيارة في غير وجهة ولا هدف حول البلدة .. لكنه
أراد ان يجد فيها الفتاة التي ظل طيفها يراود خياله ، وقد تحقق

له هذا وهو بسبيل أهانتها الى مقرها .. والواقع انه راح يختلس النظر اليها وهما يهران بمصاييح الشوارع ، وبدأ له الآن كيف ان شعاع ضوء خادع قد خلق شيئاً جميلاً وغريباً من فتاة عادية وليست موفورة الجاذبية ... ثم لم يلبث ان بدأ يعيل اليها .. كان لازماً له ان يحب امرأة ، فهو لم يدرك قبل الآن مدى وحدته .. وعندما تركها في تلك الليلة كان ذلك على أسف منه ، كسداً انه سيعود مرة أخرى قريباً ...

وبعودته الى المزرعة اخذ في العمل اخذا شاقاً عنيفاً ... ان مافعله خليق ان ينتهي به الى الزواج ان لم يلزم الحذر ، وهو مالا يحتمله ... فهذه اذن هي نهاية المغامرة ، وله ان ينسى الفتاة ، وينزع المسألة كلها من ذهنه .. وفضلاً عن هذا ، فما الذي يعرفه عنها ؟ ... لا شيء بتاتا ! ... فيما عدا مابدا له ظاهرياً من انها فتاة مدللة مرفهة ! .. هي من النوع الذي لا يمكن ان يشارك مزارعاً في حياته العاتية الشاقة .. بهذا راح يجادل نفسه ، متفانياً في العمل بأشق مما فعل في أى وقت مضى ، مناجياً نفسه أحياناً بمثل هذا التفكير : « على أى حال ، اذا جاء المحصول طيباً هذه السنة ، فقد أعود اليها وأراها » .. ودرج في خلال ذلك على السير عشرة أميال في أرجاء المروج محتقياً بندقيته بعد انتهاء عمله اليومي لكي ينهك نفسه .. فقال منه هذا حتى غداً نأحلا كأنه انسان مأخوذاً .. وظلّ شهرين يكافح نفسه ويغالبها ، الى ان ألفاه أخيراً ذات يوم وهو يعدا السيارة للذهاب الى البلدة ، وكان كل ما أضنى به نفسه لم يكن الا درعاً يخفى به عن نفسه نيتة الحقيقية ومقصده المستتر الكامن .. وفيما كان يرتدى ملابسه راح يصفر فؤاده مرح شابه الخجل ، وأنطبعت على وجهه ابتسامة يسيرة تشفف عن الانهزام ...

أما عن ماري فان ذينك الشهرين كانا بمثابة كابوس طويل .. انه جاء طول الطريق من المزرعة بعد ان قابلها مرة مدى خمس دقائق ، وبعد ان امضى معها أمسية واحدة ، رأى انها لا تستحق ان يعود اليها .. الا ان أصدقاءها على حق ، فهناك شيء ينقصها .. هناك شيء مختل عندها .. غير انها تعلق بالتفكير فيه ، على الرغم مما كانت موقنة منه من انها مخلوقة فاشلة مضحكة لا يريد لها احد .. وقد عدلت بعد عن الخروج في الأمسيات ، ولزمت غرفتها تنتظر ان يزورها .. وكانت تجلس الساعات والساعات وحدها مشلولة

التفكير شقاء وضنى .. وفى الليل كانت تخالطها أحلام قاتمة ترى فيها نفسها وهى تكافح لشق طريقها بين الرمال ، أو ترتقى سلالا لا تلبث أن تنهادر بها اذا وصلت الى القمة ، منحدره الى القاع ...!

فاذا استيقظت فى الصباح كانت مكدودة مغمومة ، لا قوة لها لمواجهة نهارها .. وما كان من رئيسها الذى اعتاد منها النشاط والدأب الا ان طلب اليها ان تأخذ اجازة والا تعود الا بعد ان تشعر بانها احسن حالا .. فتركت المكتب شاعرة بانها طردت « وان كان مسلكه مثل الكياسة حىال تدهور حالتها على هذه الصورة » ، وبقيت طول نهارها فى النادى .. فلو انها مضت فى اجازة فقد تفقد ديك تير .. ومع ذلك ، فما هو ديك بالنسبة اليها حقا ؟ .. لا شيء .. انها لم تكن تعرفه .. هو مجرد شاب نحيل لفحت الشمس وجهه ، اقتحم عليها حياتها كحدث مفاجيء ، وهذا هو كل ما يمكن ان تقول عنه .. ومع ذلك فلها ان تقول انه من اجله صيرت نفسها الى هذه الحال والى هذا السقم .. ان كل ما هو فيه من قلق واضطراب اعصاب يتركز حوله ، وعندما ساءلت نفسها فى اشدة الجزع ماذا يكون هو بالذات وليس أى أحد غيره من الرجال الذين تعرفهم ، لم تجد جوابا شافيا مرضيا ..

وبعد اسابيع تخلت عن الامل ، وذهبت الى الطبيب بعد ان قيل لها انه لابد لها من اجازة فى الحال اذا أرادت ان تتفادى انهيارا كاملا .. والواقع انها وصلت الى درجة من التعاسة جعلت من المستحيل عليها ان تقابل أى واحد من أصدقائها القدماء ، بسبب ما استحوذ عليها من اعتقاد حازم بأن صداقتهم ليست سوى رداء يخفى تقولاتهم الخبيثة ونفورهم الحقيقى منها - وعند ذلك فقط دعيت الى باب النادى ذات مساء مرة أخرى .. وقتها لم تكن تفكر فى ديك .. وعند مشاهدته استعانت بكل ماتملك من رباطة جاش لكى تحييه بهدوء .. فلو انها ابدت أى تأثر او انفعال فربما نفى يديه منها .. والواقع انه اقنع نفسه بانها انسانة عملية قابلة للتكيف ، لن تحتاج الا الى اسابيع قلائل فى المزرعة لكى تصبح ما يريدونها ان تكون عليه .. ولو انها قابلته بدموع مستيرية لصدمته وفسدت صورتها عنده ...

وهكذا عرض عليها الزواج بعد ان تجلى له هدوؤها وطوالها الاموية .. وكان امتنانه لا حد له عندما قبلته زوجا .. وتم عقد

زواجهما بعد أسبوعين من ذلك اللقاء الاخير .. والواقع ان ما أبدته
من رغبة في التعجيل بالزواج قد اثار دهشته ، اذ كان يرى فيها
امراة ذات ارتباطات اجتماعية مرموقة ، وقدر أنها ستحتاج الى
بعض الوقت لترتيب شئونها .. وكانت فكرته هذه عنها جزءا من
جاذبيتها له .. غير ان الزواج العاجل صادف هوى عنده وكان
مطابقا لخطته .. اذ كان يكره فكرة الانتظار في البلدة ريثما تنهمك
العروس في اعداد الملابس واختيار المدعويين .. بل انها استغنيا
عن شهر العسل .. فقد صارحها بأنه من العسر وضيق ذات اليد
بحيث لا تحتل موارد هذا التقليد المتوارث ، ذلك وان اصررت ،
فهو على استعداد لذلك كل ما في طوقه .. لكنها لم تصر .. وكان
ارتياحها بالفا للأقليات من شهر العسل ..

الفصل الثالث

كانت المسافة بين البلدة والمزرعة طويلة بالغة الطول ، تزيد على مائة ميل .. وعندما أخبرها انها وصلا أخيرا ، كان الوقت في ساعة متأخرة من الليل .. فاستيقظت ماري حيث كانت نصف نائمة لمشاهدة المزرعة .. أبصرت أشكالا قائمة لأشجار واطئة ، وفيما بعدها سماء غائمة تناثرت بين غيومها النجوم .. ان الجهد العصبي الذي استهدفت له خلال الشهور الاخيرة قد استنحال الى لون من اللامبالاة ، وقد رحبت الآن بأن تعيش في سكنة وهدوء ولو التماسا للتغير .. وقالت لنفسها بعزم أن الحياة قرب الطبيعة وبين أحضانها كفيلة بأن تنسيها متاعبها الماضية .. ومهما يكن من هواجسها ، فسوف تكون على أي حال سيدة نفسها ومالكة زمام أمرها .. فهذا هو الزواج ، وهو ما قال اصدقائها أنهم تزوجوا من أجله : ان يكون للانسان بيته الخاص ، والا يكون لاحد سلطان عليه يطالبه بأن يفعل هذا ويدع ذاك .. ولسوف تكون سعيدة بالزواج حقاً ..

وتوقفت السيارة أخيراً ، فنشطت نفسها .. كان القمر قد احتجب خلف سحابة كبيرة بيضاء مضاءة ، وساد ظلام كثيف فجأة ... وقامت في كل ماحولها أشجار قصيرة النمو التفت حول الساحة الصغيرة المكشوفة التي وقفت فيها السيارة لدى بيت صغير مربع يعلوه سقف من صاج معرج أخذ يبرق الآن في ضوء القمر البازغ وئيداً من خلف السحب ويغمر الساحة بضياءه .. فنزلت ماري من السيارة ووقفت تراقبها وهي تستدير الى خلف البيت ، وراحت تجيل النظر حولها وهي ترتعد يسيراً بهبوب نفحة خفيفة من هواء لا بارد سري من بين الأشجار .. ورغم السكون السائد فقد ترامى الى سمعها اصوات صغيرة لا عداد لها منبعثة من صميم الغابة القريبة ، وكأنها جحافل من الكائنات الغريبة كانت صامتة تراقب قدومهم ثم استأنفت سيرتهنسا الاولى في الطنين والازيز ..

وعادت بنظرها الى البيت ، فبدا لها موصدا ومظلماً ومحتبساً
فى ذلك الضياء المتدفق من القمر .. ولمحت سداً من احجار
تبرق امامها ، فتقدمت بمحاذاته ، مبتعدة عن البيت فى اتجاساه
الاشجار التى بدت متطاولة باقترابها منها .. وفجأة انبعث صوت
طائر غريب ، صوت ليلى وحشى ، فلم تتمالك أن قفزت عائدة
أدراجها مرتاعة ، وكأنما اجتاحتها هبة أنفاس عاتية جاءت من عالم
آخر ، من بين الاشجار .. وفيما هى تتعثر فى خطاها بكعوبها
العالية فوق الارض غير الممهدة وتستعيد توازنها ، تعالى نقيق
دواجن ايقظها انوار السيارة ، فكان فى هذه الاصوات المنزلية
ما اذهب عنها الروح ورد اليها السكينة ..

وتوقفت امام البيت ثم مدت يدها للامسة اوراق نبات قائم
فى علبة معدنية فوق حاجز الشرفة . وعندما جذبت يدها كانت
مشبعة بأريج « الجيرانيوم » الاحمر .. وعلى الاثر لاح ضوء مربع
فى حائط البيت ، وابصرت قوام ديك الطويل منحنيا فى الداخل ،
مظلالا فى ضوء الشمعة التى أمسك بها امامه .. فارتقت درجات
السلم الى الباب ، ووقفت تنتظر .. ومالبت ديك أن اختفى مرة
ثانية ، تاركا الشمعة فوق الطاولة .. وبدت الغرفة فى الضوء
المصفر القاتم صغيراً جداً ، وواطئة جداً ، ومن حولها انبعثت رائحة
عطنة قوية ، كأنها رائحة حيوانات .. ومالبت ديك أن عاد ممسكا
بعلبة كاكاو عتيقة مجمولة عند حافتها كقمع ، وصعد الى ما فوق
الكرسى تحت المصباح المعلق للمنه .. وفى هذا تساقط زيت البرافين
منسكبا الى الارض ، حتى شعرت مارى بالغثيان من قوة الرائحة .
ثم اتقد الزيت وثرأقص اللهب بعنف ، الى ان استقر فى صورة
شعلة صفراء معتدلة .. واستطاعت مارى الآن ان تبصر جلود
الحيوانات المتناثرة فوق طوب الارضية الاحمر : جلد قط وحشى
أو فهد صغير ، وجلد وعل ضخمة .. ولم تلبث ان جلست وهى فى
حيرة من غرائب هذا كله .. وكان ديك يراقب وجهها ، كما ايقنت
توقعا لعلائم خيبة الامل ، فتكلفت الابتسام ، وان شعرت بالضنى
من هذه النذر : هذه الغرفة الضئيلة الفاسدة الهواء ، وارضية
الطوب العارية ، والمصباح الزيتى المتسخ كانت كلها شيئاً لم تكن
تتصوره ...

واما ديك الذى اخامره الارباح فيما يظهر ، فقد ابتسم لها
امتناناً ، وقال :

— سأعد الشاي ..

واختفى مرة أخرى .. وعندما عاد كانت واقفة ، قرب الحائط تنظر الى صورتين معلقتين فوقه .. احدهما صورة سيدة بيدها وردة مما يلصق فوق علب الشيكولاته والثانية صورة طفلة تناهز السادسة ، منتزعة من تقويم ..
لقد احمر وجهه حين رآها ، وانتزع الصورتين قائلاً وهو يمزقهما :

— أنا لم انظر اليهما منذ سنوات ..
فعاجلته قائلة :

— لكن دعهما ..

لقد شعرت انها اقحمت نفسها على حياة هذا الرجل الخاصة ..
ان هاتين الصورتين زودتاها لأول مرة بنظرة نفاذة الى دخليته والى وحدته ، وجعلتاها تفهم لهفته للتقرب منها وحاجته العمياء اليها ..
بيد انها شعرت بالغربة نحوه ، وبعدم القدرة على ان تكيف نفسها طبقاً لحاجته .. وعندما نظرت الى الارض ورأت صورة وجه الطفلة الجميل تحف به خصلات الشعر ملقاة على الارض ، لم تتمالك الا ان التقطتها ، مقدرة انه لا بد ان يكون شغوفاً بالاطفال .. انها لم يتناقشا في موضوع الاطفال ، فلم يكن امامهما وقت لمناقشة الكثير .. وقد اتجهت بنظرها للبحث عن سلة للأوراق المهملة ، اذ كان يسوؤها ان ترى القصاصات على الارض ، ولكن ديك أخذ الصورة منها ، وكورها والقى بها في الركن ، قائلاً في خجل :

— بالامكان ان نضع بديلاً للسلة ..

هكذا بدا امامها خجولاً ، متوقياً كل شيء امامها ، مستعظفاً ، وهو ما يجعلها لا تفكر فيه كرجل تزوجته وله حقوق عليها ومطالب منها ..

ثم جلست في هدوء امام الصحيفة التي جاء بها ، وجعلت تراقبه وهو يصب الشاي .. كانت الصحيفة يعلوها مفرش ممزق ملوث ، وقدحان كبيران مشققان .. ومن خلال ماخامرها من امتصاص جاءها صوته قائلاً :

— لكن هذه مهمتك الآن ..

فاخذت منه أناء الشاي وصبته وهي شاعرة بأنه يراقبها مزهواً مفتبطاً ..

الآن وهي هنا — المرأة — تكسو بيته الصغار العاري بوجودها ،

فانه لا يستطيع ان يملك نفسه من الفرح والابتهاج .. ولقد بدا له انه كان احمق اذا انتظر طوال ذلك الوقت ، عائشا بمفرده ، يتفكر فى مستقبل تحقق مناله بمثل هذه السهولة ..

ثم مالبث ان نظر الى ملابسها التى هى ملابس أهل المدن ، والى كعوبها العالية ، والى اظافرha المصبوغة ، واذا القلق ينتابه من جديد .. واخفاء لما عراه فقد راح يتحدث عن البيت ، فى اشفاق ، بسبب فقره ، وهو لا يرفع عينيه عن وجهها لحظة ، فحدثها كيف بناه بنفسه واقام احجاره رغم أنه لا يعرف شيئا عن البناء ، اقتصادا لاجور البنائين من الاهالى ، وكيف اتته تدريجا ، اولاً بسرير ينام فيه وصندوق امتعة يأكل فوقه ، وكيف ان جارا له اعطاه طاولة ، وآخر كرسيًا ، وشيئا نسيئا اخذ المكان طابع البيت .. كانت الدواليب صناديق بترول مثبتة وغطيت بستائر من قماش مزخرف بأزهار .. ولم يكن هناك باب بين هذه الغرفة والى تليها ، ولكن علقت مكانه ستارة من الخيش كستها زوجة تشارلى سلاتر صاحب المزرعة المجاورة بصوف احمر واسود .. وهكذا وهكذا .. لقد جعل مارى تستمع الى تاريخ كل قطعة اثاث وقد رأت ان مابدا لها تافها وزهيدا كان عنده بمثابة انتصارات حققها ضد الشظف والمعاناة ، وبدأت تشعر انها ليست جالسة فى هذا البيت مع زوجها ، وانما كانت عبر الماضى مع أمها ، تراقبها وهى تعمل بلا انقطاع على الترقيع والرتق والاصلاح - الى أن مجت هذا الكلام ونهضت فجأة قائلة بصوت أجش :

— لنذهب الى الغرفة المجاورة ..

فنهض ديك بدوره فى شىء من الدهشة والتأذى بعد أن قوطع فى أبن روايته لتاريخه ...

كانت الغرفة المجاورة هى غرفة النوم .. وكان بها دولاب معلق ، من الخيش المكسو أيضا ، وعدد من الرفوف ، وصناديق بترول اسندت مرآة فوق أحدها ، والسرير الذى اشتراه ديك لهذه المناسبة ... كان السرير من الطراز العتيق ، مرتفعا وضخما - فهذه هى فكرته عن الزواج ... لقد اشتراه فى مزاد ، شاعرا وهو يدفع الثمن انه يقتنى السعادة بعينها ..

ولما ابصرها واقفة هناك ، تجيل النظر فيما حولها بوجه شارد

مؤثر ، واضعة يديها بلا وعى على اخذيها كأنما هي فى حالة الم ،
خامره الأسف لحالتها ، وتركها وحدها لكي تخلع ملابسها .. وفيما
وقف هو خلف الستار لنزع ملابسها ، لم يتمالك أن شعر من جديد
بلذعة تأثم مرير .. الا لم يكن له حق فى الزواج ، لم يكن له حق ،
لم يكن له حق !.. بل قال هذا لنفسه همسا لكي يعذب نفسه
بالتكرار .. وعندما نقر باستحياء على الحائط ودخل ليجدها راقدة
فى الفراش مديرة ظهرها الى ناحيته ، اقترب منها بمزيج من
الافتتان والخجل ، وهى البادرة الوحيدة التى يمكن ان تحتملها
منه ...

وفى النهاية شعر ديك بالمهانة لما بدأ له من فتور عواطفها ...
وعندما استدأر لأطفاء النور ، كرر لنفسه مرة أخرى قوله السابقة
لم يكن لي حق ! ..

أما مارى فقد جعلت تراقب لهب المصباح الخابى متراقصا فوق
الحوائط والسقف وزجاج النافذة البارق ، ولم تلبث ان
استسلمت للنوم ممسكة بيده . كما تمسك بيد طفل شعرت أنها
جرحته ..

الفصل الرابع

عندما استيقظت ماري ألفت نفسها وحيدة في الفراش ،
وسمعت قرع ناقوس في مكان ما خلف البيت .. وصافح بصرها
ضوء رقيق ذهبي فوق الأشجار من خلال النافذة ، مع بقع خفيفة
وردية من ضوء الشمس فوق الجدران البيضاء كشفت عن الطلاء
المحبب الخشن ... ولم تمض دقائق حتى عاد ديك تيرنر مسرعا
بيجامته ولامس خدها بيده حتى لقد شعرت في بشرتها بلذع برودة
الصباح المبكر ..

— هل نمت جيدا ؟ ..

— نعم .. شكرا ..

— سيأتي الشاي حالا ..

كان مسلكهما حيال بعضهما موسوما بالادب ، والتحفظ من جراء
ماكان في ليلتهما الفاتئة .. ومالبث ان جلس على طرف الفراش
وهو يأكل بعض البسكويت .. وبعد برهة جاء زنجي متقدم في
السن حاملا صفحة وضعها على الخوان .. فقال له ديك :
— هذه هي السيدة الجديدة .. وهذا هو سامسون ياماري ..
ظل الخادم خافضا بصره الى الارض وهو يقول : صباح الخير
ياسيدتي ..

ثم اضاف قائلا لديك وكأنما كان منتظرا أن يقولها :

— لطيفة جدا .. لطيفة جدا يا « ريس » ..

فضحك ديك قائلا :

— انه سيقوم بمطالبتك .. هو خنزير لا بأس به ..

تأذت ماري بهذه اللهجة السوقية ، ثم أدركت أنه مجرد حديث
معتاد ، وعادت الى هدوئها .. على ان ذلك لم يدفع عنها السخط
في دخيلتها ، اذ قالت لنفسها : « ومن يكون هو نفسه ، حتى يكون
هذا هو رايه في الناس ؟ .. » .. ولكن ديك كان غافلا عما خامرها
وكان سعيدا بنقلته ...

وقد شرب قدحين من الشاي في عجلة ، ثم خرج لارتداء ملابسه

وعاد لابسا قميصا وبنطلونا قصيرا من الخاكي لكى يودعها قبل ذهابه الى اراضي المزرعة ..

وبعد ذهابه نهضت ماري هي ايضا وراحت تدير النظر فيما حولها .. كان سامسون ينظف الغرفة التي دخلا اليها أولا في الليلة الماضية بعد ان نقل كل اثائها الى الجزء الاوسط ، وهكذا مرت بجانبه الى الشرفة الصغيرة التي كانت مجرد امتداد للسقف الحديدي مدعما بثلاثة أعمدة من الطوب ومسورة بحائط واطيء .. وكان بها بعض صفائح البترول مطلية بلون اخضر مشقق ، وبها بعض الشجيرات المزهرة ومنها ازهار الجيرانيوم .. وفيما امام سسور الشرفة امتدت رقعة من الرمال الباهقة ، ثلثها منطقة شجيرات قصيرة اخذت تنحدر عند حافتها الى مرج مكسو بأعشاب طويلة زاهية الخضرة ، ومن وراء المرج امتدت اشجيرات القصيرة متدرجة حتى الافق .. ولم تتمالك ماري ان قالت لنفسها : « سيكون الطقس حارا هنا ، في هذه المنطقة المحتبسة » ... وفي خلال ذلك لم تنقطع الطيور عن الزقزقة بأصوات جماعية حادة لم تسمع ماري مثلها من قبل ..

ودارت ماري حول البيت حتى وصلت الى الجانب الخلفي .. كان المطبخ خلف الغرفتين اللتين رأتهما في الواجهة الامامية ، بالانسافة الى مخزن التموين والحمام ودورة المياه .. وفي جانب من المكان قامت حظيرة دجاج مسورة بالاسلاك مليئة بدجاج ابيض وعن كئيب منها رقعة ارض جرداء تناثرت فيها ديوك رومية تروح وتغدو باختيال ...

واخيرا دخلت الى البيت عن طريق المطبخ ، حيث كان يضم موقدا خشبيا وطاولة ضخمة من خشب الغابة شغلت نصف ارضية المكان ... وكان سامسون في غرفة النوم يرتب السرير ..

ان ماري لم يسبق لها من قبل ان احتكت بالاهالي احتكاكا مباشرا كمخدومة مستقلة .. وكان لدى أمها خدم من هؤلاء حظر عليها ان تكلمهم .. وفي النادي كانت تعامل الخدم معاملة طيبة .. ولكن « مشكلة الزوج » كانت بالنسبة اليها شكاوى النساء الأخريات من خدمهن في حفلات الشاي .. كانت بالطبع تخافهم ، وكل امرأة في جنوب افريقيا كانت تربي على هذا الخوف .. وفي طفولتها كانت ممنوعة من الخروج وحدها ، ولما سألت عن السبب كان يقال لها بلهجة متكئة وصوت خفيض انهم اناس ارياء وربما اعتدوا

عليها اعتداء بشعا ...

وهاهى ذى الان قد تعين عليها أن تواجه هذه المشكلة : مشكلة التعامل مع الاهالى ، وعلى مسئوليتها .. بيد أنها لم تجد مفرا من معاملة سامسون باللين ، اذ كان دمث الخلق مطواعا يبدى لها الاحترام .. وقال لها لدى دخولها الى غرفة النوم : هل تحب سيدتى أن ترى المطبخ ؟ ..

كانت ماري تؤمل أن يريها ديك نفسه المكان ، ولكنها عندما أتت اهتمام الخادم ولهفته لم تملك إلا أن توافق .. فتقدمها سامسون بقدميه الخافيتين وصحبها الى خلف البيت ، وهناك فتح لها مخزن المئونة .. كان المستودع مرتفع النوافذ تسوده العتمة ، مليئا بالمئونة من كافة الانواع ، وبه أوعية كبيرة للسكر والدقيق والاذرة ، مصفوفة على الارض ..

ولما قال لها ان المفاتيح مع السيد فهمت أن هذا الاحتياط لم يتخذ الا ضد السرقة ...

كان بين ديك وسامسون تفاهم تام .. فقد أغلق ديك كل شيء بالمفتاح ، ولكنه ترك للاستعمال بعض المقادير من كل شيء لى يستخدمه سامسون ، وان لم يكن ثمة ما يستحق السرقة فى بيت هذا الأعزب ، بيد أن سامسون توسم خيرا بعد مجيء امرأة الى البيت ...

وفى احترام ولباقة راح سامسون يفرج ماري على مفروشات البيت المتواضعة ، وعلى الأواني ، وكيفية تشغيل الموقد ، ثم مخزون حطب الوقود فى الجانب الخلفى - كل ذلك بأسلوب المشرف الأمين اذ يسلم المفاتيح الى المالك الشرعى .. كما أراها بعد سؤال منها قرص المحراث القديم المعلق فى غصن شجرة فليظ مع قضيب حديدى صدى لقرع القرص به - وكان ذلك هو الناقوس الذى سمعت ماري رنينه المدوى فى الصباح ، وكان يقرع فى الخامسة والنصف صباحا لايقاظ عمال المزرعة فى الساحة المخصصة لنومهم قرب البيت ، وفيما بين الثانية عشرة والنصف والثانية لفترة الغداء .. وكان للناقوس دوى متجاوب الاصداء فى أرجاء الغابة ..

وعادت ماري الى البيت بينما كان الخادم يعد طعام الافطار وقد خفتت اصوات الطيور مع تزايد الحرارة .. وما ان وافت الساعة السابعة صباحا حتى شعرت ماري بالرطوبة تعلو جبينها وباللزوجة فى اطرافها ...

وبعد نصف ساعة عاد ديك مسرورا برؤيتها ، وان بدا منشغل البال .. فمر بداخل البيت الى الجانب الخلفى مباشرة ، وسمعه ماري يصرخ لسامسون فى المطبخ بلغة البانتو الافريقية التى لاتفهمها ثم عاد اليها قائلا :

— ان هذا العجوز المغفل قد سرح الكلبين مرة أخرى ، مع اننى قلت له الا يفعل هذا ! ..

— اى كلبين ؟ ..

— ان الكلبين يحرنان ويشردان وحدهما الى خارج البيت للصيد اذا لم اكن هنا ، وقد تركهما يخرجان — وفي الغابة يتعرضان للمتاعب بحثا عن الفرائس ، لان هذا العجوز اللعين يتكاسل من اطعامهما ! ...

وجلس متشاغلا صامتا خلال الطعام .. وعندما تكلم كان كلامه شكوى متصلة مما يعانى من المصاعب فى أعمال المزرعة ، فلم تستطع ماري ان تقول شيئا ، لان كل ما سمعته كان غريبا عنها .. وعقب الافطار أخذ ديك قبعته من المقعد وخرج مرة ثانية .. وبحثت ماري عن كتاب للطهى حتى وجدته وذهبت الى المطبخ .. وعند الضحى عاد الكلبان الضخمان فى حالة انتعاش وجعلا يتمسحان بسامسون اعتذارا عما كان منهما ، غير انهما تجاهلا وجودها باعتبارها قريبة من المكان .. وبعد ان شربا الى حد الافراط انسحبا والماء يقطر منهما فى المطبخ للنوم على الجلود فى الغرفة الامامية ورائحة دماء الصيد الذى فازا به فى الغابة تفوح من حولهما قوية نفاذة .. وانتهت اخيرا تجارب ماري فى المطبخ ، تلك التى كان سامسون يراقبها فى حياء وادب ... وبعدها جلست فوق الفراش وبيدها كتاب عن اللغة المحلية ، اذ كان واضحا الان ان هذا اول شيء يتعين عليها ان تتعلمه ، بعد ان تعلم عليها التفاهم مع سامسون ..

الفصل الخامس

اشترت ماري بمالها الخاص المدخر اقمشة موشاة بالزهور ووسائد مكسوة ومفارش وستائر وبعض قطع الخزف .. وشيئا فشيئا تغير مظهر الفقر الكالح الذي كان عليه البيت واكتسى مساحة من الرونق المتواضع زانتها الستائر وبعض الصور .. وفي ذلك كانت ماري تعمل بجهد ودأب ، وقد راقها مابدا على وجه ديك من الدهشة والارتياح كلما عاد من عمله ورأى كسل تغير جديد يطرا على البيت ... وبعد شهر من وصولها طافت بارجائه ، فلم تجد شيئا جديدا يمكن اضافته ... ثم ان النقود لم يبق منها شيء ...

لقد اندمجت بسهولة ويسر في حياتها الجديدة ، وكان التغير الذي طرا على حياتها شاملا حتى خيل اليها انها استحالت الى شخص جديد ...

كانت تستيقظ كل صباح على صوت الناقوس المصطنع ، وتشرب الشاي مع ديك في الفراش .. وبعد ذهابه الى المزرعة كانت تخرج مقادير البقول اللازمة لطعام اليوم .. وكانت تدقق في هذا تدقيقا شديدا الى حد ان سأمسون وجد الامور تسوء بدلا من ان تتحسن ، فان نصيبه من المئونة الذي كان يترك له ضمنا قد رفع ، والفي ماري تعلق مفاتيح المخزن في حزامها ...

وبانتهاء موعد الافطار كان كل عمل يلزمها اداؤه قد تم ، فيما عدا الطهي .. لكن سأمسون كان امهر منها في هذا ، وبعد فترة تركت له هذا العمل .. وهكذا كانت تخطط طيلة الصباح حتى موعد الغداء ، ثم تستأنف الحياكة بعد ذلك ، وبعد العشاء تمضي الى الفراش مباشرة ، فتنام مثل طفل طيلة الليل ..

وفي الفترة الاولى من هذا النشاط والعزم شعرت بانها تستمتع بهذه الحياة الجديدة ، وطاب لها على الاخص ماكان يبيده ديك من ارتياح واستحسان لعملها ، اذ لم يكن يصدق بان بيته الموحش يمكن ان يبدو بهذا الطابع المبهج . والواقع ان زهوه وامتنانه لهذا التطور

الجديد فى حياته قد طغى على احساسه بخيبة الامل والاحباط
الذين لابسهما فى ليلته الاولى .. وعندما كانت ماري تلمح علامات
المضض والحيرة التى كانت ترتسم على وجهه ، كانت تعرض عن
التفكير فى مدى مايقاسيه من جراء ذلك ، اذ كانت الذكرى تجعله
مبعث تكورها وكراهيتها من جديد ..

وبعد ان فعلت كل ما أمكنها فعله للبيت ، بدأت اتى صنع
ملابس لها .. فاعدت جهاز عروس كاملا ، وأن لم يكن مكلفا .. ثم
وجدت بعد شهور قلائل من الزواج انها لا تجد شيئا آخر تفعله ..
الفت نفسها فجأة غير مشغولة بشيء يوما بعد يوم .. وباحساس
غريزي بخطورة الغسل والفراغ عادت الى ملابسها الداخلية ، وكان
هذا ينقذ حياتها من الضياع .. وكانت فى الحق ماهرة فى الحياكة
والتطريز ، وقد توصلت الى نتائج باهرة ، حتى ان ديك اطرى
عدها ، اذ كان يتوقع فترة صعبة قبلما تستقر ماري فى حياتها
الجديدة ، ظنا منه بانها ستجد هذه الحياة الموحشة المتوحدة شاقة
عصية على الاحتمال .. بيد انها لم تظهر أية دلائل على شعورها
بالوحدة ، وبدا انها راضية تماما بأن تعكف على الحياكة طوال النهار
... وخلال هذه الفترة كان يعاملها معاملة الاخ لاخته ، اذ كان رجلا
وافر الاحساس ، وكان ينتظر منها ان تثوب اليه من تلقاء نفسها
وبدافع من عواطفها ..

وفى الحق ان ارتياحها الذى لم تستطع اخفائه من ان اعزازه
لها لم يكن أكثر من مودة وتعاطف قد آذى شعوره عميقا ...
بيد انه ظل يفكر ان الأمور ستعود الى مسارها الطبيعي
فى النهاية ...

ثم انتهت عملية الحياكة والتطريز هى الأخرى ، ومن جديد
الفت نفسها خالية اليدين .. فراحت تتلفت حولها التماسا لشيء
تفعله ... وقد قر قرارها على ان حوائط البيت قدرة ، وان بإمكانها
ان تقوم بطلائها بنفسها اقتصادا للنقود .. وهكذا ، طوال اسبوعين
كاملين ، كان ديك كلما عاد الى البيت وجد الاثاث مكوما فى وسط
الغرف ، ودلاء الطلاء الأبيض مصفوفة على الأرض .. ولكنها
كانت دقيقة منتظمة فى مهمتها ، اذ كانت لا تبدأ العمل فى غرفة
الا بعد ان تفرغ من الغرفة التى شرعت فى طلائها ... وفى حين
انه أعجب بمقدرتها وتمكنها من العمل الذى اتقنته رغم عدم سابقة
معرفتها وخبرتها به ، فقد انتابه القلق والانزعاج ايضا .. فما الذى

سوف تفعله وهي بهذا القدر من النشاط والاقتدار ؟.. والواقع
أن ذلك نال من طمأنينته وضاعف من هواجسه ، إذ شعر في
قرارة نفسه أن صفاتها تلك هي ما كان ينقصه .. وسرعان ما بدت
الحوائط كلها زاهية باللونين الأبيض والأزرق ، بفضل ماري التي
أمضت أياما متواصلة واقفة فوق سلم خشبي ..

والآن لم تلبث أن تملكها التعب ، وحلا لها أن تكف فترة وأن
تمضي وقتها جالسة على الأريكة مشبكة اليدين .. غير أن هذا
لم يدم طويلا .. فقد ألتابها القلق ، واشتد بها إلى حد أنها لم
تدر ماذا تفعل بنفسها .. وأخيرا عمدت إلى فك ربطة الروايات
التي جاءت بها وأخذت تقلبها .. كانت هذه هي الكتب التي جمعتها
على مدار السنين وقرأتها عشرات المرات حتى حفظتها عن ظهر
قلب ، وكانت قراءتها في الماضي بمثابة مسكن لها وملطف لأعصابها
... أما الآن وهي تقلب صحائفها فقد تملكها العجب من أنها فقدت
متعها السالفة .. كان ذهنها يشرد وهي تقلب الصفحات ، ولم
تلبث بعد قراءة نحو ساعة أن أدركت أنها لم تستوعب كلمة واحدة
... فألقت الكتاب من يدها ، وجربت كتابا آخر ، ولكن بنفس
النتيجة .. ومضت أيام تنائرت فيها الكتب في أرجاء البيت ..
أما ديك فقد سر من هذا .. لقد ازدهاه أنه تزوج امرأة تقرأ
الكتب .. وذات مساء تناول كتابا بعنوان « السيدة الجميلة » وفتحه
في منتصفه ليقرأ فيه على مسمع من ماري ، غير أنه ألقاها تحديق
في السقف ساهمة ، ثم ابتدرته متململة :
— ألا يمكن أن يكون لنا سقف طبيعي ياديك ؟..

فأجاب متشككا :

— أن هذا سيكلفنا الكثير .. ربما نفعل هذا في السنة الآتية ،
إذا تحسنت الأحوال ..

مهما يكن فما هي إلا أيام قلائل حتى جمعت ماري الكتب
ووضعتها جانبا ، فلم تكن هي ما تريده .. وعادت إلى كتاب
الطهو مرة أخرى تمضي كل وقتها عاكفة عليه ، مجربة وصفاته في
المطبخ ، مضايقة سامسون بانتقادات لا تنقطع ..

بيد أن سامسون بدأ يشقى بهذا .. فقد ألف ديك واعتاد أطواره
وكان بين الاثنين تفاهم طيب .. صحيح أن ديك كان يسخط عليه
أحيانا ، ولكنه كان يضحك معه فيما بعد .. أما هذه المرأة فلا
ضحك أبدا .. بل كانت تدق وتدق في تقدير مقادير اللذة والسكر

مما يلزم لأعداد الوجبات ، ثم تراقب المتبقى منها فى حرص بالغ حتى ولو كان قطعة بطاطس أو كسرة خبز ، سائلة عندها إذا افتقدت وجودها ...

وإذ نفست عليه هدوءه على هذا النحو فقد خامره الضيق والضجر ، وتكرر الشجار فى المطبخ ، حتى جاء يوم وجد فيه ديك زوجته دامعة العينين .. فقد أعدت مقدارا كافيا من الزيت لعمل « بودينج » ، ولكن عند الأكل لم تكد تجد زيتا كافيا .. وانكر سامسون أنه سرق الزيت .. فقال ديك متفكها :

— بالسماء ! .. حسبت أن شيئا جسيما حدث ! ..
فقلت ماري منتحبة :

— ولكننى متأكدة أنه سرق الزيت ..
— ربما فعل هذا .. لكنه خنزير طيب برغم كل شيء ..
— سأخضم القيمة من أجرته ..

فقال ديك وقد أدهشه انفعالها هذا ، إذ كانت هذه هى المرة الأولى التى رآها فيها تبكى :

— إذا رأيت أن هذا ضرورى ...
وعلى هذا فقد تم فعلا خصم شلنين من أجر سامسون الذى كان يحصل على جنيه فى الشهر .. وقد تلقى البيان بوجه عابس دون أن يقول لها شيئا ، متجها باستغفائه الى ديك ، الذى قال له أن عليه أن يتلقى الأوامر من ماري .. وفى مساء نفس اليوم أخطرها سامسون بأنه ذاهب ، على أساس أن ذويه فى حاجة الى وجوده .. فأخذت ماري تستجوبه مشددة عن سبب هذه الحاجة ، بيد أن ديك لمس ذراعها محذرا ، هازا رأسه ...
فقلت له ماري :

— ولماذا لا أسأله ؟ .. أنه يكذب .. اليس كذلك ؟ ..
فأجاب ديك مستاء :

— هو يكذب طبعاً .. لكن هذا ليس لب الموضوع .. لا يمكنك استبقائه ضد رغبته ..
فقلت ماري :

— ولماذا يجب أن أقبل كذبه ؟ .. لماذا لا أقول صراحة أنه لا يحب الشغل معي ، بدلا من الكذب بخصوص أهله ؟ ..
هز ديك كتفيه وهو ينظر إليها بنفاد صبر .. أنه لم يستطع أن

يفهم الحاحها غير المعقول .. كان يعرف كيف يتعامل بنجاح مع
الاهالى ... ان التعامل معهم كان أحيانا شيئا طريفا ، وأحيانا
أخرى كان عملية تثير الضيق ، يتبع كل طرف فيها أساليب غير
مكتوبة ..

رد عليها ديك بمضض ، ولكن فى مودة :

« لو جاوبك بصراحة لأغضبك .. »

والواقع أنه لم يستطع ان يعاملها بجدية ، إذ كانت تبدو له كطفلة
عندما تتصرف على هذا النحو .. ثم انه كان محزوننا حزنا صادقا
من ان هذا المواطن الكهل الذى عمل له كل هذه السنين سيتركه
الآن ...

قال لها أخيرا مفلسا الموقف :

« كان يجب على أن اتوقع هذا .. كان يجدر بى ان استخدم
شخصا جديدا منذ البداية .. هناك دائما متاعب مع تغيير
الرئاسة .. »

وقفت ماري فى المدخل تراقب مشهد الرحيل لدى السلم
الخلفى وقد تملكها العجب ، بل النفور .. لقد بدا لها ديك محزوننا
وهو يرى نهاية هذا الخادم .. أنها لم تستطع ان تفهم ان يشعر
أى شخص أبيض بشعور ذاتى حيال أحد الاهالى ، وقد أستبشعت
هذا من ديك .. ثم سمعته يقول للرجل :

« عندما تنتهى عمليتك هناك ، ألا تعود الينا وتعمل لنا من
جديد ؟ .. »

فرد الرجل قائلا وهو يستدير للابتعاد :

« نعم يا «ريس» ... »

ورجع ديك الى داخل البيت صامتا مكتئبا وهو يقول :

« أنه لن يعود .. »

فقلت ماري بحدة وسخط :

« هناك الكثيرون غيره ، اليس كذلك ؟ .. »

فوافقها قائلا :

« نعم .. نعم بالطبع .. »

ومضت عدة أيام قبلما جاء طاه جديد عارضا نفسه للعمل ،
وتولت ماري ذاتها شؤون البيت .. لقد وجدتها ثقيلة بصورة لم
تكن تتوقعها ، وان لم يكن ثمة عمل كثير فى الواقع .. ومع ذلك
فقد أحبت الاحساس بوجودها وحيدة طوال النهار ، ومسئولة عن

البيت .. وهكذا راحت تكنس وتمسح وتلمع ... وكان العمل المنزلى شيئاً جديداً جداً عليها ، إذ ظلت طوال حياتها والخدم يقومون عنها بالعمل فى صمت وخفة وكأنهم أطياف .. رلان هذا العمل كان جديداً ، فقد استطابته حقاً ونعمت به .. ولكن بعد أن أصبح كل شيء نظيفاً ولامعاً ، والمطبخ عامراً بالطعام ، غدت تجلس على الأريكة العتيقة المبقعة فى الغرفة الامامية فى حالة تهالك مفاجيء وكان قدميها قد استنزفت منهما كل قوة .. ثم كان الحر شديداً الى أبعد الحدود .. انها لم تتصور قط أن تبلغ الحرارة هذا المبلغ .. كان العرق يتدفق على جسدها طوال النهار .. كانت تشعر به ينحدر فوق أضلاعها وفخذيها تحت الملابس ، وكأنما هي نمال تزحف على بدنهما .. كانت تجلس جامدة ، جامدة ، مغمضة العينين ، شاعرة بالحرارة تهبط من حديد السقف فوق رأسها .. وكم هو سىء أن تضطر الى لبس قبعة حتى فى البيت .. الا لو أن ديك كان يقيم نهاره فى هذا البيت ، بدلاً من وجوده فى المزرعة طوال يومه ، أذن لعمل على إقامة سقف مبنى .. من المؤكد أن سقفاً كهذا لن يكلف الكثير جداً ! .. وبمرور الأيام جعلت تفكر متململة انها كانت حمقاء لاتفاق نقودها المدخرة على الستائر بدلاً من سقف مشيد .. لعلها لو سألت ديك مرة أخرى وبينت له مايعنيه ايجاد هذا السقف بالنسبة لها ، فربما تلين قناته ويعمل على تدبير النقود ؟ .. بيد أنها كانت تعرف أنها لن تستطيع سؤاله بسهولة ، فتشير عنده تلك النظرة المعبدة التى تنطبع على وجهه .. ذلك وان كانت فى الواقع تحب فى أعماقها أن يحدث له هذا ، بعد أن ألقت تلك النظرة واستطابتها .. ألم تره يمسك بيدها فى اعزاز ، ويقبلها فى خضوع ، ويقول لها مستعظماً : « حبيبتي ، هل تكرهيننى لأننى أتيت بك الى هنا ؟ » .. فتقول له : « لا يا حبيبى أنت تعرف أننى لا اكرهك » .. كانت تلك هى المرة الوحيدة التى تتحامل فيها على نفسها مستخدمة كلمات الاعزاز له ، إذ تشعر بانتصارها عليه وصفحها عنه .. ان تلهفه لهذا الصفح وتذلل بين يديها كان فيهما الترضية الكبرى لها ، وأن خامرها الاحتقار له من أجل هذا ..

لكن اشتداد الحرارة غداً فوق طاقة الاحتمال .. لقد تصدع رأسها ، وثقلت أطرافها ، وتصلبت عضلاتها .. ثم لاتلبث أن تتحامل على نفسها وتدخل الى غرفة النوم وتأخذ فى فحص ملابسها لترى

إن كان بها ما يدعو إلى التطرّف أو التغيّر .. وبعدها تنتقل إلى ملابس ديك التماسا لشيء تصلحه أو ترقعه بيد أنه لم يكن يلبس شيئا سوى القمصان والبنطلونات القصيرة .. فإن لم تجد ماتفعله جلست في الشرفة حيناً حتى يبهز عينيها الضياء والوهج وتشعر برأسها يدور وكأنه يسبح ، فترتد إلى داخل البيت لشرب كوب من الماء ..

وبعدئذ جاء الخادم عند الباب الخلفي ، طالباً العمل .. أراد سبعة عشر شلناً في الشهر .. ولكنها أنقصته شلنين ، شاعرة بالسرور لأنها انتصرت عليه .. كان قادماً لتوه من « الكوال » وهي وحدة القرية في جنوب إفريقيا ، وكان فتى لا يجاوز العشرين ، نحلاً شديد النحول ربما بطول المشي خلال القابات من موطنه في نياسالند ، على بعد مئات الأميال .. وبدأ عاجزاً عن فهم كل ماتقول بادي اضطراب الأعصاب ، متصلب العضلات ، ظاهر الخنوع ، لا يكاد يرفع عينيه عنها .. لقد ضايقها خنوعه حتى كان صوتها جافاً معه .. وقد طافت به أرجاء البيت ، ركناً ركناً ، تريه كل شيء ، بلغة المطبخ المحلية التي اتقنتها ... ووقفت تشرف عليه وهو يعد المائدة ، وأمضت طيلة بعد الظهر وهي تدريبه وتشرح له وتستحثه وتنهره .. وفي تلك الليلة أعد المائدة لطعام العشاء أعداداً سيئاً ، فحملت عليه بشدة في صورة استياء وغضب حتى أن ديك جلس يراقبها في قلق .. وعندما خرج الخادم قال لها :

— لا بد أن تأخذى الأمور بهوادة ، مع خادم جديد ..

— لكنني نبهته ! .. إذا كنت نبهته مرة واحدة ، فهذا يوازي تنبيهه خمسين مرة ! ..

— لكن ربما كانت هذه هي المرة الأولى التي يعمل فيها في بيت رجل أبيض ! ..

— لا يهم .. قلت له ما يجب أن يفعل .. فلماذا لا يفعل ما قلت له ؟ ...

نظر إليها ملياً وقد قطب جبينه وزم شفثيه .. لقد بدت له مستاءة ساخطة إلى حد كبير ، وفي غير حالتها المعهودة تماماً .. وقال :

— ماري .. اصغى إلى برهة .. إذا استسلمت للغضب بسبب الخدم ، فقد انتهى أمرك .. لا بد لك أن تتنازلى عن معاييرك بعض الشيء .. لا بد أن تتساهلى .

— لن اتنازل عن معاييرى .. ابدا !... وما الذى يضطرنى الى هذا ؟ .. يكفينى سوءا أن ..

وترننت عن اتمام عبارتها . كانت توشك أن تقول : « يكفينى سوءا أن أعيش فى مرتبط خنازير مثل هذا .. » ..

لقد أحس أن هذا هو ما كانت تنوى قوله ، فنكس رأسه وجعل يحدق فى طبقه .. غير أنه لم يعمد هذه المرة الى استرضائها واستطافها .. فقد تملكه الغضب ، ولم يشعر بضرورة للخضوع أو أنه مخطيء ، وعندما أضافت تقول بحدة عمياء وصوت مكدود : « أننى قلت له كيف يرتب المائدة » — لم يتمالك أن نهض عن الطعام وخرج من الغرفة ، ولمحت قدح ثقاب ووهج سيجارة اشعلت على عجل ... أهكذا !؟ .. هل استاء وبلغ من استيائه أنه خالف وعده بعدم التدخين الا بعد الفراغ من المشاء ؟ .. لا بأس . له ان يستاء ماشاء له الاستياء ..

وفى اليوم التالى اسقط الخادم اثناء الغداء طبقا نتيجة ارتباك عصبى ، فبادرت ماري الى طرده فى الحال ..

ومرة أخرى كان عليها أن تقوم هى بأعمال البيت .. وفى هذه المرة انتابها الحزن والكراهية ، وألقت اللوم على الخادم الذى طرده دون أن تدفع له شيئا .. وهكذا راحت تنظف وتلمع الموائد والكراسى والاطباق فى حال من الكراهية لا مزيد عليها .. وفى نفس الوقت أضمرت فى سريرتها الا تكون مسرفة فى تحاملها على الخدم اذا وجدت واحدا آخر منهم ..

وكان الخادم مختلفا تماما .. كانت له خبرة سنوات فى العمل لدى نساء البيض اللاتى كن يعاملنه وكأنه آلة ، وقد تعلم هو ان يجعل ملامح وجهه حيادية لا تنم عن شيء ، وان يرد بصوت رقيق حيادى أيضا .. ولقد ألقته يرد بصوت رقيق على أى شيء تقوله ، بعبارة : « نعم ياسيدتى ، نعم ياسيدتى » وذلك دون ان ينظر اليها .. ولكن آثار غضبها أنه لا يرفع عينيه الى عينيها ، دون أن تدرى ان هذا نوع من التأديب فى حق المخدم .. بل ظنت ان هذا دليل آخر على طبيعة أمثاله فى الخداع والخيانة .. وخنقتها أنه بدأ كآلة متحركة على استعداد لتنفيذ أوامرها ، حتى لقد ودت لو تأخذ طبقا وتقذفه فى وجهه لكى تجعله آدميا ومعبرا ، حتى عن الالم ... غير أنها التزمت السداد هذه المرة التزاما صارما .. وعلى الرغم من أنها لم تدعه يقرب عن عينيها لحظة واحدة ، وكانت تتبع

حركاته بعد انجاز العمل ، وتستعيده لرؤية ذرة اترية او ادنى تبقع - فانها حرصت فى كل هذا على عدم التمدى الى حد بعيد .. وقالت لنفسها ان هذا الفتى يجب الاحتفاظ به .. ولكن ارادتها لم تنش لحظة واحدة - مصممة على ان يفعل كل ماتقوله ، وطبقا لما تريد ، حتى فى اصغر الامور ..

وكان ديك يرى كل هذا فى توجس متزايد .. ترى ما الذى دهاها ؟ .. معه كانت تبدو على سجيتها ، هادئة ، شبه أموية .. ومع الخدم كانت مثال المشاكسة والتسلط .. ولقد سألها ، لكى يبعدها عن البيت ، ان تذهب معه الى المزرعة لترى كيف يعمل - اذ شعر انها لو جاءت بقربه ولايست مشاكله ومتاعبه ، لتوثقت العلاقات بينهما .. وفضلا عن هذا فقد كان يعانى الوحدة وهو يمضى الساعات المتعاقبة فى طوافه بأرجاء المزرعة بمفرده يراقب العمال وهم يباشرون اعمالهم ..

لقد وافقت وهى ادنى الى التشكك ، اذ لم تكن تحب ان تذهب ... وفى النهاية اخذت قبعتها وصحبته فى السيارة ..

وامضت طيلة الصباح وهى تتبعه من حقل الى حقل ، وبين جماعات العمال ، وطوال ذلك كانت تشغلها فكرة واحدة ، وهى ان الخادم الجديد كان وحده فى البيت ، مطلق العنان لكل ألوان العبث والسوء .. من المؤكد انه يسرق فى غيابها .. وربما اخذ يعبث بملابسها ، منقبا فى اشياؤها الشخصية .. وفيما ذهب ديك يشرح لها بصبر كل مايتصل بشئون التربة الزراعية والمساقى والمصارف واجور العمال ، كانت تفكر بنصف عقلها فى ذلك الخادم وحيدا مع متعلقاتها الشخصية .. وعند عودتها فى موعد الغداء كان اول شئ فعلته هو الطواف بأرجاء البيت بحثا عن أى عمل لم يقم به ، وتفتيشا لادراجها ، التى بدأ انها لم تمس .. وممع ذلك ، فمن يدرى ، وهو اهل للمكر والخداع ؟!

وفى اليوم التالى ، عندما سألها ديك ان كانت تريد مرافقته مرة أخرى ، قالت له بعصبية :

- لا ياديك ، اذا لم تتضايق .. الحر هناك شديد جدا .. وانت معتاد عليه ..

ولكن الحرارة كانت تضنيها فى البيت ، الى حد الغثيان .. غير انه كان لها ماتعمله فى البيت ، وهو الاشراف على الخادم .. ويمضى الوقت كانت الحرارة لا تطاق .. حتى ان الكلبين النشيطين

كانا يتمددان طوال النهار فى الشرفة ، متنقلين من موضع الى موضع بتزايد حرارة الطوب من تحتهما .. وعندما كانا يقتربان منها لوضع رأسيهما على ركبتيهما ، كانت تبعدهما عنها ساخطة .

وفى فترة الضحى كانت تطلب من الخادم أن يحمل اليها صفيحة مملوءة بالماء ويضعها فى غرفة النوم .. وبعد أن تتأكد من ابتعاده من البيت كانت تتجرد من ملابسها وتقف فى طشت على الأرض وتصب الماء على جسدها .. وكانت قطرات الماء تتساقط على الطوب المسامى فيكون له تشيش من شدة الجفاف ..
وقالت يوما لديك :

— متى ينزل المطر ؟ ..

— ٥٢ .. ليس أقل من شهر ..

قال لها هذا فى يسر ، ولكن فى دهشة من سؤالها .. من المؤكد أنها تعرف متى يحتمل نزول المطر ، وهى التى أقامت فى هذه البلاد أكثر منه ...

ويوما آخر قال لها ديك مقطباً :

— أن الماء يتناقص بسرعة ..

كان الماء يجلب مرتين فى الأسبوع من البئر الكائنة عند قاع التل فى عربة يجرها ثوران قويان ، وكثيراً ما كانت ماري تسمع صياح سائقيها وهو يستحث الثورين البطيئين بسوطه الذى يدور فى الهواء دون أن يلمسهما فعلاً ..

ولم يلبث ديك أن اضاف قائلاً :

— فيم تستعملين الماء ؟ ..

فأخبرته .. فقطب وجهه .. ونظر اليها بارتياح وهو لا يصدق سمعه ، وكأنها اقترفت جرماً .. ثم قال :

— ماذا ؟ .. أتبددين الماء هكذا ؟ ..

فقلت ببرود :

— أنا لا أبدده .. أنتى أشعر بشدة الحرارة حتى لا يمكننى

احتمالها ..

أريد أن أرطب نفسى ..

لأبتلع ديك ريقه محاولاً الاحتفاظ بهدوئه ، وراح يقول

لها :

— أصفى إلى ! .. فى كل مرة أمر باحضار الماء للبيت فى عربة

المياه ، يكون معنى هذا تكليف سائق ، وعاملين للعربة ، وثورين ،

والجميع يتركون عملهم الاصلى صباحا كاملا .. ان جلب الماء يكلف نقودا .. وبعدئذ تقومين انت بتبديد المياه هكذا ! .. لماذا لا تملئين حوض الحمام بالماء وتنزلين فيه ، بدلا من تبديده ونثره هباء فى كل مرة ؟ ..

اشتد سخطها .. هذه هى هشته الاخيرة التى قصمت ظهر الدابة .. فهى ذى تقيم هنا دونما شكوى ، تقاسى هذه المصاعب ومع ذلك لا تستطيع ان تستخدم جالونين من المياه ! .. لقد فتحت فمها لى تصرخ فى وجهه ، ولكن قبلما اتيح لها ذلك ، اذا هو يملكه الندم بسبب الاسلوب الذى احتداه فى الكلام معها ، وأعقب ذلك واحد من تلك المشاهد الصغيرة التى كانت تسرى عنها وتهون عليها هو يعتذر ويتذلل ، وهى تصفع وتغفو .

ولكن بعد ذهابه اتجهت الى الحمام وألقت نظرة عليه وما زالت تمقته من أجل ما قاله .. كان الحمام ذاته حوضا ضحلا من الزنك فوق قاعدة من الطمى الجاف .. وكان سطحه كثير الخدوش ، تراكت فيه على مدار السنين بقع من الشحم جعلته بادي القذارة ، حتى ان مارى جعلت تحديق اليه بنفور بالغ .. وعندما اقترنت على الاغتسال فيه ، ولم يكن ذلك أكثر من مرتين فى الاسبوع بسبب مشاكل وتكاليف جلب المياه ، كانت تجلس منكشمة على نفسها فى طرفه الاقصى ، متحاشية لمسه قدر استطاعتها ، هاربة منه بأسرع ما يمكنها .. كان الحمام عندها أشبه بالدواء الذى لا بد من أخذه ، وليس متعة يستطيعها الانسان ..

ومن أجل هذا كلفت الخادم أن يحك الحوض حتى يتم تنظيفه . فظن لها تقصد الحك المعتاد ، وفرغ من المهمة بعد خمس دقائق .. وعندما ذهبت الى الحوض ووجدته على حاله أمرت الخادم ان يستمر فى الحك والتنظيف الى أن يلمع تماما .. كان ذلك حوالى الحادية عشرة صباحا ..

ولكنه كان يوما منحوسا عند مارى .. ففى هذا اليوم تم أول اتصال بينها وبين « المنطقة » فى شكل تشارلى سلاتر وزوجته .. ومما يجدى فى هذا المقام ان نبين بشئ من التفصيل ما حدث فى ذلك اليوم ، اذ يعيننا على فهم الكثير على ضوء ما تطورت اليه القصة .. فقد توالى اخطاء مارى وعثراتها واحدة تلو الاخرى بصلاية مسلكها وشموخها وتصميمها على عدم ابداء أى ضعف او هودة .. فعندما عاد ديك يومها وجدها تطهو فى المطبخ وهى

بادية الغضب والانفعال وقد احمر وجهها وتشعث شعرها .. فسألها
من سبب قيامها بعمل الخادم قائلا :

— أين الولد ؟ ..

فردت باقتضاب والكلمات تتدافع من فيها مشبعة بالغضب :

— ينظف الحمام

— ولم هذا الآن ؟ ..

— لانه قدر ..

قصد ديك الى الحمام ، فوجد الخادم منحنيا فوق الحوض وهو
منهمك في حك المعدن دون نتيجة ظاهرة .. فرجع الى المطبخ
وقال لها :

— ولماذا هذه العملية الان ؟ .. ان الحوض ظل كذلك مدى
سنوات .. هكذا احواض الزنك دائما .. ليست هذه قذارة يامارى
فى الحقيقة .. هو تغير اللون ..

ودون ان تنظر اليه ملأت صحيفة بالطعام وانتقلت الى الغرفة
الامامية قائلة :

— الحوض قدر .. اننى لن استخدمه ابدا حتى يصبح نظيفا
بمعنى الكلمة ! .. لا استطيع ان افهم كيف تترك اشياءك بهذه
القذارة ...

فقال بجفاء وهو يخرج سيجارة بحركة آلية ويدسها بين شفتيه:
— انك استخدمت الحوض عدة اسابيع دون شكوى ..

بيد انها لم ترد ..

وعندما قالت ان الطعام جاهز هز رأسه وخرج عائدا الى الحقول
مناديا الكلبين فى اثره .. فعندما يراها فى هذه الحال لم يكن
يطيق ان يبقى عن كذب ..

ورفعت مارى الطعام دون ان تأكل هى ايضا ، وجلست تنصت
الى صوت حك الحوض بالفرشاة فى الحمام ، وظلت مكانها هكذا
مدى ساعتين وهى تشعر بصداع وتنصت بكل جارحة من جوارحها
المتأزمة .. وعند منتصف الساعة الرابعة ساد سكون مفاجئ ،
فاستقامت فى جلستها متأهبة للذهاب الى الحمام والزام الخادم
بأن يبدأ العملية من جديد .. بيد أن الباب فتح ودخل .. وقال
انه ذاهب الى كوخه لكى يأكل شيئا ، وانه سيواصل تنظيف الحوض
عندما يرجع ...

انها نسيت كل مايتصل بطعامه .. وهى لم تفكر قط فى الاهالى بوصفهم بشراً لابد أن يأكلوا أو يناموا .. فهم أما موجودون ، أو غير موجودين .. اما عن كنه حياتهم عندما يغيبون عن بصرها فهى لم تتوقف لحظة واحدة للتفكير فى هذا ..

مهما يكن فقد أومات برأسها ، تأثما .. ثم خنقت تأثمها وهى تناجى نفسها : « الذنب ذنبه لعدم ابقائه الحوض فى حالة نظافة دائمة فى اول الامر » ...

وبهذا خفت حدة تأزمها العصبى بطول الانصات الى عملية التنظيف والحك ، وخرجت لى تتطلع الى السماء .. كانت خلوا من السحب تماما .. كانت قبة واطئة من الزرقة الشاملة .. وكانت التربة الرملية الباهتة أمام البيت تعكس وهجا ضوئيا يخطف البصر ... فنقلت عينيها الى الاشجار الطابية والى ماوراءها من افدنة الحشائش المتموجة البارقة الممتدة الى التلال ... كانت حرائق المروج مشتعلة منذ اسابيع ، حتى كان بوسعها أن تذوق الدخان فوق لسانها .. وكانت أعمدة الدخان ترتفع على البعد ، فى شكل لغائف كثيفة مزرقة معلقة فى الفضاء ساكنة ، مكونة صورا معمارية معقدة فى الهواء الراكد ...

وفى الاسبوع الماضى اكتسح حريق جزءا من مزرعتهم ، فدمر حظيرتين للبقر ومساحة فدادين من مراعى الماشية ...

ولم تتمالك أن اشاحت بعينيها بعيدا عن هذا المشهد ، اذ لم ترد أن تفكر فى النقود التى ضاعت بددا ، عندما أسترعى نظرها عند منعطف من الطريق سحب من الاتربة المحمرة .. وما أن انقشع الغبار حتى تبينت على البعد سيارة قادمة نحوهم ، وتملكها الارتياح ... زائرون ؟ .. لكن ديك قال لها أنها لابد أن تتوقع قدوم الناس اليهم .. وهكذا أسرع الى خلف البيت لتطلب الى الخادم ان يعد الشاي .. فلم تجده .. كانت الساعة وقتها الرابعة .. وتذكرت انها منذ نصف ساعة سمحت له بالانصراف .. فركضت الى موضع الناقوس وقرعته عشر مرات وهى الاشارة التى يشعر الخادم أنه مطلوب .. وعلى الاثر عادت الى البيت .. كان الموقد مطفاً ، وقد وجدت صعوبة فى اشعاله ، ولم يكن بالبيت مايؤكل .. ففتحت لفافة من البسكويت المحفوظ ، وبعدها نظرت الى فستانها .. لم يكن من اللائق أن يراها القادمون بهذه الصورة الزرية .. لكن فات الاوان .. كانت السيارة تهدر عبر التل .. فهرعت الى الجانب

الامامى وهى تعصر يديها .. ولو رأى أحد مسلكها لتصور انها ظلت معزولة مدى سنوات عن مقابلة الناس ، لا امرأة لم تكن على مسدار الاعوام وحيدة منعزلة .. ثم ابصرت السيارة تتوقف ويهبط منها رجل وامرأة .. كان الرجل قوى البنية رملى اللون قصير القامة ، وكانت المرأة مليئة سوداء الشعر مليحة الوجه ... فوقفت ماري تنتظرهما باسمه فى استحياء ردا على البشاشة البادية فى وجهيهما .. ثم سرى عنها عندما لمحت سيارة ديك ترتقى التل ! .. لم تتمالك ان حمدت له هذه اللقطة اذ جاء لمساعدتها فى هذه الزيارة الاولى ... لقد شاهد هو ايضا الفبار المتصاعد من خلال الاشجار فى أثر السيارة واسرع بالحضور ..

صافحها الرجل والمرأة واحتفيا بها .. ولكن ديك هو الذى دعاهما الى الدخول .. وجلس الاربعة فى الغرفة الضيقة حتى بدا انها زادت ضيقا باجتماعهم ، واتخذ ديك وتشارلى سلاتر مجلسهما فى جانب ، وجلست ماري ومسر سلاتر فى الجانب الاخر ... وكانت مسر سلاتر امرأة طيبة القلب ، وقد أسفت فى دخيلتها من أجل ماري اذ تزوجت رجلا لا وزن له مثل ديك .. سمعت انها كانت بنت مدن ، وكانت هى نفسها تعرف ماهية المعاناة والوحدة هنا ، وان كانت قد تجاوزت مرحلة الكفاح فى حياتها .. فان لها الان بيتا كبيرا ، وثلاثة أبناء فى الجامعة ، وهى تنعم بحياة رغدة ... ولكنها تتذكر جيدا عذابات الفقر ومذلاته .. وقد راحت تنظر الى ماري برقة صادقة ، متذكرة ماضيها هى ، وكانت على استعداد لمصادقتها .. غير ان ماري كانت بادية الجفاء والاستياء ، اذ لاحظت مسر سلاتر وهى تدبر نظرها فى القرقة قاحصة مدققة فى قطع الآثاث ، خصوصا الطلاء والستائر ...

- انك جعلت من هذا شيئا جميلا جدا .. قالت مسر سلاتر هذه الكلمات باعجاب حقيقى ، مقدرة مبلغ الجهد فى صنع ستائر من اكياس دقيق مصبوغة ، ودواليب من صفائح بترول مطلية .. غير ان ماري أساءت فهمها .. ولم ترد ان تلين بأى حال .. وماكان لها ان تناقش امور بيتها مع مسر سلاتر التى جاءت متفضلة بالرعاية والعطف .. وهكذا راحت تتحدث فى شئون اخرى بصوت متباعد متحفظ ... ثم جاء الخادم بالشاى ، فكابدت ماري عذابا جديدا بسبب

الفناجين والصحفة .. وحاولت ان تتناقش فى شىء لا علاقة له
بالمزرعة .. افلام السينما ؟ .. لقد راحت تستعرض فى ذاكرتها
مئات الافلام التى شاهدها فى الاعوام القلائل الماضية ، فلم تستطع
ان تتذكر اكثر من ثلاثة او اربعة افلام .. وعلى اى حال فان مسز
سلاتر ربما لم تذهب الى السينما الا مرتين فى العام ، عندما كانت
تقصد الى البلدة فى رحلات التسوق والشراء .. ام تتكلم عن
الحوانيت والمحلات فى البلدة ؟ .. كلا .. هذه المسألة متصلة بالنقود
ايضا ، وهامى ذى تلبس فستانا من القطن حائل اللون كم هى خجلة
منه ! ..

وتطلعت الى ديك مستنجدة ، غير انه كان منهمكا فى الحديث
مع تشارلى ، يتناقشان فى المحاصيل والاسعار واجور العمال
الزراعيين من الأهالى .. فما اجتمع مزارعون بعضهم مع بعض الا
كان مدار الحديث والنقاش هو الشكوى من هؤلاء العمال ومن عدم
اهتمامهم برفاهية الرجل الابيض .. اما تحقيق مصالح العمال
انفسهم وكفالة حقوقهم ورعايتهم كبشر فذلك كان خارج تفكيرهم ..

وكانت ماري تنصت الى حديث الرجلين فى عجب .. فتلك
كانت المرة الاولى التى سمعت فيها الرجال يتحدثون فى شئون
المزارع والزراعة ، واسترعى نظرها ان ديك كان منهما لهذا
الحديث مشغوبا به اى شغف ، حتى لقد احست انها تافهة ازاء
هذا القصور من جانبها لندرة معلوماتها ، وعجزها عن مساعدته
والتخفيف من اعبائه بمناقشة شئون المزرعة معه ..

فعادت تلتفت الى مسز سلاتر ، التى كانت صامتة ومتأذية لان
ماري لم تتقبل ما ابدته نحوها من مشاعر العطف والمساعدة ..
وفى النهاية وصلت الزيارة الى نهايتها ، على اسف من جانب
ديك ، وارتياح من ناحية ماري ... وخرجت هى وزوجها لتوديع
الضيفين ، ووقفت تراقب السيارة الكبيرة الفالية الثمن وهى
تهبط فى منحدر التل ، ثم تبتعد بين الاشجار بين مشار الغبار
الاحمر ...

وقال لها ديك :

— أنا مسرور بحضورهما .. لابد انك كنت تعانين الوحدة ..

فردت قائلة :

— أنا لا أشعر بوحدة ...

فقال ديك مازحا بسخف :

— لكن لابد لك أن تتحدثي حديث النساء أحيانا ...
نظرت اليه بدهشة .. كانت هذه اللهجة جديدة في سمعها ..
أما هو فراح يحدق في أثر السيارة المرتحلة بوجه يطل منه
الأسف .. ولم يكن أسفه من أجل تشارلي سلاتر ، وهو لم يكن
يميل اليه ، وإنما كان الأسف من أجل الحديث الرجولي الذي منحه
الثقة بالنفس بصدد علاقاته مع ماري .. فقد شعر وكأنه أعطى
« حقنة » قوة جديدة بعد تلك الساعة التي قضوها في الفسحة
الصغيرة : الرجلان في جانب يتناقشان في مشاغلها وهمومها ،
والمرأتان في الجانب الآخر تتحدثان فيما يفترض عن الملابس والخدم
... ذلك لأنه لم يسمع كلمة واحدة مما دار بين مسز سلاتر
وماري ، ولم يفطن إلى أي مدى كان الموقف محرجا لكليهما ..
قال لها أخيراً :

— لابد لك أن تذهبي وتقابليها .. سأعطيك السيارة بعد ظهيرة
أحد الأيام عندما يكون العمل خفيفا ويمكنك أن تقصدي إلى هناك
« للردشة » معها .

فاه بهذا الكلام في مرح وانطلاقاً بالعين وقد نزلت ملامحه من
ذلك القلق البالغ الذي كان يعاينه ووضع يديه في جيوبه ..
ولم تفهم ماري سبباً لما يبدو من جفوته نحوها أحيانا ، بيد أنها
شعرت بأنه جرح كرامتها بتصوير كل مطالبها بمثل هذه الصورة ..
ثم إنها لم تكن راغبة في صحبة مسز سلاتر .. بل إنها لا تريد صحبة
أي أحد آخر . ولهذا قالت له بلهجة صبيانية :

— لا أريد أن أفعل ما تقول ...

— ولم لا ؟ ..

ولكن عند هذا الحد جاء الخادم إلى الشرفة من خلفهما ممسكا
بيده عقد استخدامهم دون أن يتكلم ... فهو يريد أن يرحل ، وأسرته
في حاجة اليه في موطنها .. وسرعان ما فقدت ماري أعصابها ،
ووجدت استياؤها الكامن منفذاً في مسلك هذا الخادم المفيظ المثير
... فما كان من ديك إلا أن جذبها إلى الخلف وكأنها شخص لا وزن
له ، وذهب معه إلى المطبخ .. وقد سمعته يشكو بأنه ظل يعمل
منذ الساعة الخامسة صباحاً بغير اقل طعام بالمرة ، ثم لم يكذب
في مكان إقامته بالمزرعة أكثر من بضع دقائق حتى سمع قرع
الناقوس يستدعيه ... أنه لا يستطيع أن يشتغل بهذه الطريقة ..

وهناك طفله مريض فى موطنه ، وهو يريد ان يذهب فى الحال ..
وعندئذ رد عليه ديك متجاهلا كافة التقاليد المرعية قائلا ان
السيدة الجديدة لم تعرف الكثير بعد عن تصريح شئون البيت ،
وانها سوف تتعلم ، وان هذا لن يتكرر مرة اخرى .
والواقع ان ديك كان مدفوعا فى أسلوبه هذا بسخطه على ماري
لافتقارها الى سلامة التقدير وحسن التصرف ...

اما هى فقد أذهلها الغضب ، اذ كيف يجسر ديك على الانحياز
الى جانب الخادم ضدها ؟! .. وما أن عاد ديك حتى الفاها واقفة
فى الشرفة مطبقة اليدين مكفهرة الوجه ، وبادرت بصوت مختنق :
- كيف تجسر على شيء كهذا ؟!
فقال ديك باعياء :

- ان كان لابد ان تفعل هذه الاشياء ، فعليك ان تتحملى النتائج
... هو كائن آدمى ، اليس كذلك ؟ .. ولا بد أن ياكل مثلنا ! .. ثم
لماذا يجب ان ينظف حوض الحمام مرة واحدة ؟ .. من الممكن تنظيفه
على مدى ايام ، اذا كانت له عندك هذه الاهمية ؟.

فقالت ماري :

- هذا بيتى .. وهو خادمى ، لا خادمك .. لا تتدخل ! ..
فراح ديك يقول باقتضاب :

- اصفى الى .. اننى أعمل عملا شاقا بما فيه الكفاية ، طوال
النهار انا فى المزرعة مع هؤلاء العمال الكسالى أصارعهم لكي انتزع
منهم الشغل .. ولا يمكن أن أعود الى البيت لكي أجد فيه هذا
الشجار المتواصل ! .. هل تفهمين ؟ .. لن أقبل هذا ولن اسمح
به ! .. عليك أن تلزمى الثقيل .. وان كنت تريدين ان تحصلى
على عمل منهم فلا بد ان تعرفى كيف تتعاملين معهم ...
احتدمت ماري غيظا .. فقالت له قاصدة ان تجرح شعوره
لاول مرة بسبب عجرفته الجديدة هذه :
- انت تنتظر الكثير منى ! ..

على انها تماكنت قبل حدوث كارثة ، وان كانت لم تستطع ان
تتوقف تماما .. وبعد تردد يسير مضت تقول :

- ... انت تنتظر الكثير منى ! .. تنتظر منى ان اعيش حياة
امراة فقيرة فى جحرك هذا ! .. تنتظر منى ان اطهو بنفسى كل يوم
فى الوقت الذى لا تريد ان تبني سقفا فوق بيتك ...

كانت تتكلم الآن بصوت جديد عليها .. صوت لم تستخدمه من قبل فى حياتها .. لقد جاءها هذا الصوت من امها مباشرة ، حينما كانت تتشاحن مع ابيها بسبب النقود .. لم يكن هذا صوت ماري ذاتها ، بل كان صوت الانثى المعذبة التى ارادت ان ترى زوجها انها لن تقبل منه مثل هذه المعاملة .. ولو تمادت لأنخرطت فى البكاء ، كما كانت امها تبكى فى مثل هذه المواقف ، غضباً لكرامتها ، وشعوراً بأنها شهيدة معذبة ..
اما ديك فقال لها جانقا :

- قلت لك عندما تزوجتك ما الذى يمكن ان تنتظره منى .. لا يمكنك ان تتهمينى باننى كذبت عليك ! .. اننى شرحت لك كل شئ ! .. وهناك زوجات مزارعين فى كافة انحاء الاقليم يعشن حياة ليست افضل من حياتنا ، ولا يبدن مثل هذه الضجة ! .. اما عن السقف الذى تتكلمين عن بنائه ، فلك ان تتكلمى ماشئت .. اننى عشت فى هذا البيت ست سنوات ، فلم اشعر انه يؤذنى .. ولك ان تقبلى الواقع ! ..

شهقت ماري ذهولا .. فهو لم يكلمها قط بهذا الاسلوب .. وفى دخيلتها أحست بالمرارة حياله ، وما كان لشيء ان يلين قلبها نحوه الا اذا أبدى لها اسفه والتمس منها الصفع ..
على انه مضى يقول :

- ان هذا الخادم سوف يبقى .. وعليك ان تعامليه معاملة طيبة والا تعرضى نفسك مرة ثانية لمثل هذا الموقف المخرج ! ..
وعندئذ أتجهت الى المطبخ مباشرة واعطت الخادم الاجر الذى يستحقه وهى تعد الشلنات فى شح كأنها تستكثرها عليه ، ثم صرفته .. وبعدها عادت الى ديك منتصرة .. ولكن ديك لم يسلم لها بهذا الانتصار ، وقال لها :

- لست انا الذى تجرحينه بهذا التصرف .. انما تجرحين نفسك .. اذا مضيت تتصرفين بهذه الطريقة ، فلن تجدى أبداً خادماً يقبل العمل عندك .. انهم سرعان ما يعرفون النساء اللاتى لا تفهم حسن المعاملة ..

وقد تولت اعداد العشاء وحدها ، متعذبة فى اشغال الموقد .. وبعد ان اوى ديك الى الفراش مبكراً كما كان يفعل دائماً ، بقيت وحدها فى الغرفة الامامية الصغيرة ..
ولما أحست كأنها حبيسة فى قفص خرجت الى الظلام خارج

البيت ، وجعلت تروح وتغدو فى المشى الذى تمده الاحجار
البيضاء الباهتة فى الظلمة ، التماسا لنسائم هواء رطيب تلتف من
حرارة خديها ...

كانت متوترة الاعصاب الى حد التأزم ، بما كان يعتمل فى صدرها
من حقد وكراهية .. وراحت تتخيل نفسها وهى تروح وتغدو فى
الظلام ومن حولها الغابة الكريهة تحف بها من كل مكان ، عن كذب
من « مربط الخنازير » هذا الذى يسمى بيتا ، وعليها أن تقوم
بكل الاعمال المطلوبة منها - وهى التى كانت منذ شهور قلائل فقط
تعيش حياتها الخاصة فى البلدة يحوطها اصدقاء يحبونها ويحتاجون
الى وجودها بينهم ! .. عندئذ أجهشت بالبكاء طويلا رثاء لنفسها
... ودام بكائها حتى عجزت عن مواصلة المشى ، فقفلت عائدة
الى البيت خائفة متعثرة ، وارتمت فى الفراش مضطعدة
مهزومة ...

ولقد دام هذا التأزم بينهما اسبوعا لا يطاق ، الى أن نزل المطر
اخيرا ، وغدا الهواء رطبا مريحا للاعصاب .. اما هو فلم يعتذر
... كل ما هناك أنهما لم يذكرا الحادث ببساطة ، بل تجاهالاه
تماما .. وتركوا الخصام والشحناء خلفهما ، ومضيا فى حياتهما
وكانه لم يحدث ...

بيد انه غيرهما كليهما ... فعلى الرغم من ان ثقته بنفسه لم
تدم طويلا ، وعاد سريعا الى اعتماده السالف عليها ، وغدا صوته
مشوبا برنة اعتذار يسيرة - فقد تلبث فى داخله شعور بالاستياء
منها .. واما هى فقد كان عليها أن تكتم نفورها منه بسبب معاملته
الاخيرة لها ، من أجل حياتهما المشتركة ، وأن لم يكن هذا الكتمان
هينا عندها ..

وحوالى نهاية هذا الاسبوع جاءت رسالة من مسنر سلاتر تدعوها
معا لتمضية السهرة عندها وزوجها .. وفى الحق أن ديك كره
الذهاب ، لانه كان منصرفا عن حياة المرح والسمر ، وكان يستشعر
الخرج فى المجتمعات .. غير انه اراد قبول الدعوة من أجل ماري ،
وان رفضت هى أيضا ... وهكذا سقطت رسالة شكر واعتذار
منمقة ...

كانت مسنر سلاتر قد وجهت دعوتها بدافع من صداقة
حقيقية ، الا كانت لاتزال آسفة لحال ماري ، على الرغم من جفاء

أسلوبها واعتدادها القريب . . . بيد أن الرد ساءها . . . فان هذا المسلك لا يتفق مع أسلوب السماحة السائد في الاقليم ، ولذلك قدمت الرد الى زوجها ، وقد رفعت حاجبها دون أن تقول شيئاً . .

فقال لها تشارلى سلاتر :

— دعيها . . انها سوف تنزل من عليائها . . عيبها ان رأسها ملئء بالافكار السقيمة . . وستعود الى التعقل عاجلاً او آجلاً . . وليس معنى هذا أن خسارتنا فيها كبيرة . . ان الاثنين في حاجة الى من يردهما الى الصواب . . ان تيرنر سوف يتعرض للمتاعب . . هل رأيت كيف يهتم بزراعة الاشجار ويبدد المال في حين انه غارق في الديون؟! . .

ان مزرعة سلاتر لم تعد بها اشجار . . فهي في قاموس الزراعة مجلبة للخسارة لما يتخللها من مساحات كبيرة من التربة الخصبة تتعرض للبوار بقلّة الاستخدام الامثل . . أما سلاتر فيعرف كيف يجمع المال ، وهذا هو لب الموضوع . . لقد اسخطه ان جمع المال مسألة يسيرة ، في حين أن ذلك الاحق المافون ديك تيرنر يسئ الى نفسه بزراعة الاشجار . . وبدافع من الطيبة القلبية المشوبة بالحنق قصد بسيارته ذات صباح لرؤية ديك ، متجنباً بيته « لانه لم يرد ان يلتقى بتلك البلهاء ماري » مفضلاً لقاءه في المزرعة . . وقد امضى ثلاث ساعات محاولاً اقناع ديك بزراعة التبغ بدلاً من الاذرة وغيرها من المحاصيل الصغيرة « كالفول والقطن ومايماثلهما مما يحبه ديك . . غير ان ديك رفض باصرار الاستماع الى تشارلى . . وقال انه يحب محاصيله ، ويجب ان يجعل « بيضه في سلال متعددة » . . ثم ان التبغ محصول غير انساني . . انه ليس من الزراعة في شيء ، وهو اقرب الى توابع الصناعة ، ويحتاج الى حظائر متدرجة والقيام ليلاً لمراقبة درجات حرارة الحظائر . .

ولكن تشارلى فاجأه بهذا السؤال ، محدقاً فيه بتركيز :

— وماذا أنت فاعل عندما تبدأ اسرتك في التكاثر؟! . .

فأجاب ديك بعناد :

— سأخرج من الورطة بطريقتي الخاصة . .

فقال تشارلى :

— انت مغفل ..! مغفل ..! لا تقل فيما بعد اننى لم ابصرك ..
لا تحضر عندئذ للاقتراض عندما ينتفخ بطن زوجتك وتحتاج
الى المال ..

فرد ديك بكبرياء وقد ساءه هذا التعريض :

— اننى لم اطلب منك ابدا اى شىء ..!

وسادتهما لحظة مشوبة بالكراهية .. ولكنهما برغم ذلك كانا
يحترمان بعضهما بصورة أو بأخرى ، مهما يكن من اختلاف طبائعهما
— ولعل ذلك لانهما يتشاطران نفس الحياة ... وفى النهاية
افترقا فى مودة ووثام ، وان كان ديك عاجزا عن مجاراة تشارلى
فى مرونته وطبعه المرح ...

وبعد انصراف تشارلى عاد ديك الى بيته وهو نهب للقلق
والبلبله ...

ان الجهد العصبى والقلق كانا ينفذان دائما الى معدته ، حتى
لقد انتابه الفئيان .. بيد انه أخفى عن ماري مابه ، بسبب مبعث
هذا القلق .. ان الاطفال هم مايريده الان بعد ان أسفر زواجه عن
فشل وبدا انه يستحيل اصلاحه .. ان انجاب الاطفال يمكن ان
يقرب مابينهما ويكسر ذلك الحاجز غير المنظور القائم بينه وبين ماري
... لكنهما ببساطة لايحتملان انجاب اطفال ... وعندما قال لماري
« ظنا منه بأنها قد تكون مشتاقة اليهم » انه يتعين عليهما الانتظار ،
بادرت الى الموافقة فى ارتياح ظاهر .. ان تلك النظرة لم تنبه
بحال .. ومع ذلك فعندما تيسر أمورهما وتحل مشاكلهما ، فقد
تسر بانجاب الاطفال ...

وهكذا استجمع قواه للعمل بكل جد ودأب ، حتى تتحسن الاحوال
ويغدو انجاب الاطفال ممكنا .. فكان يخطط ويدبر ويعلم طوال
النهار وهو قائم فى أرضه يشرف على السمال ويستعشهم .. وفى
غضون ذلك لم تتحسن الأمور فى البيت .. فان ماري لم تستطع
أن تتجاوب مع الخدم من الاهالى ، وكان ذلك أمرا مقضيا .. ولم
يجد أمامه الا ان يتقبل الواقع .. فهذا هو طبعها ، ولا قبل له
بتغييره .. كان الطاهى اذا التحق بالعمل فى البيت لايبقى اكثر من

شهر ، وفى خلال هذه الفترة تكثر المشاحنات وثوران الاعصاب ..
وكان ديك يقابل هذا بكظم الفيظ وتوطين النفس على الاحتمال
والصبر ، شاعرا على نحو ما أن الذنب ذنبه بسبب مآتانيه فى
حياتها من المتاعب والمشاق .. ولكنه لا يلبث أحيانا أن يندفع الى
خارج البيت منعقد اللسان سخطا .. الا لو امكن فقط أن يكون فى
حياتها شيء يملأ فراغها ؟ .. تلك هى المشكلة حقا ..

الفصل السادس

عشرت ماري مصادفة على نشرات لتربية النحل في المتجر عند رحلتها مع ديك الى البلدة ذات يوم واخذتها معها الى البيت ... وكانت هذه الصدفة هي التي هيات لها أن تنفذ الى اخلاق ديك ونفسيته الحقيقية - وذلك الى جانب كلمات قلائل سمعتها عفواً في نفس اليوم في تلك الرحلة التي كانت تتم مرة كل شهر بالسيارة للتزود بالموءن ..

وبعد ان استكملت ماري مطالبها ونقلت الموءن الى السيارة ، وقفت في الشرفة المستطيلة تنتظر فراغ ديك من مهمته .. وعند خروجه استوقفه رجل لا تعرفه ماري وابتدره قائلاً :
- خيراً يا صاحبي !.. هل غمرت المياه مزرعتك مرة أخرى هذا الفصل أيضاً ؟!

تلفت ماري بحدة نحو المتكلم .. ولو حدث هذا قبل سنوات قلائل لما فطنت الى رنة الاحتقار والتحدى التي شابت لهجته ..
اما ديك فقد ابتسم قائلاً :
- ان الامطار كانت طبيعية هذه السنة .. وليست الاحوال سيئة ...

- يعني ان حظك تحسن ؟!
- هذا ما يظهر ..
وتقدم ديك نحوها ولكن ابتسامته اختفت وتوترت ملامح وجهه ... فقالت له :
- من هذا ؟!
- اننى اقترضت منه مائتى جنيه منذ ثلاث سنوات ، بعد زواجنا مباشرة ..

- لم تقل لي هذا !..
- لم أرد ان اشغل بالك ...
وبعد برهة قالت له :
- هل رددت له المبلغ ؟!

— كله ماعدا خمسين جنيها ..

فقلت له برفق :

ك في الفصل القادم اذن ؟ ..

— مع شيء من الحظ ..

قال هذا وقد لاحظت على وجهه تلك البسمة الفاترة الغريبة التي تنم عن التأثم والانكسار والتي كانت تمقتها منه ..

وبعد ان جمعا الرسائل الواردة اليهما بالبريد عادا الى السيارة صامتين واجتازا خطوط السكة الحديدية في طريقهما الى البيت . وكانت ماري ممسكة بنشرات تربية النحل ، ولكن عندما تصفحتها لم تجدها وافية بالغرض الذي كانت تهدف اليه ، وهو العمل على اكتساب نقود اضافية كمصاريف جيب لها ، اذ كانت ارشادات النشرة تنطبق على الاجواء في انجلترا .. وهكذا استخدمتها الان كمروحة تطرد بها الذباب الذي كان يطن حول رأسها ملازما لهما من قسم اللحوم بالمتجر ..

انها لم تفتأ تفكر قلقة في نبرات الاحتقار التي شابت كلمات ذلك الرجل .. انها لم تكن مجرد احتقار ، بل كانت اقرب الى التفكه والسخرية .. والواقع ان مسلكها هي حيال ديك كان هو الاحتقار أساسا ، ولكن الاحتقار له كرجل .. كرجل لم تحفل هي به ، وقد تركته خارج دائرة حسابها من هذه الناحية تماما .. اما كمزارع فكانت تحترمه .. كانت تحترم تفانيه ودأبه الشديدين في العمل .. وكانت تؤمن انه يمر بمرحلة لا بد منها قبل الوصول الى المدى الذي يحقق الوفرة التي ينعم بها اكثر المزارعين .. كان احساسها نحوه ، فيما يتعلق بالعمل ، هو الاعجاب ، بل والمودة ..

وعلى اثر عودتهما الى البيت طوخت ماري بالنشرة الى المائدة وعكفت على فض لفائف المؤن .. وعندما عادت وجدت ديك مستغرقا في قراءة النشرة حتى انه لم يشعر بها حين خاطبته .. لقد اعتادت منه قبل هذا الاستغراق ، خصوصا عندما يفكر في شئون المزرعة ، فكانت لا تلح عليه بالكلام في مثل هذه المناسبات ..

وبعد تناولهما طعام العشاء لم يذهب ديك الى الفراش حوالى الساعة الثامنة كمادته ، بل بقي جالسا الى المائدة تحت مصباح البرافين الفاتح الرائحة ، واخذ يدون بعض الحسابات في ورقة بين يديه ... فجلست تراقبه وقد شبكت يديها .. كانت هذه

جنستها التقليدية الهادئة ، وكأنما تنتظر شيئاً يحفزها إلى الحركة ... وبعد ساعة أو نحوها دفع الورقة أمامه ورفع بنطلونه بحركة شبه صبيانية لم تعهدها من قبل ، وقال لها :

— مارأيك في تربية النحل يامارى ؟..

— أنا لا أعرف شيئاً عن النحل .. انها ليست فكرة رديئة ..

— سأذهب غداً لمقابلة تشارلى .. ان صهره كان يربى النحل فى الترانسفال ، كما قال لى ذلك مرة

قال ديك هذا بنشاط جديد ، وبدأ كأنما استمد حياة جديدة .. فقالت ماري وهى تقلب النشرة المطبوعة بلهجة التشكك وقد بدت لها أساساً واهياً لمثل هذا التغيير ، حتى ولو كان لمجرد اشباع هواية فى تربية النحل !

— لكن هذا الكتيب من أجل أجواء انجلترا ..

ولكن ديك قصد بسيارته فى اليوم التالى بعد الافطار لمقابلة تشارلى سلاتر .. ولما رجع كان مقطب الوجه بآدى التصميم ولكنه كان يصفر فى مرح .. فتضايقت ماري من هذا الاسلوب وسألته :

— ماذا قال لك ؟..

— انه استخف بالعملية كلها .. لكن اذا كان صهره قد فشل ، فلا سبب يدعو إلى الاعتقاد بأننى سوف أفشل مثله .. وقصد إلى المزرعة متجهاً بالفريزة إلى منطقة الاشجار .. كانت مساحة مائة فدان من أجود التربة فى مزرعته .. مزروعة بأشجار الصمغ الفضة منذ حوالي سنتين .. أن هذه المساحة كانت سبباً لفيظ تشارلى سلاتر وضيقه — ربما لعجزه عن ايجاد مثلهما فى مزرعته ..

كانت هذه المساحة هى المنطقة المفضلة من المزرعة عند ديك .. وكثيراً ما كان يقصد إليها كلما تضايق من شيء أو تشاجر مع ماري أو أراد ان يفكر فى شيء تفكيراً هادئاً — فكان يقف مرسلاً نظره إلى الاشجار ، أو يتمشى الهويناً بين صفوفها الطويلة وأغصانها تهتز وتتمايل بأوراقها الصغيرة المصقولة كقطع النقود .. وعندما تذكر فى النهاية انه يذهب إلى المزرعة طوال نهاره لتفقد المحاصيل الحقلية بسبب انشغاله بمسألة تربية النحل ، لم يتمالك أن تنهد واتجه إلى حقول المحاصيل لتفقد العمل والعمال .. وفى موعد الغداء لم ينبس بأى كلام .. كانت مسألة النحل

قد استحوذت على كل تفكيره .. وأخيرا شرح لمارى المشككة انه يمكنه حسب تقديره أن يكسب أكثر من مائتى جنيه فى السنة بتربية النحل .. فكان هذا الكلام صدفة لمارى التى تصورت انه يفكر فى بضع خلايا للنحل كهواية مربحة .. لكن المناقشة معه كانت بلا جدوى لما آنسته من اصراره .. ثم ما الذى كانت تستطيعه وهى التى لم تكن لها خبرة فى هذا المجال ؟..

وقد أمضى ديك أكثر من شهر وهو يعد العدة لتنفيذ مشروعه ، فابتنى بنفسه عشرين خلية نحل ، وزرع عين كشب من مكانها فدانا من نوع خاص من الحشائش .. واستخلص بعض عماله الزراعيين بعيدا عن عملهم المعتاد واطلقهم بين المروج للبحث عن اسراب النحل وكان يمضى ساعات كل مساء فى وقت الشفق الذهبى يدوخ جماعات النحل بالدخان فى محاولة لاقتناص ملكة نحل ، بعد أن قيل له ان هذه هى الطريقة الصحيحة لهذا الغرض .. غير ان النحل كان يموت بأعداد كبيرة دون أن يعثر على اية ملكات .. وعمد بعد ذلك الى اقامة خلاياه فى اماكن متفرقة من المروج كانت تغشاها اسراب النحل ، مؤملا استدواجها بذلك .. ولكن مامن نحلة واحدة اقتربت من خلاياه ، ربما لانها من النحل الافريقى ، ولا تحب الخلايا المعدة على النمط الانجليزى .. من يدرى ؟ .. والمؤكد ان ديك ماكان ليدرى .. وأخيرا هبط سرب من النحل فى احدى الخلايا ... ثم حدث أن تلقى ديك لدغة شديدة ، وبدا كأن السم طرد هواية النحل من كيانه .. فقد رأت ماري وهى فى دهشة بل فى غضب ان الاستفراق قد زال من وجهه ، اذ انفق الاسابيع من وقته والكثير من نقوده فى هذه العطية دون طائل .. ولقد ارتاحت ماري فى النهاية وتنفست الصعداء اذ رآته يعود الى عمله الطبيعى ويفكر فى محاصيله ومزرعته من جديد .. كان فى الحق كمن أصيب بجنون عارض ، ثم برىء من لوثته ..

لكن لم تمض ستة اشهر حتى عادت المسألة سيرتها الاولى .. وحتى وقتها لم تستطع ماري ان تصدق ماحدث عندما رآته منكفئا على مجلة زراعية تضمنت بصفة خاصة مقالا عن ربحية الخنازير واذا سمعته يقول : « ماري .. سأشتري بعض الخنازير من تشارلى »

فردت عليه بحدة :

— ارجو الا يكون فى نيتك ان تبدأ الحكاية من جديد ؟ ..
— ابدأ ماذا من جديد ؟ ..
— انت تعرف تماماً ما أقصد .. بناء قصور فى الهواء لجمع المال ! .. لماذا لا تترك بمزرعتك ؟ ..
— ان تربية الخنازير من اشغال المزارع .. وتشارلى يكسب الكثير من خنازيره ...

ثم أخذ يصفر وهو يخرج الى الشرفة لتحاشى نظرات الاتهام والغضب من عينيها ، حتى لقد شعرت بأنها تريد ان تبكى .. لكن علام البكاء ؟ .. فقد يربح مالا من تربية الخنازير .. فهناك أناس فعلوا هذا .. لكنها عقدت آمالها على نهاية الموسم الزراعى ، عندما يقدران مكسبهما بالضبط وقتها .. فقد لا يكون الموقف سيئاً اذ ذاك ، نظراً لان بؤادر الموسم كانت مواتية ، وكانت الامطار محالفة لديك ..

وهكذا اقام ديك زرائب الخنازير خلف البيت فى المنطقة التى تحفها الصخور توفيراً للنفقات ..
ولما قالت له ماري :
— ان تكون الحرارة هنا شديدة ؟ ..
رد عليها قائلاً :

— لن تكون شديدة .. ثم اننى سأقيم عوازل ضد حرارة الشمس ..
— لكن يبدو ان الحرارة تتبع من طبيعة الارض الصخرية ذاتها ! ..

— بحسن يامارى .. من السهل جداً ان ينتقد الانسان أى شئ ...
... اننى وفرت بهذه الطريقة تقوداً كثيرة فى بناء زرائب خاصة ...
... لم يكن من السهل انفاق خمسين جنيهاً فى شراء اسمنت وطوب لبناء زرائب خاصة ..
فسارعت ماري تقول تجنباً لاغضابه ..
— انا لا انتقد فى الواقع ..

واشتري ديك ستة خنازير غالية من تشارلى سلاتر ووضعها فى الزريبة الصخرية .. لكن الخنازير تحتاج الى القوت كغيرها ، ولكن هذه العملية مكلفة اذا كان الطعام يشتري خصيصاً لهذا الغرض ؟ .. فهذه التفكير الى تخصيص كل ناتج الالبان من ابقاره

باستثناء جزء يسير للبيت ، وتخثير هذا اللبن بتركه مدة في المطبخ وتقديمه طعاما للخنازير .. وقد اشرفت ماري على هذه العملية التي ادت الى تكاثر الذباب حول اللبن وانبعاث روائح الحموضة في أرجاء البيت ..

وكانت المشكلة التالية هي تربية الخنازير الصغيرة بعد ولادتها ونموها وتدبير وسائل نقلها وبيعها في السوق .. غير ان هذه المشاكل سرعان ما وجدت حلها .. فقد كانت الخنازير الصغيرة لا تلبث ان تموت عقب ولادتها .. وقال ديك في هذا ان المرض قد تفشى في الخنازير الصغيرة وان هذا من سوء حظه ، ولكن ماري قالت بجفاء انها كرهت ان تشوى قبل اوانها « مشيرة الى شدة حرارة الزرائب التي لم تحملها الخنازير المولودة » ، فشكرها ديك لهذه النكتة اللاذعة ، التي اتاحت مع ذلك الضحك في موقف متأزم ! ..

ثم لاحظت ماري ذات يوم بعد اشهر قلائل من بيع الخنازير والتخلص منها ان ديك وقف في الشرفة يرسل النظر الى المروج مستغرقا في التفكير ، على تلك الصورة التي عهدتها منه كلما فكر في مشروع جديد ، والتي كانت تملأ نفسها غما .. وفعل لم يطل به الوقت حتى التفت اليها متحديا ، وقال انه يفكر في تربية الديوك الرومية لانها ستكون قطعاً عملية مربحة ..

وقبل ان تعرب ماري عن رأيها بالاستنكار او الموافقة ، راح يقول لها في معرض الدفاع عن نفسه ضد اتهامات لم تقلها ، انه لم يخسر في تربية الخنازير الا القليل « ناسيا تكاليف مشروع تربية النحل الفاشل » .. غير ان ماري اطبقت فمها واشياحت بنظرها عنه ، معتزمة عدم استفزازه الى مزيد من الخصام والجدل الذي لا طائل من ورائه ...

وبدأت ترى ديك خلال الاسابيع القلائل التي شهدت « لوثة » تربية الديوك الرومية أكثر مما كانت تراه منذ زواجهما ، او حتى فيما بعد ذلك .. فقد اصبح لا يكاد يذهب الى المزرعة ، وانما كان يمضي أيامه في الاشراف على بناء بيوت الديوك وتسوير البقعة بالاسلاك الضيقة العيون .. وأعقب ذلك بشراء الديوك ذاتها وملحقاتها من الحضانات والموازين وماليها من اللوازم .. ولكنه لم يلبث حتى قبل ان تبدأ عملية فقس البيض ان قال لها

ذات يوم أنه يفكر في استخدام هذه الحظائر لا للديوك ، ولكن للارانب .. فالارانب يمكن اطعامها بحفنات من الاعشاب ، وهى تتكاثر مثل - مثل الارانب ! .. صحيح ان الناس لا يتلذذون كثيرا بلحم الارانب ، ولكن سوف يستطيعونها مع الوقت .. ولو أمكنهم بيع الارانب بخمسة شلنات للواحد ، ففي تقديره أنه يمكن ربح خمسين او ستين جنيها كل شهر .. ثم أنه اذا نجح مشروع الارانب ، فيمكن اقتناء سلالة خاصة من ارانب انجورا ، اذ سسمع ان فراء هذا النوع يباع بستة شلنات للرطل ...

عند هذا الحد لم تستطع ماري أن تسيطر على أعصابها ، فنفجر غضبها المكظوم في ثورة عارمة ومجابهة عاصفة حتى لم تتمالك من التشنج والبكاء ، وانهارت جالسة على طرف الأريكة تلتقط أنفاسها المحتبسة ..

أما هو فقد راح ينظر اليها طويلا وهى تنتحب ، وفي النهاية قال لها ساخرا -

- امرك يا « ريسة » ! ..

لم تسترح ماري الى هذه اللهجة ، اذ ان عبارته الساخرة ابانت الكثير عن طبيعة زواجهما بما في كل تصوراتها .. ولم يكن من اللائق ان يؤدي احتقارها له واستخفافها به الى حد التعبير عن ذلك بمثل هذه الكلمات ..

لكن لم يدر بعد ذلك أى نقاش عن الارانب او الديوك الرومية .. فقد تولت هى بيع الديوك وملأت الحظائر بصغار الدجاج ، وقالت انها فعلت هذا لتدبير نقود لشراء بعض الملابس لها ، فهل يتوقع منها ان تتنقل بملابس كالخرق ؟ ..

لم يرد بشيء على هذا التحدى .. وقد خلت لهجته من الاعتذار او الدفاع عندما قرر لها أنه ينوى انشاء متجر للعمال والاهالي في مزرعته .. وقال في معرض الشرح والبيان ان المتاجر الصغيرة المخصصة لهذا الغرض تجلب ربحا وفيرا .. ان ثشارلى سلاتر لديه متجر من هذا النوع في مزرعته ، وكثير من اصحاب المزارع لديهم مثلها ...

قالت له ماري بهتوء :

- اذا كان سلاتر عنده متجر في مزرعته ، وهى لا تبعد عن هنا اكثر من خمسة أميال ، فلا معنى لايجاد متجر عندنا ! ..

— عندى هنا ما لا يقل عن مائة عامل دائما ..
— اذا كانوا ينالون خمسة عشر شلنا فى الشهر ، فلا يمكن ان
تصبح مثل المليونير روكفلر بما ينفقونه ! ..
فرد بعناد قائلا :

— هناك الكثير من الاهالى يعرون بالمنطقة ..
وتقدم بطلب ترخيص تجارى فمنح له دون صعوبة .. وابتنى
على الاثر متجرا .. وقد بدا ذلك فى نظر ماري نذير شؤم : حين
قدرت ان المتجر القديم المنحوس فى عهد طفولتها اخذ يلاحقها الان
حتى فى عقر دارها ! ..

غير ان هذا المتجر اقيم على بعد بضعة مئات الياردات من البيت ،
وتألف من غرفة صغيرة يتصدرها « كاونتر » ، وغرفة اكبر الى
الخلف لتخزين البضاعة ..

وتولت ماري مساعدة ديك فى ترتيب السلع وهى مغمومة منقبضة
كارهة للمس السلع الرخيصة وروائح بعض المواد الكيماوية المتداولة
... وعلقا معا الحلى الزجاجية والنحاسية بينما كانت ماري تبسم
ابتسامة مبتسرة ، بسبب ذكريات طفولتها ، عندما كانت بهجتها
الكبرى ان تراقب العقود البراقة تهتز وتتأرجح .. وقد تراءى لها
ان هاتين الغرفتين لو اضيفتا الى البيت ذاته لجعلت حياتهما
ايسر واهنا ، وان التكاليف التى انفقت على هذا المتجر وعلى حظائر
الديوك الرومية والخنازير وخلايا النحل كانت كافية لبناء سقف
للبيت ودفع غائلة الحرارة القائظة فى الصيف القادم .. لكن ما فائدة
الكلام فى هذا كله ؟ .. لقد شعرت انها لو استسلمت للبكاء لذابت
وتحللت .. هكذا لم تفه بكلمة واحدة ، ومضت تساعد ديك فى
العملية الى ان تمت ..

وعندما تم تجهيز المتجر وامتلا حتى سقفه بالسلع التى يقبل عليها
الاهالى ، كان سرور ديك بالغا الى حد انه ذهب الى المحطة
واشترى عشرين دراجة من النوع الرخيص .. وقال فى هذا ان
عماله كانوا يطلبون دائما « سلفيات » لشراء دراجات لهم ، فهم
يستطيعون الان شراءها منه ..

ثم عرضت مسألة من يدبر المتجر .. وقد قال انه بعد نجاح
المشروع يمكن استخدام بائع لهذا الغرض .. فلم تتمالك ماري
ان اغمضت عينيها متنهدة .. لقد رآه يفكر فى هذا حتى قبل

ان يبدأ المتجر في العمل ، ومثل هذا البائع سيتقاضى ما لا يقل
عن ثلاثين جنيها في الشهر ! ..

وعندئذ فاجأها بأن تتولى هي مباشرة العمل في المتجر الى حين
وعلى أى حال فليس لديها ماتفعله في الوقت الحالي ... وقد
اصطبغت كلماته الاخيرة بخشونة غدت الآن طابعه المعتاد في
مخاطبتها ...

وعندئذ ردت ماري بحدة قائلة انها تفضل الموت على أن تطأ
قدمها هذا المكان ... فرد عليها ديك قائلا :

— ان هذا لن يضرک في شيء ... هل أنت اكبر من الوقوف
خلف « الكاونتر » إذن ؟ ..

لكن هذا لم يكن احساسها الحقيقي .. فلم يكن بوسعها أن
تشرح لديك كيف ان روائع مثل هذا المتجر كانت تبتعث في نفسها
ذكريات طفولتها الاليمة ، عندما كانت تقف في المتجر القديم تصعد
نظرها بخوف في زجاجات الخمر المصفوفة فوق الارفف ، متسائلة
أيتها ينوي أبوها أن يحملها معه الى البيت ليلتها ، وعندما كانت
أمها تفتش جيوبه وهو يقف في نوم عميق منخمورا لاخذ مابقى فيها
من نقود معدودة ، وعندما كانت أمها ترسلها في اليوم التالي لشراء
طعام يضاف ثمنه الى حساب آخر الشهر .. لم يكن بوسعها
أن تشرح هذه الاشياء لديك ، لانه اصبح الآن في نظرها تجسيدا
لهذا الماضى الاليم ، ولان أى نقاش جديد معه كان بغير جدوى ،
وهكذا وافقت في النهاية على أن تباشر شئون المتجر ، إذ لم يكن
بوسعها أن تفعل غير هذا ..

وذاذات يوم قالت لديك بعد أن نفذ صبرها من هذا العمل الذي
لم تعهده في حياتها :

— هل كتب على أن اقف في متجرك هذا ساعات لمجرد ان تأتي
امراة من الاهالي وتنفق ستة بنسات لشراء عقد من الزجاج ؟ ..
فرد عليها بلهجة عدم الاكتراث القاسية التي دأب عليها اخيرا ،
ودون أن ينظر اليها :

— هذا عمل يسد فراغ وقتك ! ..

ان عملية المتجر هذه هي التي جعلت ماري تشعر بأن النهاية
باتت قريبة ، وأن عليها أن تتخلص من هذا الوضع على أية صورة
... لكن كيف السبيل الى الخلاص ؟ ..

في تلك الايام اعتادت ماري أن تمضي فترة بعد الظهر نائمة ،

لكى يساعدها النوم على تمضية الوقت .. وفى الفترة الباقية على عودة ديك من المزرعة كانت تظل فى الفراش مخلدة الى التأمل والتفكير .. وفى تأملاتها كانت تسرح بفكرها الى تلك الايام الخوالى الجميلة حينما كانت تعمل فى المكتب وتعيش كما يحلو لها قبل ان يدفعها كلام الناس الى الزواج .. وكان يسوقها التفكير الى احوال ديك المالية وتساءل نفسها متى ياترى يتيسر له من المال ما يمكنهما من العيش فى المدن من جديد ، وان كانت موقنة فى قرارة نفسها ان هذا المال لن يتيسر له أبدا ...

وعندئذ طرأت فى ذهنها فكرة انه ليس ثمة ما يمنع من هروبها والعودة الى حياتها القديمة .. وعند هذا الحد اوقفتها ذكرى أصدقائها .. ماذا يقولون عندما يعرفون انها فصمت زواجها على هذه الصورة ؟ .. لقد شعرت بالحرج والتأذى لمواجهةهم من جديد ، بسجلها الفاشل .. فقد كانت لاتزال يطاردها قولهم عنها بأنها « ليست من هذا النوع » ... ان هذه العبارة لصقت بعقلها ، ومازال جرحها حيا لا ينطفأ ..

بيد أن رغبته فى الهروب من تعاستها غدت فوق كل احتمال ، الى حد انها طردت من ذهنها كل تفكير فى أصدقائها .. وصارت لا تفكر الان فى شيء سوى الافلات ، واستئناف حياتها الماضية .. حياة جديدة ليس فيها ديك ولا مزرعته وكل ما يرتبط بهما .. فهذا كله لا يمت لها بصلة ، وهو بعيد عن الحقيقة والواقع .. ومن البشاعة ان هذا كله قد فرض عليها فرضا ! ..

وشيئا فشيئا ، على مدار الأسابيع ، اقنعت نفسها بأن كل مايعوزها هو الوصول الى القطار والعودة الى البلدة والى تلك الحياة البديعة الهادئة ..

و ذات يوم ، عندما عاد الخادم من المحطة بحمله الثقيل من التموين والبريد ، أخذت الجريدة الاسبوعية وجعلت تتصفحها كالعادة لتطلع على اخبار المواليد والزيجات وهو ما كانت تفضله دون سواه ، فاسترعى نظرها اعلان صادر من الشركة التى كانت تعمل فيها طوال المدة الماضية ، عن طلب موظفة تجيد الاختزال والكتابة على الآلة الكاتبة .. فكان هذا الاعلان ملها لمشاعرها ، حتى لقد ظلت اكثر ليلتها ساهرة ساهدة ، مركزة جماع تفكيرها فى هذا المستقبل المهد على هذا النحو ، الذى هو ايضا حياتها الماضية . وهكذا ، ما ان مضى ديك فى الصباح الى مزرعته حتى ارتدت

ملابسها وحزمت حقيبة حاجياتها ، وتركت له رسالة قالت فيها ببساطة انها عائدة الى عملها القديم تماما كما لو أن ديك كان يعرف تفكيرها سلفا ويوافق على قرارها ...

وقطعت مسافة الخمسة أميال بين بيتها ومزرعة سلاتر في ساعة ... وكانت تجرى نصف المسافة ، وحقيبة ملابسها الثقيلة تهتز مرتطمة بساقيها ، وحذاؤها يمتلئ بالأتربة الخشنة ، حتى كانت تتعثر أحيانا في نتوءات الطريق الحادة ..

وقد وجدت تشارلى سلاتر واقفا عند حدود المزرعتين وهو لا يفعل شيئا في الظاهر .. كان يرسل نظره في الطريق الذى قدمت فيه ، مغمغما في حلقه وقد زادت عيناه ضيقا .. وادهشها عندما توقفت أمامه أن تراه واقفا في مثل هذا التكاسل وهو الذى كان منشغلا على الدوام .. فلم تتصور أنه كان يفكر في كيف يمكنه شراء مزرعة ذلك المغفل ديك تيرنر عندما يفلس تماما .. أنه في حاجة الى منطقة مراعى إضافية لمواشيه ..

واذ تذكرت انها لم تلتق به الا مرتين او ثلاثا ، وأنه في كل مرة لم يكلف نفسه اخفاء نفوره ، فما لبثت أن تمالكت ، وحاولت أن تتكلم بتؤدة ، رغم أنها كانت متقطعة الانفاس .. وقد سألته ان كان يمكن أن يوصلها بسيارته الى المحطة في موعد تدرك فيه قطار الصباح ، اذ لا يوجد قطار آخر قبل ثلاثة أيام ، وهى في الواقع مستعجلة ...

فنظر اليها تشارلى بدهاء ، وبدا أنه يحسب ويقدر .. وفجأة قال لها ممازحا :

— أين الرجل « العجوز » ؟

فأجابت متلعثمة :

— أنه .. يعمل ..

غمغم سلاتر ، وبدا عليه الارتياح ، بيد أنه رفع حقيبتها الى سيارته التى كانت واقفة تحت شجرة ضخمة على جانب الطريق ... ثم دلف الى السيارة ، وصعدت هى الى جانبه ، وتشاغلت باقفال الباب بينما راح يحدق أمامه فى الطريق مصفرا من خلال أسنانه .. وأخيرا استقرت فى مجلسها متشبثة بحقيبتها كما لو كانت جواز سفر ..

أخيرا سألها تشارلى وقد تلفت ناظرا إليها فى دهاء :

— « العجوز » مشغول الى هذه الدرجة حتى لا يصحبك الى المحطة ؟ ..

تورد وجهها ، واومات ايجابا ، شاعرة بالتأثم ..
وادار محرك السيارة القوية التي اخذت تنهب الطريق حتى لتكاد تلامس الاشجار وتنزلق بسبب الاتربة .. وفي المحطة كان القطار واقفا يلهث وينثر المياه ، ولم يكن امامها وقت تضييعه ، فشكرت تشارلى باقتضاب ، ونسيته تماما حالما تحرك القطار ..
وعند الوصول حملت حقيبتها وسارت فى البلدة التى لم تدخلها منذ ان ارتحلت عنها بعد الزواج .. وفى المناسبات القليلة التى اضطر فيها ديك الى القيام بهذه الرحلة ، رفضت ان تصاحبه ، نفورا من تعريض نفسها لمصادفة من كانت تعرفهم ...
وشعرت بقلبها يخفق تشوفا وهى تقترب من النادى ..
كان يوما بديعا ، معطر الانسام ، موفق الازهار ، للاء الشمس ، يذكى فى النفس اسباب البهجة والانتعاش .. حتى السماء ذاتها بدت مختلفة وهى تراها من خلال الابنية المعروفة لديها ، باهرة الزرقة ، صافية الاديم .. لقد شعرت ماري من فرط بهجتها وحبورها أنها تكاد تتنكب الرصيف وتسبح فى الطرقات وهى فى اتم حالات الصفاء والسكينة .. كان هذا عالما مختلفا .. كان عالمها الخاص ! ..

وفى النادى تلقتها مشرفة جديدة ابلغتها أنهم لا يقبلون نساء متزوجات .. لقد راحت المرأة تنظر اليها باستغراب ، فكانت هذه النظرة قاضية على مشاعر السعادة التى استخفت ماري لدى دخولها .. انها نسيت تلك القاعدة الخاصة بعدم قبول النساء المتزوجات ، وان قدت لا تعد نفسها متزوجة ..
مهما يكن فقد تماكت وذهبت الى فندق حيث تولت تصفيف شعرها فى الغرفة التى اعطيت لها .. وبعد ذلك توجهت الى مكتب الشركة التى كانت تعمل فيها ..

لم يكن بين الفتيات العاملات هناك من تعرفها .. ولما ادخلت الى مكتب رئيسها القديم طالعت فى وجهه تلك النظرة التى وجدتها فى وجه مشرفة النادى .. جعل يتفرس فيها طويلا وانتقل نظره الى حذاءها الذى كان لا يزال معفرا بالغبار الاحمر ، لانها نسيت ان تنظفه .. وقد ابدى لها الاسف قائلا ان الوظيفة شغلت فعلا ...

سادت لحظة صمت طويلة ، فيما رأت ماري أن احلامها طيلة الاسابيع الاخيرة قد تبددت ..

ولما رجعت الى غرفتها في الفندق راحت تنظر الى نفسها في المرآة .. كان فستانها من القطن الباهت ، وبدا لها بالمقارنة بملابس الفتيات في مكتب الشركة زيا عتيقا ، وان كان نظيفا - اما بشرتها فقد أصبحت مفضنة ضاربة الى السمرة ..

فجأة خامرها الغضب والكراهية ضد رئيس المكتب ، وضد مشرفة النادي ، وضد الناس جميعا .. لقد تلقوها بالاستغراب والاستنكار بسبب هياتها البادية .. لكن ما الذي كانوا يتوقعونه بعد كل ما استهدفت له من المصاعب والصدمات وخيبة الامل ؟ ..

ولقد بدا لها أن تذهب الى صالون للتجميل حتى يتسنى على الاقل أن تعيد مظهرها الى الحالة الطبيعية .. بيد أنها تذكرت أنها لا تملك نقودا كافية ، اذ كان ما معها لا يزيد على نصف جنيه وبضعة بنسات .. وهكذا لن تتمكن حتى من سداد أجر الفندق

هكذا تهالكت في مقعد قرب الحائط يائسة محسورة ، عاجزة عن كل تفكير ..

وعندما سمعت طرقا على باب الغرفة تطلعت نحوه وكأنما كانت تتوقع أن يحدث شيء ، فكان القادم هو ديك ، ولم يغير دخوله من ملامح وجهها ..

ظلا لحظة لا ينبسان بكلام .. ثم مالبت أن مد ذراعيه نحوها وقال مستعظفا :

- ماري .. لا تتركيني ! ..

تنهدت ماري ، ونهضت قائمة ، وسوت ملابسها وشعرها بحركة آلية ، وبدأ من هياتها أنها تستعد لرحلة مقررة .. وعندما رأى وقفها ولامح وجهها التي لم تنبئ عن مقاومة او كراهية ، بل مجرد استسلام - أنزل ذراعيه .. فلن يكون بينهما مشهد عاصف أخيرا .. فقد التزم التعقل بدوره .. ونظر الى نفسه في المرآة كما فعلت ماري من قبل .. أنه جاء وهو بملابس المزرعة دون أن يتوقف حتى لكي يأكل ، بعد أن قرأ رسالة ماري التي بدت وكأنها طعنة تبعث الالم والامتهان .. وكانت اكمامه مدلاة فوق ذراعين لوحتهما الشمس ، وقدماه بلا جوارب دسهما في حذاء مرتفع .. غير أنه قال لها وكأنهما جاءا معا في رحلة أنه يمكنهما

تناول الغداء فى مطعم والذهاب الى السينما ، اذا رغبت فى هذا .. وبدا لها أنه يحاول أن يجعلها تشعر كأن شيئاً لم يحدث بينهما .. ولكنها وهى تنظر اليه رأت أن هذا كان استجابة لما بدأ من قبولها للموقف ، مما حدا به الى قول ما قاله .. وعندما ألفاها تجاهد لتسوية ملابسها بصورة متخبطة قال انه يجدر بها أن تذهب لشراء بعض الملابس لها .

فردت عليه ، لأول مرة ، بلهجتها اللاذعة :
- ومن أين النقود ؟ ..

وبعد أن تناولوا الطعام فى أحد المطاعم الذى اختارته ماري خصيصاً لانه بدأ بعيداً عن الأماكن المطروقة تحاشياً لرؤية أحد من أصدقائها لها - عادا معا الى المزرعة ، وكان كل شيء كان طبيعياً ، وكان هروبها كان حدثاً صغيراً ، حدثاً يمكن نسيانه بسهولة .. بيد أنها عندما عادت الى البيت ، وألفت نفسها من جديد فى مجريات الحياة المعتادة ، وليس أمامها الآن حتى أحلام يقظة تتعلق بها وتعلل النفس بأمانيتها ، مواجهة المستقبل على علاته بحكم الأمر الواقع والضرورات القاهرة - عندها الفت نفسها مكدودة وفى تمام الأعياء .. بل بلغ من أعيائها انها أفتقدت القدرة والقابلية لعمل أى شيء .. وبدأ كأن رحلة البلدة قد استنزفت رصيدها من القوة ، ولم تترك لها سوى النذر اليسير من القدرة لعمل ما لا بد من عمله .. كانت هذه بداية تفسخ داخلى .. وقد بدأ بهذا الخور ، وكأنما أضحت لا تقوى على الأحساس أو المقاومة ..

وربما ، لو لم يحرص ديك ، لجاءت النهاية سريعة ، على هذا الوجه أو ذاك .. ربما كان يمكن أن تتوفى عاجلاً ، كما حدث لامها بعد مرض قصير ، خصوصاً لأنها فقدت الرغبة فى التعلق بالحياة ... أو ربما كانت تهرب مرة ثانية ، فى محاولة أخرى مستميتة تقوم بها هذه المرة بصورة محكمة ، وتستأنف الحياة التى هياتها لها الطبيعة بحكم تكوينها ونشأتها ، وحيدة ، ومستكفية بنفسها ... ولكن حدث ذلك التغير المفاجئ الذى بدل كل شيء تبديلاً .. فبعد أشهر قلائل من هروبها ، وبعد ست سنوات من زواجها بديك انتابه المرض لأول مرة فى حياته ..

الفصل السابع

كان الوقت شتاء ، وهو الفصل الذى تحبه ماري اذ يتيها غوائل
الحر المرهق ويبعث فيها الحيوية والنشاط .
ولم يفت ديك ان يلاحظ هذا ... لقد أصبح الان شديد
الاهتمام بها وافر الحرص على راحتها بعد هروبها ، وكانت عودتها
باعثة لامتنانه لها ومؤدية لتقربه منها .. ولو أنه كان رجلا حقودا
لعاملها بكل برود ... لكن هذا لم يدر بخلده قط ... وهكذا كان
رقيقا متسامحا . كاظما لنزوات الغضب والانفعال ، مفتبطا
لرؤيتها فى هذه الصورة الجديدة .. بل انه سألها مرة اخرى ان
تذهب معه الى المزرعة ، اذ شعر بحاجته الى الوجود قربها ،
وخوفا من ان تختفى مرة اخرى اذا غاب عنها .. والواقع انه لم
يستطع ان يتصور عودته الى البيت وهو خلو من ماري ..
بيد انها رفضت ان تساعد في شئون المزرعة .. وبدأ لها ان
من القسوة ان يقترح عليها شيئا كهذا ، لحرارة الجو في المزرعة
المنخفضة ، بالقياس الى اعتداله فوق الربوة التي قام عليها البيت
واذا كان ديك قد تقبل منها هذا الرفض محزوناً ، فقد ظل أسعد
مما كان فى الماضى ، قانعا بكونها الى الهدوء والاستقرار ...
ثم كان مرض ديك الذى غير كل شيء ..
ان ديك لم يمرض من قبل ، على الرغم من ان الاقليم موبوء
بالمالاريا وقد عاش فيه طويلا .. او لعل المالاريا كانت كامنة فى دمه
منذ سنين ولم يدر هو بهذا ؟ .. وكان دائماً يتناول أقراص الكينين
كل ليلة خلال فصل الرطوبة ، لكن ليس عندما يكون الطقس باردا .
ومهما يكن فقد رآه ماري ذات مساء عائداً من المزرعة مصفر
الوجه مرتعدا .. فأعطته كينين واسبيرين ، وبعدها ارتقى فى
الفراش دون أن يتناول عشاءه ...
وفى اليوم التالى نهض غاضباً من نفسه رافضاً التسليم بمرضه
وتوجه الى العمل كالمعتاد مرتدياً سترة جلدية لوقايته من نوبات
الارتعاش العنيفة .. ولما كانت الساعة العاشرة صباحاً عاد أدراجه
متهاكاً والعرق يتصبب على وجهه وعنقه وزحف الى الفراش

متدثرا بالاغطية وهو فى شبه غيبوبة ..
كانت نزلة حادة جدا ، ونظرا لانه لم يكن معتادا على المرض
فقد بدا مغاضبا شديد الحرد .. فبعثت مارى برسالة الى مسز
سلاتر - وان كرهت أن تطلب منها معروفا - وفى نفس اليوم
احضر تشارلى الطبيب بسيارته ...

وبعد أن تولى الطبيب فحص المريض والاشارة بالتعليمات
المعتادة ، قال لمارى ان البيت خطر بوضعه الحالى ، وانه يجب
احاطته بشبكة أسلاك ضد الملاريا .. كما اشار بضرورة قطع أشجار
الغابة المحيطة بالبيت الى مدى مائة ياردة ، وبناء سقف له ، والا
اصيب كلاهما بضربة شمس .. ثم نظر الى مارى متفحضا وابلغها
انها مصابة بأنيميا ويجدر بها ان تذهب الى المنطقة الساحلية فى
الحال لمدة ثلاثة أشهر على الاقل .. وانصرف على الاثر .. ووقفت
مارى فى الشرفة تراقب السيارة وهى تبتعد وقد ارتسمت على
وجهها ابتسامة يسيرة اليمّة .. لقد دار بخلدها وقتئذ انه ما سهل
الكلام عند أهل الطب الاغنياء .. وكرهت من هذا الطبيب هدوءه
وهو يهون من مصاعبهم ، عندما قالت له انهم لا يتحملون اجازة ،
فرد عليها بحدة : « كلام فارغ ! .. وهل تحتملون ان يداهمكم
المرض ؟ » .. بل انه سألها منذ متى لم تذهب الى المنطقة
الساحلية ! .. انها فى الواقع لم تذهب الى شواطئ البحر أبدا ..
غير ان الطبيب كان يعرف وضعهما بأكثر مما كانت تتصور ، اذ ان
فاتورة الاتعاب التى كانت تنتظرها فى جزع لم تصل .. وبعد
فترة كتبت اليه لمعرفة مقدار الاتعاب ، فجاءها الرد بهذه العبارة
« ادفعوا عندما تتحملون الدفع » .. لقد شعرت بالنعاسة
والكرامة الجريحة ، لكن لا بأس - فهى فى الواقع لم تكن لديها
نقود ...

ولم تلبث مسز سلاتر ان ارسلت اليهم كيسا مملوءا بالموالح
من مزرعة زوجها هدية لديك ، الى جانب هدايا أخرى للمساعدة
... وقد شعرت مارى بالامتنان لها لما أسدت اليهم من هذه
الناحية وهى لاتبعد عنهم بأكثر من خمسة أميال ، وان قررت الا
تزورهم الا فى حالة الطوارئ .. وكتبت الى مسز سلاتر احدى
رسائلها الجافة تعرب عن الشكر ، وازافت ان ديك يسير فى طريق
التحسن ..

لغير ان ديك كان أبعد عن هذا التحسن .. فقد ظل طريح
 الفراش عاجزاً وفي حالة أنسان في رعب من مقاساة المرض الشديد
 لأول مرة واتجه بوجهه الى الحائط ولف رأسه بغطاء ، حتى اثار
 احتقان ماري له .. بيد أنه من وقت لآخر كان يفيق ليسأل عن
 المزرعة ويبدى القلق لاختلال العمل فيها دون اشرافه المباشر ..
 وقد عكفت ماري على تحريضه كطفل مدى اسبوع في اخلاص
 ولكن بنفاد صبر بسبب خوفه على نفسه .. ثم زالت عنه الحمى ،
 واصبح ضعيفاً واهناً لا يكاد يقوى على الجلوس .. وانشأ يتقلب
 ويتململ ويتذمر ، ولا يحدث له الا عن أعمال المزرعة ..
 ورات ماري انه يريد ان تذهب الى المزرعة وتشرف على العمل
 وان لم يعرب عن هذا صراحة .. وظلت فترة لا تستجيب الى
 علائم الاستعطاف التي أنستها في وجهه المنهك المتحفز للشجار ،
 وعندما رأت انه سيتترك الفراش قبل أن يصبح في حالة تمكنه من
 السير ، قالت له أنها ستذهب ..
 كان عليها أن تتغلب على نفورها .. وحتى عندما نادى الكلبين
 ووقفت في الشرفة ومفاتيح السيارة في يدها ، لم تلبث أن عادت
 الى المطبخ لشرب كوب ماء .. وبعد ان جلست في السيارة
 واستقرت قدمها فوق المسرع ، قفزت خارجة مرة أخرى منتحلة
 حاجتها الى منديل .. وعند خروجها من غرفة النوم استرعى
 نظرها ذلك الكرواج الكبير الذي كان معلقاً فوق باب المطبخ ، من
 قبيل الزينة .. فتقدمت إليه ورفعته من مكانه ولفته حول
 معصمها ، وذهبت الى السيارة وهي أوفر ثقة بنفسها .. وبسبب
 هذا التحول فقد فتحت باب السيارة الخلفي واخرجت الكلبين ،
 اذ كانت تنفر من أنفاسهما الكريهة خلف عنقها ، وتركتهما يعويان
 بخيبة الامل خارج البيت ، واتجهت بالسيارة الى المزرعة ..
 ومن عجب أنها لم تكذ تتواجد في صميم المزرعة حيث كان العمال
 يقومون بحصد الذرة حتى زال عنها ترددتها ونفورها السالفان ،
 وشعرت بالمسئولية الجديدة التي ألقيت على عاتقها تنشطها
 وتذكى من عزيمتها .. وعلى الرغم مما أنسته من نفور العمال لوجود
 امرأة تشرف عليهم وتوجههم ، منذ استطاعت بما أبدته من حزم
 ورباطة أن تسيطر عليهم ..
 وفي خلال ذلك ظل ديك في الفراش قلقاً متبرماً مسنئاً
 من عجزه .. وهو لم يكن يجب التفكير في وجود ماري في المزرعة

طوال النهار بين العمال ، اذ لا يعد هذا عملاً مناسباً للمرأة .. بيد
انه لم يلبث ان شعر بالارتياح عندما أبلغته أن العمل يتقدم باطراد
وأنها لن تكف حتى تتم عمليات الحصاد وتخزين الذرة على الوجه
المرغوب ...

وفي نهاية الاسبوع كانت ماري هي التي جلست خلف الطاولة
الصغيرة في شرفة البيت حيث تجمع العمال في الخارج وتولت
توزيع الأجور طبقاً للنظام المقرر شهرياً ..

وتعاقبت الايام وهي تبشر شئون البيت والمزرعة بهمة لا تعرف
الكلل ، وفي كل يوم كانت تتكشف لها اشياء لم يكن لها بها عهد من
قبل .. ومن ذلك ماوقفت عليه من حقائق غريبة اثناء اطلاعها على
الدفاتر التي كان ديك يسجل فيها عملياته الزراعية وحساباته ..
وقد روعها ما اطلعت عليه من سوء الادارة وانعدام التخطيط ..
وتجلى لها ان محاولاته الفاشلة في تربية الديوك الرومية والخنازير
وما اليها لم تكن سوى هروب من الاخذ بأسباب التنظيم والتدبير ..
في كل مكان كانت تجد اعمالاً بدا بها ثم تركها دون أن تتم .. فهنا
مساحة من الارض اقتطعت منها الأشجار حتى منتصفها ، ثم تركت
لكي تعود أشجارها الى النمو من جديد .. وهناك حظيرة للابقار
اقسم نصفها من الطوب والحديد ونصفها الآخر من أخشاب الغابة
والطين .. وكانت الاراضي المزروعة رقاعاً متباينة من شتى المحاصيل
ودائماً ما كان يجني عشرين جوالاً من هذا المحصول وثلاثين جوالاً
من ذاك ، مما لا يهيء له سوى ربحية محدودة في النهاية .. وفي
المزرعة كلها لم يكن يتم عمل واحد على الوجه الاكمل المطابق للقواعد
الزراعية السليمة .. فلماذا هذا العجز والتخبط عن رؤية الحقيقة ؟
لا مفر له أن يدرك أنه لن يحقق أى تقدم وهو يسير على هذا
النهج الخاطئ ! ..

هكذا قررت ماري أن تفاتح ديك في الأمر عندما يتمثل للشفاء
تماماً ، لا قناعة بما سوف ينتهي اليه الحال حتماً اذا لم يبادر
بتغيير أساليبه في العمل .. وأن هي الايام قلائل حتى يتعافى
ويتسلم الزمام ، وعندئذ لن تدعه يستريح ويهدأ ما لم يعمل
بمشورتها ...

ولكن في اليوم الذي حددته ماري لذلك ، حدث شيء لم يكن
في حساباتها .

افى ذلك اليوم وقفت ماري تشرفت على العمال وهم يقومون بتخزين محصول الذرة فى الاجران ، عندما استرعى نظرها وقوف أحد العمال بمعزل عن زملائه خارج الصف وهو يتنفس بمشقة والعرق يلمع فوق وجهه .. فانتهرته قائلة : « عد الى عملك ! » .. فتطلع اليها بنظرة خاوية ، ثم بحركة مسترخية انزل ذراعيه المشبكين وسار مبتعداً لكي يشرب من صفيحة ماء تحت شجرة مجاورة .. فقالت له بصوت حاد : « قلت عد الى عملك ! » ..

عندئذ وقف مكانه ونظر اليها مواجهة وقال لها بلهجته المحلية التى لم تكن تفهمها :
- اريد ان اشرب ! ..

فقالت غاضبة وهى تتلفت حولها بحثاً عن رئيس العمال الذى لم يكن فى مدى النظر :

- لا تكلمنى بهذه الرطانة السخيفة ! ..

فقال الرجل بلغة انجليزية متقطعة :

- اريد ماء ... ماء ... ماء ! ..

واقبأة ابتسم وفتح قمه وادخل اصبعه فى حلقه .. فسمعت ضحكاً مكتوماً يصدر عن العمال .. فكان هذا الضحك الساذج مثيراً لحنقها .. وفتحت قمها لتأديبه ، غير انها امسكت ... وانما غاظها ان لمحت فى عينيه نظرات الاستخفاف .. واذا هى ترفع الكرباج الذى لم يكن يفارق يدها فى المزرعة بحركة لا ارادية وتهوى به على وجهه ...

انها فى الحق لم تكن تعرف ماهى افاعلة ... ووقفت مكانها جامدة ترتعد .. ولما رآته يرفع يده الى وجهه فى ذهول نظرت الى السوط فى يدها مصعوقة وكأنه تحرك من تلقاء نفسه ، ودون ارادتها .. ولمحت قطرة دم تنبثق من موضع اللطمة وتنحدر على ذقنه ثم الى صدره ...

كان زنجياً ضخماً واطول من زملائه ، وبذيع تناسق الجسم ، لا يكسوه سوى خيش عتيق مشدود حول وسطه .. وبدأ وهى واقفة مكانها ، مرتقبة ، كأنه مارد يطل عليها .. ثم انحدرت قطرة حمراء اخرى فوق صدره العريض ومنه الى وسطه .. ولم تلبث ان رآته يقوم بحركة مفاجئة جعلتها تتراجع مذعورة اذ ظنت انه يوشك ان يهجم عليها .. بيد انه لم يعد ان مسح الدم من وجهه بيده

الضخمة التي كانت تهتز قليلا .. واحسنت ان جميع العمال وقفوا من خلفها في أتم سكون وهم يراقبون هذا المشهد .. وفي صوت بدا أجش من اللهث قالت : « الان غد الى العمل » ... فنظر اليها الرجل نظرة جعلت امعاءها تمور من الخوف ، ثم تحول مبتعدا ببطء والتقط كيسا وانضم الى زملائه .. واستأنف الجميع عملهم صامتين .. أما هي فكانت ترتعد من الفزع بسبب فعلتها ، وبسبب تلك النظرة التي شاهدها في عيني الرجل ..

ولكن اليوم انقضى بسلام ، وفي المساء عادت ماري الى البيت وقد ذهب عنها الروع ، خصوصا وان مهمتها قد انتهت ، اذ ان ديك سيعود الى عمله غدا ، ويعفيها من هذه المهمة المحفوفة بالخطر ...

ومع ذلك ، ففي تلك الليلة ذاتها ، عندما فكرت ماري في الايام الخاوية التي ستتعاقب في حياتها ، خامرها الاعياء والملل .. وبدت لها المناقشات التي كانت تنوي ان تديرها مع ديك والخطط التي كانت تريد الاخذ بها لادارة المزرعة على نحو ناجح مربح بعد ممارستها للعمل واطلاعها على مجريات الامور - بدت لها تلك المهمة ثقيلة ممقوتة .. ذلك انها وجدت ديك يستعد لتولى الزمام من جديد بنفس أسلوبه السابق ، وكان اشرافها على العمل في تلك الفترة لم يكن شيئا مذكورا ...

وفي الايام القلائل التي توالى بعد ذلك كانت ماري تمضي وقتها مترددة وهي تراقب ديك عن كثب مسجلة تماثله للشفاء التام واسترداده لكامل صحته وعافيته - وعندئذ قررت ان تطرق موضوع المزرعة وتفتحه فيما كانت تنويه ...

بدأت تقول له ذات ليلة وهما جالسان تحت ضوء المصباح الحسير ان سير العمل في المزرعة بالكيفية الراهنة لن يحقق الربح المنشود ، مؤيدة كلامها بالارقام الواردة في سجلاته ... وعلى الرغم من ضيقه بانتقاداتها ، فقد كتم مشاعره ، ايمانا منه بسلامة آرائها ...

وعندما فرغت قال لها بعد صمت وهو يتنسم ابتسامة المخلول :

- حسن ... وما الذي يمكن ان تفعله ؟ ..
ان تلك الابتسامة قد زادت صلابة .. فهو قد تقبل تقدها ..

وهذه أول خطوة على طريق الفوز .. ومن ثم بدأت تشرح له تفصيلاً ما يجب أن يفعلاه ..

أقترحت عليه أن يقوموا بزراعة التبغ ... فكل الناس حولهما يزرعون التبغ ، ويجنون الأرباح الوفيرة .. فلم لا يحدوان حذوهم ؟ بهذا يمكنهما سداد ديون المزرعة ، ومفارقتها بأقرب وقت مستطاع ..

لقد ارتاع ديك لمجرد التفكير في هجر المزرعة التي أصبحت قوام حياته وملاك وجوده .. لأشياء يذكي أحاسيسه مثل زفيف رياحها وصدح أطيائها ، ولملمس ترابها ، وتقلبات أجوائها .. أن بعده عن المزرعة كفيل بأن يعجل بموته تعجلاً .. كل ما كان يبتغيه هو العمل على تحسين الأحوال في المزرعة حتى يتسنى لماري أن تنال ماتشتيه وان تعيش معه في دعة ورخاء .. وفوق هذا كله - حتى يتهيأ لهما انجاب أطفال .. أن الأطفال عنده يمثلون حاجة ملحة .. وحتى الآن في ظروفهما الراهنة ، فإنه لم يفقد الأمل في أن يجيء يوم .. لم يتمالك أن نظر إليها وهو أقرب إلى الارتياح وكأنها مخلوق عذائي لا حق له في البقاء معه وأملأ مشيئته عليه ..

بيد أنه لم يستطع أن يفكر فيها بهذا الوصف .. فقد أدرك ، عندما هربت من المزرعة في تلك المرة ، معنى وجودها في بيته ، ومبلغ قيمتها عنده .. كلا اذن ؟ .. لا بد لها أن تفهم حاجته إلى المزرعة ، وعندما تتحسن الأحوال ، يمكنهما انجاب الأطفال .. لا بد أن تعرف أن أحساسه بالهزيمة لم يكن سببه فشله كمزارع بأي حال .. فهذا الفشل ناجم عن معاداتها له كرجل ، ووجودهما معا بالوضع الذي هما عليه .. وعندما يتيسر لهما الانجاب فإن هذا القصور سيزول ، وعندئذ يعيشان في سعادة ...

بهذا جرت خواطره في فترة الصمت التي أعقبت حديث ماري ، وأن لم يبرأ بعد من أحساس الهزيمة الذي ظل يقالبه .. فإن مجرد التفكير في زراعة التبغ كان يملأ نفسه نفوراً ، أذ كانت زراعة التبغ تعني الوقوف مدى الساعات الطوال في ابنية مغلقة ذات حرارة خانقة ، والقيام من النوم ليلاً لمراقبة الترمومترات وقياس درجات الحرارة ...

وهكذا لبث فترة يعيث بالأوراق فوق الطاولة معتمداً رأسه بين كفيه وهو في كرب من أمره .. لكن لأفائدة ، وهذه ماري جالسة

فى مواجهته ، تجبره على الامتثال لارادتها ...
واخيرا رفع رأسه وتكلف ابتسامة تعسة وقال لها :
- حسن يا « ريسة » ! .. هل يمكن ان أفكر فى الامر مدى
أيام قليلة ؟ ..

بيد ان صوته كان مشوبا بالمسكنة .. وعندما قالت له باستياء
« أرجوك الا تسمينى ريسة » - لم يعقب بكلام ، وان كان الصمت
الذى ساد بينهما كان أبلغ فى البيان مما كانا خائفين ان
يقولاه ...

ولم تلبث مارى ان قطعت حبل الصمت اذ نهضت بعزم عن
الطاولة ودفعت الاوراق والدفاتر قائلة :
- انا ذاهبة للنوم ...

وتركته حيث هو ، غارقا فى أفكاره ..
وبعد ثلاثة أيام قال لها بهدوء وقد أشاح بعينه عنهما انه قد
أخذ الترتيبات اللازمة لبناء عنبرين للتبغ ...
وعندما رفع نظره اليها فى النهاية ، متحاملا على نفسه لمواجهة
انتصارها الحاسم ، رأى عينيها تلمعان بأمل جديد ، وفكر فى
توجس وقلق فيما سيعترتب على فشله هذه المرة ..

الفصل الثامن

بعد أن سلطت ماري ارادتها للتأثير على ديك ، انسحبت ، وتركته وشأنه .. وقد قام هو بعدة محاولات لاستدراجها الى عمله وذلك بطلب مشورتها ومساعدتها له في بعض المشاكل ، بيد أنها رفضت هذه الدعوات كما كانت تفعل هذا من قبل - خصوصا رقد راته يتصرف في عمله بحماقة ، مبددا ماله في غير ما هو ضروري ، ومقترا فيما له جدوى .. وكانت النتيجة أن ديك بعد هذا الانسحاب والصد ، توقف عن الرجاء والاستعطاف ، ومضى في طريقه بعناد ، شاعرا كأنما شجعتة على السباحة في مياه عميقة فوق طاقتة ، ثم تركته يتولى الموقف بجهوده الخاصة ..

ومهما يكن فإنها راحت تراقب عن كثب عملية بناء عنبرين لزراعة الدخان حتى اكتملت ، وابعثتها عملية غرس البذور انتظارا لفصل الامطار التي بدونها لا يترعرع النبات في التربة ..

ثم جاءت الامطار في موعدها ، وظلت مواتية حتى شهر ديسمبر ... وبزغ الطباقي مسويا ومخضرا يبشر بمحصول وفير .. واعتادت ماري أن تمشي في الحقول مع ديك مجرد الاستمتاع بمشهد النماء والازدهار ، والتفكير في تحول تلك الاوراق الخضراء المستعرضة الى شيك قوامه عدة ارقام ... وبعدها حل الجفاف ..

في أول الامر لم يقلق ديك ... فهو يعرف أن التبغ يستطيع مقاومة فترات الجفاف مادام النبات قد استقر في التربة ... ولكن يوما بعد يوم بدأت السحب المتراكمة تنحسر ، والارض تزيد حرارة .. وعندئذ صار ديك متوترا ساخطا ، ولزمت مساري الصمت ...

وذاث يوم هطل مطر خفيف ، ولكن في واحدة فقط من المساحتين المزروعتين بالتبغ .. ومرة أخرى بدأ الجفاف ، وتوالى الاسابيع دون أثر للمطر .. ووقفت ماري وديك في الشرفة يشاهدان السحب تمر فوق التلال ، ومطرها الرذاذ يتقدم ويتأخر فوق الغابة

ولكن مامن شيء منه كان يسقط فوق مزرعتهما ، وان كان غيرهما من الزراع قد فازوا بوابل يكفي لاتقاذ محصولهم من التبغ .. وعصر يوم هطل رذاذ حار يسير بدت قطراته متلاثة خلال اشعة الشمس ، بيد انها لم تكن كافية لترطيب الارض العطشى المتيبسة .. ولم تعد اوراق التبغ الداوية قادرة على الاستقامة . ثم أعقب ذلك شمس متوهجة ..

وقال ديك بوجه قلصه الأسى :

— يحسن .. فات الوقت على أى حال ..

بيد أنه كان يؤمل ان الحقل الذى أدركته الرحات الاولى قد ينجو .. وعندما هطلت الامطار فى النهاية كما يجب ، كان اكثر نبات التبغ قد حل به التلف ، ولم يسلم الا القليل .. هذه الصورة نقلها ديك الى ماري بهدوء وهو محزون مكروب .. ولكنها فى نفس الوقت أنست امارات الارتياح فى وجهه .. فهو قد فشل دون أن يكون له ذنب .. وما هو الا سوء حظ يمكن أن يحدث لاي أحد .. وما يكون لها ان تنحى عليه باللوم من أجل ذلك ...

وكان هذا الموضوع محل نقاش ومداومات بينهما ذات ليلة ... فقال ديك انه طلب قرضا جديدا لاتقازهما من الافلاس ، وانه فى العام القادم لن يعول على زراعة التبغ .. بل انه يفضل الا يزرعه قط ، وان كان يمكن أن يزرع بعضه اذا هى أصرت . فلو أنهما مينا بفشل آخر مثل هذه السنة فان افلاسهما مؤكدا لا ريب فيه ...

وفى محاولة أخيرة اقترحت عليه ماري ان يجرب مرة أخرى فى العام القادم ، اذا لا يمكن أن تسوء حالة الموسم فى عامين متعاقبين ... وعلى أى حال فما لزوم الاستدانة ؟ .. بالمقارنة مع غيرهما ممن يملكون الالاف ، فان دينهما لا يكاد يذكر بثباتا .. واذا لم يكن أمامهما مقر من الافلاس ، فليكن افلاسهما شاملا .. واذن فليقوما ببناء اثنى عشر عنبرا ، وليزرعا كافة الاراضى التى يتحوزانها تبغا ، وليغامرا بكل مايملكانه فى محاولة أخيرة .. ولم لا يكون هذا ؟ .. لماذا يتخرج هكذا ويراجع ضميره اذا كان غيره لايفعل ؟ .

غير انها أنست فى ملامح وجهه تلك السمات التى رأتها من قبل ، عندما توسلت اليه ان يسافرا فى اجازة لاسترداد الصحة

والعافية .. لقد تجلبى فى قسماته خوف كالح لدع اطرافها اذ قال لها فى النهاية :

— لن أزيد ديونى بنسا واحدا ما استطعت ... حتى ولا لاي انسان ..

وكانت لهجته قاطعة ، وعناده راسخا ..

شعرت ماري بتعاسة بالغة ، وأن كانت متبلدة ... الى رجاء يمكن ان تتعلق به الان ، واي مستقبل هذا الذى يمكن ان ترتقبه فى ظل هذه الظروف اليائسة ؟

اما ديك فقد ادهشه ان رأى دلائل قليلة على خيبة املها .. اذ كان يشوق ان تواجهه بثورة عارمة قوامها الغضب والدموع ... وما لبث ان اطمأن اذ قدر ان الضربة لم تكن شديدة بالغة الشدة كما كان يتوقع ..

غير ان آثار الصدمات المعنوية لا تبدى الا ببطء .. وهكذا مضت فترة طويلة قبلما تهيأ كيانها لاستيعاب الحقيقة ، وهى انه لابد ان تمضى سنوات طويلة قبل ان يتاح لهما التخلص من متاعب المزرعة ، اذا قدر ان يحدث هذا ..

ثم بدا لها على نحو مبهم ان تشغل نفسها بعمل ما ، والا اصبحت بالخبال .. وعادت الى تربية الدجاج ، والاشراف على متجر العمال ممارسة هذا وذاك من قبيل الاعتياد لا اكثر ولا اقل .. وفى خلال هذه الفترة لم تستسلم لما كان يعترىها من نوبات الغضب على الخدم ، وكأنما كانت هذه الظاهرة وليدة طاقة محتبسة ، وعندما تخمدت الطاقة لم يبق موجب للغضب والثوران ...

الى ان جاء يوم فاجأت فيه ديك بما لم يكن يتوقعه .. طالعت وقتها بهيئة غريبة ونظرات مستميتة ، وسألته ان كان من الممكن ان ينجبا طفلا ...

لقد أبهجه هذا المطلب .. وكان أسعد شيء سمعه منها .. لان المطلب صدر عنها ، بمحض اختيارها وطوعيتها ..

بدأ له انها انعطفت اليه أخيراً ، وأعربت عن انعطافها بهذه الصورة .. هكذا كان اغتباطه لا حد له ، حتى كاد ان يوافق من اقوره .. فهذا أشد ما كان يبتغيه ، اذ كان الحلم الذى طالما راوده هو ان تتحسن أحواله ذات يوم ، فيتهيأ لهما انجاب الأطفال ...

ثم مالبث ان أعترى وجهه تجمهم وقلق ، اذ قال لها :

- ماري .. كيف يمكن ان يكون لنا اطفال ؟ ..
- غيرنا لهم اطفال ، وهم فقراء ..
- لكن ياماري ، أنت لا تعرفين مدى فقرنا ..
- اعرف بالطبع .. لكن لايمكنني ان امضي في حياتي هكذا ..
لا بد لي من شيء .. ليس عندي أي شيء افعله ..
رأى انها تشتت في الطفل لنفسها فقط ، وانه بشخصه لا يعني
شيئا عندها - فرد عليها باصرار قائلا انه ماعليها الا ان تنتظر
حولها لكي ترى ما يحدث للاطفال الذين ينشأون النشأة التي
ستكون لاطفالهم ...

- اين ؟ ..
فاهت بهذا السؤال شاردة الفكر وهي تنظر حول الغرفة وكان
اولئك الاطفال التمساء موجودون فعلا ، في بيتهم ..
قال لها وقد تملكه الاستياء :

- ألم تسمعي عن الهولندي عند تشارلي سلاتر ؟ ..
- أي هولندي ؟ ..
- مساعده .. هو اب لثلاثة عشر طفلا ! .. وراتبه لا يتجاوز
اثني عشر جنيها شهريا .. ان سلاتر يقتر عليه أشد تقدير ..
ثلاثة عشر طفلا ! .. أنهم يدورون مثل الكلاب الصغيرة ،
في خرق بالية ، وطعامهم لا يسد الرمق ... وهم لا يذهبون الى
المدارس ...

- طفل واحد لا اكثر ..
فاهت ماري بهذه الكلمات في صوت شكاء متهافت كان اقرب الى
العويل .. كانت تحس انها بحاجة الى طفل واحد لانقاذها من نفسها
... لقد مرت بها اسابيع من اليأس بطيئة متشاقلة لكي تصل الى
هذا القرار .. كانت تكره فكرة انجاب طفل لما يستتبعه هذا من
عجز الطفولة ومتاعبها الكثيرة ، غير انها كانت كفيلة بان تعطى
شيئا تفعله .. كان من الغرابة بمكان ان تصل الامور الى هذا
الحد : ان كانت هي التي تستعطف ديك لانجاب طفل ، وهي تعلم
انه الى ذلك مشوق ملهوف .. ولكنها بعد طول التفكير خلال
اسبوع اليأس تلك ، اوضحت متعلقة بهذه الفكرة ، ان يكون الطفل
خير رفيق لها .. بل تصورت ان الوليد سيكون طفلة ، تواسيها
عندما تشب كما واست هي امها واست جراحها .. اجل ! ..

كانت تريد لها بنتا تؤنس وحشتها ، ورفضت رغم كل شيء احتمال
ان يكون ولداً ...

ولكن ديك عاد يقول :

— وماذا عن المدرسة ؟ ..

فقالت ماري غاضبة :

— ماذا عنها ؟ ..

— كيف تدبر مصروفات المدرسة ؟ ..

— لن يكون هناك أى مصروفات مدرسية .. ان والدى لم يتكلفا

أى مصروفات للمدرسة ..

— هناك مصروفات للمدرسة الداخلية ، والكتب ، واجبور

السفر ، والملابس ... هل يمكن ان تأتينا النقود من

السماء ؟ ..

— بالامكان ان نطلب منحة حكومية ..

فقال ديك بحدة :

— كلا ! .. كلا وحياتك ! .. اننى شبعت من التردد وقبعتى فى

يدى على مكاتب الرجال السمان طالبا للمعونة ، وهم متربعون فى

كراسيهم ينظرون اليك من طرف انوفهم ! .. أحسانا اطلب ؟ .. هذا

مالن افعله ! .. لا اريد طفلا يشب وانا اعرف اننى لان استطيع ان

افعل شيئا من اجله ! .. لن يحدث هذا فى بيتى ! .. لن أعيش

بهذه الطريقة ! ..

فقالت ماري بلهجة مستظيرة :

— وتظن انه لا بأس ان أعيش انا بهذه الطريقة ! ..

— كان يجب ان تفكرى فى هذا قبل ان تتزوجينى ! ..

اقما كاد يقول هذا حتى استشاطت غضبا وحنقا لما رآته فى قوله

من التحيف والتجنى .. بيد انها لم تلبث ان انحازت الى الهدوء ،

فشبكت يديها المرتعدتين وأغمضت عينيها ، واحسنت أنها اضعفت

من أن تستسلم للغضب والثوران .. وقالت فى اعياء :

— اننى اتقدم الى سن الاربعين .. أفلا يمكنك ان ترى اننى

عما قريب لن أقدر على انجاب تماما ؟ .. لا ، اذا مضيت فى حياتى

هكذا ! ..

— ليس الآن ...

قالها بلا رحمة .. وكان ذلك آخر العهد بأى حديث بينهما عن

انجاب الأطفال ..

وعندما رأى فيما بعد عزوفها عن كل شيء ، عاد يقول لها مستعظفا :

— ماري ... أرجوك أن تأتي الى المزرعة معي .. لم لا ؟ . بإمكاننا ان نقوم بكل شيء معا ..
فقلت له بصوت جاف متباعد :

— اننى اكره مزرعتك ! .. اكرهها ، ولا اريد ان يكون لى اى شأن بها ! ..

أبدا أنها تحاملت على نفسها وبذلت هذا الجهد ، برغم لامبالاتها ... فكل شيء هو الآن سيان عندها .. ومضت اسابيع كانت خلالها تصاحب ديك اينما ذهب فى اراضى المزرعة ، محاولة ان تشد من عزمه بوجودها الى جانبه .. ولكن ذلك ملأ نفسها يأسا أكثر من اى وقت سابق .. كان مصابه الاكبر فى عناده الشديد .. كان يطلب منها المشورة ، فاذا اقترحت عليه رأيا او وجهة آليه نصحا ، توجه وجهه بالعناد والاصرار ، واتجه الى الدفاع عن نفسه والتمسك برأيه ..

وعلى الرغم من هذا كله فقد تغلبت على يأسها ، وقالت له ذات يوم باشفاق ، ولكن فى عزم :

— اسمع ياديك .. عندى فكرة .. لماذا لاتحاول فى الموسم القادم قطع الأشجار من مساحة مائة فدان اخرى ، وتزرع محصولا اكبر ، من الذرة مثلا ؟ .. ازرع الذرة فى كل فدان بالمزرعة ، بدلا من هذه المحاصيل الصغيرة المتفرقة ..
— وماذا يكون اذا جاء موسم الذرة سنيًا ؟ ..
فقلت هازة كتفيها :

— لا يبدو أنك تجنى فائد من استمرارك هكذا ..
وعند ذلك احمرت عيناه ، وتصلبت عضلات وجهه ، وصاح فيها قائلا :

— وماذا يمكننى ان افعل أكثر من هذا ؟ .. وكيف يمكن ان اصلح مائة فدان اخرى ؟ .. اهو مجرد كلام ؟ .. اين أحد العمال اللازمين لهذا الغرض ، وليس عندى من الايدى العاملة مايفى بما أقوم به حاليا ! .. هل نسيت أن ازميتى الحالية يرجع جزء منها الى تصرفاتك ؟ مع العمال الذين كنت الحقهم بخدمتك ؟ .. أنك أفقدتني عشرين من خيرتهم بعد طردهم ، وهم لن يعودوا الى العمل أبدا ! .. انهم يتجولون فى كل مكان مسوئين سمعة مزرعتى ، بسبب طبعك

الحاد اللعين ! .. انهم لا يجيئون عندي كما كانوا يفعلون في الماضي ! .
والحق أن ماري قلقت من حالته ولم تشأ أن تمضي في نقاشها
معه على غير طائل ...

وفي تلك الأيام كان يعود معها من المزرعة عند غروب الشمس
مكدودا متبرما ، فيجلس في مقعد ويأخذ في التدخين بلا انقطاع ..
فقد أصبح الآن مدمنا للتدخين ، وكان يدخن السجائر الرخيصة
التي كانت تسبب له السعال المتواصل وتلوث أصابعه بالصفرة حتى
العقد الوسطى .. وكان دائم التملل في مقعده ، وكان أعصابه
لا تريد أن تهدأ .. وبعد أن يرتخي جسده في النهاية يظل جامدا
في مكانه انتظارا لتناول طعام العشاء ، ثم يدلف إلى الفراش على
الأثر ..

وفي النهاية قالت له ماري أنه لا معنى لتمضية كل وقتها معه في
المزرعة جالسة في ظل شجرة لكي تراقبه وحسب ، خصوصا وهو
مستغرق في عمله لا يعبأ بها ولا يأخذ بمشورتها .. فقال لها :

— لكنني ياماري أحب وجودك معنى ...

— حسن .. أنني شبعنا من هذا ..

وبعد ذلك عادت إلى جالتها السابقة ، وكفت عن التفكير في
المزرعة .. كانت المزرعة هي المكان الذي يعود منه إليك لكي يأكل
وينام ...

الآن استسلمت ماري وألقت سلاحها .. لقدت تجلس كل يوم
على الأريكة في حالة خدر تام مغمضة العينين شاعرة بالحرارة
تنفذ إلى تجاهها .. كان ينتابها العطش ، فكان استحضار كوب
ماء أو تكليف الخادم باحضاره إليها يمثل جهدا لا قبل لها به ..
وكانت تستسلم للنعاس ، ولكن نهوضها من مجلسها وصعودها
إلى الفراش كان عملا منها .. هكذا كانت تنام حيث هي .. كانت
تشعر أذا مشيت أن ساقها أثقل من احتمال الحركة .. كان مجرد
الكلام يمثل عبئا لا طاقة لها به .. وكانت تمضي أسابيع بطولها
لا تكلم أحدا سوى ديك والخادم ، وحتى ديك كانت لا تراه إلا
مدى خمس دقائق في الصباح ، ونصف ساعة في الليل ، قبلما
تتهالك في الفراش خائرة القوى ..

ثم حدث في تلك الفترة ، عندما كان أي مؤثر يمكن أن يفضي
بها إلى طريق جديد ، وعندما كانت بكل كيائها مهياة لأي شيء يدفع

بها الى هذه الوجهة او تلك - حدث في تلك الفترة ان جاءها الخادم
يبدى لها رغبته في ترك العمل في البيت .. في هذه المرة لم يكن
السبب حدوث مشاحنة لكسر طبق او اتساخ آخر .. قال لها
ببساطة انه سيذهب الى ذويه ، وكانت في حالة من اللامبالاة بحيث
لم تقاوم .. وهكذا انسحب الخادم ، بعد ان جاء بمن يحل محله ،
ولكن ماري لم تستطع احتماله ، وصرفته بعد ساعة واحدة ...
واصبحت بلا أحد يقوم على خدمتها ..

اذ ذاك لم تحاول أن تعمل أكثر مما هو ضروري .. فبقيت
الغرف بلا تنظيف ، وكان طعامهم المملبات ..

ولم يطرق بابهم خادم جديد .. فقد اكتسبت ماري شهرة
سيئة بين العاملين في هذا المجال كربة بيت صعبة المراس ، حتى
غدا من العسير ابدال من ينسحبون بغيرهم ..

ولما وجد ديك أنه لا يستطيع ان يحتمل القذارة ورداءة الطعام
أكثر من هذا ، قال أنه سيجيء بواحد من العاملين في المزرعة
لتدريبه للعمل كخادم .. وعندما قدم الرجل نفسه لدى الباب ،
عرفت فيه ماري ذلك العامل الذي ضربته على وجهه بالكرباج
منذ سنتين ، اذ كان اثر الجرح الصغير بادياً على بشـرته
السوداء ..

وقفت ماري في المدخل مترددة ، بينما ظل هو ينتظر في الخارج
خافض البصر .. بيد أن فكرة اعادته الى المزرعة وانتظار شخص
آخر يرسل اليها مكانه كانت تأجيلاً جديداً مرهقاً لها .. وهكذا
دعته الى الدخول

في هذا اليوم ، وبسبب هاجس داخلي لم تحاول تفسيره ، لم
تستطع أن تعمل معه كما كانت عاداتها في هذه المناسبات .. وانما
تركته وحده في المطبخ .. وعندما حضر ديك قالت له :

- ألا يوجد شخص آخر يصلح للعمل ؟

فقال ديك بلهجة عدائية دون ان ينظر اليها وهو يملأ فمه بالطعام
وكانما لا وقت أمامه :

- ولماذا ؟ .. هو أحسن من أمكن ايجاده ..

لم تكن ماري قد أخبرت من قبل بحدوث الكرباج ، خوفاً من
اثارة غضبه .. وقالت :

- لا يبدو أنه مناسب للعمل هنا ...

ولما رأت بواحد السخـط تتزايد في ملامحه سارعت قائلة :

— لكنه سينفع ، كما أظن ..
فقال ديك :

— هو نظيف وراغب في العمل .. وهو من افضل الاولاد الذين
استخدمهم .. ماذا تريدون اكثر من هذا ؟ ..
قال هذا بحدة وشراسة ، ثم خرج على الاثر دون كلام اخر ..
وهكذا بقي الخادم

وبدأت ماري عملية التلقين المعتادة ، بنفس لهجتها الباردة
القاطعة ، ولكن مع فارق .. فلم تكن قادرة على معاملة هذا الفتى
كما كانت تعامل كل من سبقوه ، اذ كان في خلفية ذهنها دائما
بارقة الخوف التي عرفت لها لحظة ان ضربته بالكرباج وظننت انه
سيهاجمها .. وغدت تشعر بالقلق في وجوده .. ومع ذلك فان
مسلكه كان مثل مسلك الآخرين بلا استثناء .. ولم يكن في موقفه
ما يوحي بأنه يتذكر ذلك الحادث .. وكان هو صامتا ، دؤوبا وصابرا
تحت وابل تفسيراتها واوامرها .. وكان يفض من بصره على الدوام ،
وكانما يخشى ان يتطلع اليها .. بيد انها ماكانت لتنسى الحادث ،
حتى لو نسيه هو او تناساه ..

ودرجت ماري على ان تجلس ساكنة تراقبه وهو يعمل .. ان
جسمه القوي العريض الالواح قد بهرها .. وكانت قد أعطته
« شورتات » وقمصانا بيضاء استعملها الخدم السابقون لكي
يرتديها في البيت ، ولكنها كانت شديدة القصر بالنسبة اليه ،
حتى كان اذا كنس او نفخ او انحنى فوق الموقد ، برزت عضلاته
ونفرت من قماش كميته الرفيع حتى يوشك ان يتمزق .. بل انه
بدأ اكثر طولاً وعرضاً مما هو ، في خيز البيت الضيق

وكان الفتى « شغلاً » جيداً ، بل من احسن ماعهدت .. وكانت
تطوف بعده متفقدة ، تحاول ان تجد شيئاً فاته ان يعمل .. ولكن
قلما وجدت شيئاً من هذا القبيل .. وهكذا غدت بعد فترة
معتادة عليه ، وتلاشت من مخيلتها ذكرى ضربة الكرباج التي خطتها
على وجهه .. وكانت تعامله بما تعده حقها الطبيعي في معاملة
الخدم ، وكان صوتها مشوباً بالحدة والاستياء .. بيد انه لم يكن
يرد عليها ، وكان يتقبل لومها المتحيقة في اكثره دون حتى ان يرفع
عينيه عن الارض .. ولعله قد راض نفسه على ان يلتزم الحيدة
التي يعرف كيف يلتزمها

وعلى هذه الوتيرة مضت الامور ، وكانما استقر الوضع على

هذا النسق ، مما جعلها حرة لا تفعل شيئا .. بيد أنها لم تعد
لا مبالية كما كانت من قبل ..

كان موسى الخادم يحضر لها الشاي صباحا ، فاذا كانت
الساعة العاشرة قصد الى مكان خلف حظيرة الدجاج تحت شجرة
كبيرة وهو يحمل وعاء من الماء الدافئ ، ومن البيت كانت ماري
تلمحه أحيانا منحنيا فوق الوعاء يغتسل عاريا من رأسه حتى
وسطه ، بيد أنها كانت تحاول ألا تكون عن كثب عندما يحين موعد
حمامه هذا .. وبعد أن يفرغ كان يعود الى المطبخ حيث يقف ساكنا
مستندا الى الحائط الخلفي في الشمس وهو لا يفكر في شيء كما
يظهر ، وربما يكون نائما هكذا .. ثم لا يستأنف عمله الا في موعد
أعداد الغداء ..

وكانت ماري تتضايق اذ تفكر في أمره وهو واقف متكاسلا على
هذه الصورة ، جامدا وصامتا مدى ساعات ، تحت وطأة الشمس
الحارقة التي كان يبدو أنها لا تؤثر فيه .. ولم يكن ثمة ما يمكنها
أن تفعله ازاء هذا ، وان ذهبت وهي في حالة من الخدر قريبة من
النعاس تجهد ذهنها مفكرة في عمل يمكنها أن تكلفه به ..

وذات صباح خرجت ماري الى حظيرة الدجاج التي أصبحت
تنسى مباشرتها في هذه الأيام ، وبعد أن اتمت تفقدها بنظرة عابرة
وملأت سلتها بالبيض ، استرعى نظرها مشهد الخادم تحت الاشجار
على بعد ياردات قليلة منها .. كان يدلك رقبته الفليضة بالصابون ،
وكانت الرقوة تبدو شديدة النضوج ضد بشرته السوداء .. وكان
موليا ظهره الى ناحيتها .. وفيما كانت تنظر ، تلفت اما بمحض
الصدفة ، او لانه استشعر وجودها ، وراها ..

كانت قد نسيت ان هذا موعد اغتساله ..

لقد تضايقت ماري عندما توقف واستقام ، منتظرا أن تذهب ،
وشف تصلب جسده عن استيائه لوجودها في هذا الموضع .. بل
أسخطها أن قدرت انه يعتقد أن وجودها كان عن قصد .. وهذا
كثير عليها .. ولاشك أنها قحة منه ان يتصور شيئا كهذا لا يمكن
أن يدور قط بخلدتها .. لكن حياة جسده الساكن وهو يراقبها
من خلال الاشجار الفاصلة بينهما ، والملاحم البادية في وجهه ،
أفعمت نفسها غضبا .. واحسست اذ ذاك بنفس الحافز الذي جعلها
مرة تهوى بالكرباج على وجهه ..

وبعزم انشنت مبتعدة ، وتشاغلته بنشر اخفقات من الحبر
للدجاج ، ثم خرجت من الحظيرة متباطئة دون أن تنظر الى
ناحيته ثانية ، وان أحست من زاوية عينها انه ظل واقفا مكانه
جامدا ..

وعادت الى البيت وهي تشعر بأنها قد انتزعت لأول مرة منذ
اشهر كثيرة من حالة الخدر واللامبالاة التي استحوذت عليها في
الفترة الاخيرة ، وغدت تشعر بوطأة الشمس على رقبتها ، وحسده
احجار الارض تحت نعلها ..

ثم سمعت غممة عاصبة غريبة ، وادركت انها كانت تكلم نفسها
بصوت مسموع ، وهي سائرة .. فأطبقت يدها على فمها ، وهزت
رأسها لكي تفيق .. ولكن ما ان عاد موسم الى المطبخ ، وسمعت
خطواته ، حتى التفت نفسها بالسة في العرفة الامامية متسللة
بانفعال هستيري . وعندما بذرت تلك النظرة الشريرة في عينيه
وهو واقف مكانه بسطي ابتعادها عن المكان ، شعرت كأنما لمسست
أفعى بيدها .. ولم تلبث أن تملكها رد فعل عصبي عنيف جعلها
تذهب الى المطبخ حيث ألقت واقفا بملابس نظيفة ، وهو يضع
جانبا ملابسه المفسوة .. ان تذكرها لذلك المنق الفليظ الاسود
والرغوة الناصعة البياض تزيد فوقه ، والظير القوى منحني فوق
دلو الماء - كان هذا كله بمثابة شوكة نخستها .. ثم بدا لها ان
ماخمرها من غضب وهستيريا كان بسبب لا شيء يمكن تفسيره ..
وشعرت بأنها لابد أن تفعل شيئا .. وعندما وقع نظرها عنوا على
صندوق تحت المائدة كانت تحفظ فيه ادوية التنظيف ، قالت
للفتى :

- اكس الارض هنا ! ..

والواقع أنها روعت عندما سمعت صوتها ، ثم لم تصرف أنها
ستتكلم ، مما جعلها تشعر أنها فقدت توازنها ، وأنها لم تعد تسيطر
على أفعالها ..

رد عليها الخادم بلهجة دائية ، متطلعا اليها بعينين متقدتين :

- اننى كنستها هذا الصباح ...

فقالت رافعة الصوت :

- قلت اكسها ! .. قم بهذا فورا !

مضت لحظة جعل فيها كل منهما يحدق في الآخر ، مبديا
كراهية متبادلة .. ومالبث هو ان غض بصره ، وانشنت هي خارجة
وصفقت الباب خلفها ..

ودلى الأثر سمعت صوت احتكاك الفرشاة المبتلة بالأرض ..
نتهارت فوق الأريكة ، فى ضعف بين ، كأنما كانت مريضة ..
كانت تعهد فى نفسها ثورات الغضب الأعمى تلك ، بيد أنها لم
تعرف قط نوبة غضب جاثجة كهذه ... لقد ذهبت ترتعد ، واحسنت
بالدم ببض مشتدا فى أذنيها ، وشعرت بجفاف فمها ..
وعندما تماكنت بعد فترة ذهبت الى غرفة النوم التماسا للماء ،
فهى تريد ان تواجه موسى ..

ومع ذلك ، فلم تلبث ان تحاملت على نفسها وقصدت الى المطبخ
ووقفت فى المدخل تسرح النظر فى الأرض المبتلة وكأنما جاءت
لتفقدتها حقا .. فوجدته واقفا خارج الباب جامدا كعادته يحدق
الى الأشجار .. فتظاهرت بأنها تفحص ما وراء الدرابيب ، ثم قالت
له أخيرا :

— حان وقت اعداد المائدة ..

فاستدار واخذ يضع الفرش والاكواب والاطباق بحركات وأنية
... كانت كل حركة منه تثيرها وهى جالسة شديدة الاعصاب
مطبقة اليدين .. وعندما خرج سرى عنها قليلا وكأنما انزاح
عبء كان يثقل عليها ..

وبعد أن تم اعداد المائدة قامت لتفقدتها ، بيد أن كل شيء كان
فى موضعه المناسب .. غير أنها تناولت كوبا وحملتة الى الغرفة
الخلفية وقالت بلهجة الأمر :

— انظر الى هذا الكوب ياموسى ! ..

فتقدم ونظر الى الكوب متأدبا .. كان يتظاهر بالنظر ، اذ أنه
اخذ الكوب منها لغسله فعلا .. ولم يكن به أكثر من اثر خفيف
لتجفيفه بالمنشفة .. ولكنه ملاً الحوض بالماء ونثر فيه مسحوق
الصابون كما علمته وغسله مرة أخرى بينما كانت تراقبه .. وبعد
ان جففه أخذته منه وعادت الى الغرفة الأخرى ..

وتصورته مرة أخرى واقفا فى صمت لدى الباب فى الشمس ،
ينظر الى لاشيء ، فكان يمكن ان تصرخ او تقذف بكوب عبر الغرفة
لكى يتحطم على الحائط .. لكن لم يكن ثمة أى شيء يمكن ان تعطيه
اليه لى يفعله ...

ثم بدأت عملية هادئة لتفقد البيت كله .. وجدت كل شيء نظيفا
وفى موضعه .. كان السرير الضخم الذى كانت تكرهه دائما

مرتبا والاعطية منسقة كما تبدو السرير فى « الكتالوجات » العصرية ... ان مشهد السرير اثارها اذ ذكرها باللامسة البفيضة فى الليالى بينها وبين جسد ديك المنهك ، وهو مالم تستطع أبدا أن تعتاده .. ثم تحولت عن السرير وهى تشد على يديها ونظرت الى وجهها فجأة فى المرآة .. بدأ الوجه كابيا مشعث الشعر ، والشفتان مطبقتين فى غضب ، والعينان ملتهبتين ، والوجه ذاته مورمسا مبقعا بالحمرة ، حتى لا تكاد ان تعرف نفسها .. راحت تحملق مروعة فى حالة مؤثرة ، ثم لم تلبث أن اجهشت بالبكاء بصورة هستيرية يخالطها الشهيق والارتعاد ، محاولة خنق الصوت خوفا من أن يسمعها ..

لقد راحت تبكى حيناً ، وعندما رفعت عينيها لكى تكفكف دموعها حانت منها نظرة الى الساعة .. ان ديك يوشك أن يصل .. فكان الخوف من رؤيته لها على هذه الحال عاملاً على تسكين اضطراب اعصابها .. ففسلت وجهها ، ومشطت شعرها ، ووضعت « البودرة » فى الثنيات القاتمة حول عينيها ..

كانت تلك الوجبة مشمولة بالصمت كما كانت كل وجباتهما هذه الايام . وعندما رأى وجهها المفضن المحمر وعينيها المحتقتن عرف مبعث الخلل .. كانت المشاحنة مع الخدم هى على الدوام سبب البكاء ... غير انه كان متعبا ومخيب الأمل .. لقد مضت فترة طويلة منذ آخر مشاحنة ، وتصور أنها قد تغلبت على ضعفها ..

ثم أنها لم تأكل شيئاً ، وجلست مطرقة الرأس .. وكان الخادم يتحرك خلال الطعام كأنه انسان الى .. بيد أن تفكير ديك فى اقتدار هذا الرجل ، وفى مشهد وجه ماري المنتفخ ، حفزه فجأة الى الكلام عندما خرج الرجل من الغرفة ، فقال لها :

— ماري .. لابد ان تبقى هذا الولا .. هو احسن شخص جاء للعمل عندنا ..

لم ترفع ماري عينيها ، حتى وهو يكلمها ، ولكنها ظلت ساكنة تماما ، صماء فيما يظهر .. ولمح ديك يدها النحيلة تهتز .. فقال مرة ثانية بعد صمت ، وصوته يشف عن العداء :

— انا لا أحتمل أى تغيير جديد للخدم .. كفاية حتى الان .. اننى اجدرك بماري ..

ومرة أخرى لم ترد .. كانت واهنة بعد دموعها وغضبها في الصباح ، خائفة أن تفتح فمها فيعاودها البكاء من جديد .. عندئذ نظر اليها ديك في دهشة ، اذ اعتاد منها أن ترد بحدة في هذه المناسبات ، مرددة شكواها من وقوع سرقة أو سوء خلق ، وفي هذا كان على الدوام على استعداد لمواجهة الموقف .. فكان صمتها المستمر باعثا له على الاصرار للحصول على جواب منها ، اذ قال لها بلهجة سيد لتابعه :
- ماري .. هل سمعت ماقلت ؟ ..
فقالت أخيرا ممتعضة ، وبجهد :
- نعم ..

وبعد خروج ديك قصدت الى غرفة النوم مباشرة لكي تتحاشى رؤية الخادم وهو ينظف المائدة ، ونامت مدى أربع ساعات كانت فوق الاحتمال ..

الفصل التاسع

وهكذا توالى الايام خلال شهرى أغسطس وسبتمبر حارة قائظة
متربة ، كانت ماري اثناءها تتحرك اثناء اعمالها مثل امرأة في حلم ،
مستفرقة ساعات لانجاز ما كان يستلزمها من قبل دقائق معدودات
... وبدلاً من ان تطوف في حظيرة الدجاج متفردة كعادتها ، دون
ان تبصرها الآن ، غدت تنهالك في معمارها . محسرة جامدة دون حركة
أو تفكير في أى شيء .. بيد ان سمها بوجرد ذلك الرجل وحده
معها في البيت كان عبثاً ثقيلاً في خاطرها .. كانت تبدو متمالكة
متماسكة في وجوده ، وكانت تحمله على العجل اطول وقت ممكن ،
دون ان تأخذها هوادة ازاء ذرة غبار أو انحراف طبق أو كوب عن
موضعها .. وكلما فكرت في سخط ديك وتحذيره لها من انه لن
يقبل أى تغيير جديد للخدم ، مما عدته تحدياً لم تجد لديها القوة
لمواجهته ، ضغطت على اعصابها ، وزادت تحاملاً على نفسها .. وكان
موسى حياها غير مكترث وهادئاً وكأنها غير موجودة ، فيما عدا
انه كان يطيع اوامرها .. وكان ديك ، الذى كان من قبل سمحاً
دمث الخلق سهل الارضاء ، قد آنحاز الآن الى اشكوى باستمرار
من سوء ادارتها لشئون البيت ، اذ كانت تحمل على الفتى بصوتها
العصبى الحاد بسبب مقعد زحرج عن موضعه المضبوط بقدر
بوصتين ، وتقصره في ملاحظة السقف الذى تغلفه العناكب ..

ولقد أصبحت ماري تترك كل شيء يفلت من اشرافها ، فيما عدا
ما يفرض عليها فرضاً .. وقد افقها محصوراً في البيت .. وعندما
بدأ الدجاج ينفق غمغمت كلاماً عن حدوث مرض ، ثم فهمت بعد
ذلك انها نسيت ان تطعمها مدة اسبوع ، على الرغم من انها كانت
تذهب الى الحظيرة كعادتها ومعها سلة الحبوب .. وكان الدجاج
النافق يطهى ويؤكل .. ومضت اسابيع وهم لا يأكلون سوى
الدجاج ، الى ان أصبحت الحظيرة الكبيرة خاوية .. ثم لم يبق

ثمة بيض .. ولم تستطع ان تطلب بيضا من المتجر ، لفلاء ثمنه ..
واضحى عقلها فى شبه خواء .. واصبحت لا تبدأ كلاما الا تتوقف
عن اتمامه نسيانا وشرودا .. وكان ديك اذا شجعها برفق على
اتمام ما كانت تريد قوله تطلعت اليه ، دون ان تبصره عيانا ، ولم
ترد .. وقد أحزنه حالها حتى لم يبادرها بأى احتجاج بسبب
اهمالها للدجاج مأكلا ومشربا ، وهو ما كان مصدر نقود نثرية لنفقات
البيت ...

وذات مرة أفاقت من خدرها على صوت ضوضاء ، ثم أدركت
انها هى نفسها التى كانت تتكلم بصوت مرتفع فى غرفة المعيشة ،
يمارجه الفضب .. ففى تخیلاتها نسى الخادم تنظيف غرفة النوم
هذا الصباح ، فراحت تحمل عليه بكلمات لاذعة قاطعة .. ان هذا
الصوت المتقطع المختبل قد روعها كما روعها مشهد صورتها فى
المرآة ، حتى لقد تملكها الخوف ، وردها الى وعيها تصور انها
كانت تكلم نفسها كامرأة مجنونة ..

ونهضت على الاثر بخفة ويممت شطر الباب الفاصل بين غرفة
المعيشة والمطبخ ونظرت من خلاله لكى ترى أن كان الفتى على مقربة
واستطاع أن يسمع .. فوجدته واقفا فى مكانه المعتاد ، مستندا
الى الحائط الخارجى ، ولم تبصر منه سوى منكبه العريض بارزا
من خلف الستار الرفيع .. ولم يكن يتحرك .. فقالت لنفسها انه
لم يكن ليستطيع التسمع ، ونفت من خاطرها ذلك الهاجس الذى
اعتراها ..

وتجنببت لقاءه طوال ذلك اليوم ، ومضت تتحرك بلا استقرار
بين الغرف وكأنما نسيت كيف تبقى ساكنة .. وعندما تمددت فى
الفراش بعد الظهره بكت طويلا فى نسيج عصبى متصل ، حتى
كانت فى أشد الاعياء ، حين عاد ديك الى البيت .. بيد انه لم
يلحظ شيئا هذه المرة ، اذ كان هو نفسه مكدودا منهكا لا يريد سوى
النوم ...

وفى اليوم التالى ، بينما كانت تخرج من دولاى المطبخ كميسة
المثونة اللازمة لليوم كالمعتاد ، فاجأها موسى الذى كان واقفا الى
جانبها بالصحفة ، قائلا انه يريد الانسحاب من الخدمة فى نهاية
الشهر ...

فى الماضى كانت مارى تتلقى مثل هذا الاخطار بارتياح لخلصها
ولو الى حين من المشاحنات مع الخدم .. وفى هذه المرة فتحت
فمها لكى تعترض ، بيد انها لزمّت الصمت ، وتدلّت يدها من
باب الدولاب ، والفت نفسها تفكر فى غضب ديك .. فهى لاتستطيع
مواجهته الآن ، ولم تعد حالتها تسمح بحدوث مشادات جديدة
معه .. ولم يكن الذنب ذنبها هذه المرة .. ألم تفعل كل شىء
لاستبقاء هذا الولد ، الذى تكرهه ، والذى كان يرعبها ؟ .. وشد
ما ارتاعت عندما الفت نفسها ترتعد منتحبة مرة ثانية ، وامام
الخدم ! .. هكذا وقفت بجانب الطاولة عاجزة خائفة ، مولىة ظهرها
اليه ، تنتحب ...

ومضت برهة لم يتحرك احدهما خلالها .. ثم مسالبت الفتى ان
استبدار لكى يرى وجهها ، متطلعا اليها باستغراب ، مقطباً حاجبيه
فى تأمل وعجب .. واخيراً قالت فى زعر شديد :
- يجب الا تذهب !..

واستمرت فى البكاء وهى تردد عبارتها السالفة :
- يجب الا تذهب !.. يجب الا تذهب !.. يجب ان تبقى !..
وفى خلال ذلك كانت تشعر بالخزى والعار لانه كان يشهد
بكاءها ...

وبعد برهة رآته يتجه الى الرف حيث مرشح المياه لكى يمسك
كوباً .. وعندما قدمه اليها لم ترفع يدها لأخذه ، شاعرة بأن عمله
هذا هو اجترأ وقحة ينبغى أن تتجاهلهما .. ولكن على الرغم من
حالة الاعتزاز بالكرامة التى كانت تجاهد للالتزام بها ، فقد عادت الى
الانتحاب من جديد ، وقالت بلهجة الاستعطاف :
- يجب الا تذهب !..

ورفع الكوب الى شفيتها حتى كان عليها أن ترفع يدها للامساك
به ، وشربت جرعة والدموع تنحدر على وجهها .. ومن فوق
حافة الكوب نظرت اليه مستعطفة ، وفى خوفها المتجدد منه لمست
فى عينيه تسامحاً حياًل ضعفاً ...
وقال لها ببساطة وكأنما يخاطب احدى نساءه :
- اشربى ...
فشربت ...

وفد أخذ الكوب منها ووضعها على الطاولة .. وعندما أبصرها واقفة مكانها مشدوكة ، لا تدري ماذا تفعل ، قال لها :
- « السيدة » تتمدد في الفراش ..

لم تتحرك .. فمد يده مكرها ، نافرا من لمسها ، وهي السيدة البيضاء ، ودفعها من كتفها .. وشعرت بنفسها تدفع برفق في الغرفة شطر غرفة النوم .. كان هذا مثل كابوس يغدو فيه المرء مشلول الحركة أمام الفزع المسيطر .. واحسنت ان تلمس هذه اليد السوداء يملأ نفسها نفورا ، وهي التي لم تلمس طوال حياتها بدن زنجي .. وعندما اقتربا من الفراش ومازالت تشعر باللمس الرقيق على كتفها ، احسنت برأسها يدور وعظامها تتفسخ .
وفال لها مرة اخرى وصوته رقيق وشبه أبوي هذه المرة :
- « السيدة » تتمدد في الفراش ..

وعندما تهاوت جالسة على حافة السرير ، امسك كتفها برفق ودفعها الى التمدد .. ثم تناول معطفها المعلق على الباب ووضعها فوق قدميها .. وخرج .. فانحسر عنها الفزع ، وتمددت مكانها مخدورة صامتة ، عاجزة عن تدبر مغزى هذا الحدث ودلالاته ...

ونامت بعد برهة .. وعندما استيقظت كان الوقت متأخرا بعد الظهيرة .. ولبثت فترة لا تستطيع ان تتذكر ما حدث ، ولكن بعد ان تذكرت شملها الخوف مرة اخرى - خوف مزروع حالك ... راحت تفكر في نفسها وهي تبكي عاجزة عن تمالك أعصابها ، وهي تشرب بأمر من هذا الرجل ، وكيف جعل يدفعها عبر الغرفتين الى الفراش ، وكيف حملها على ان تتمدد ثم غطي ساقيها بالمعطف .. لم تمالك ان انكمشت في الوسادة نفورا وهي تن عاليا .. ومن حلق مألوسها من سائر كانت تسمع صوته ثابتا ، عطوفا ، وكأنه اب يامرها ...

وعندما نهضت كانت الظلمة سائدة ، فأوقدت المصباح الزيتي ، ونشرت البيودرة على وجهها ، وطال جلوسها أمام المرآة ، شاعرة بعدم القدرة على الحركة .. احسنت انها لا تقوى على الخروج من الغرفة حتى يعود ديك ويشد من أزرها في حضور الخادم .. فلما جاء ، نظر اليها بانزعاج وقال لها انه لم يوقظها في فترة الغداء ، مؤملا الا تكون مريضة .. اقردت قائلة :

— آه ، لا ، فقط متعبة .. اتنى أشعر ..
وتلاشى صوتها ، وشاعت فى وجهها نظرة شاردة ..
كانا جالسين فى دائرة الضوء الحسير المنبعث من المصباح
المعلق ، والخادم يتنقل بهدوء حول المائدة .. وظلت مارى فترة
طويلة منكسة العينين ، وان كان شىء من اليقظة قد عاد الى
حواسها لدى مجيئه .. وعندما حملت نفسها على التطلع والقاء
نظرة متعجلة على وجهه ، سرت اليها الطمانينة ، اذ لم تأنس
شيئا جديدا فى مسلكه .. كان ، كدابه دائما ، مثل آلة تتحرك بلا
روح ..

وفى صباح اليوم التالى قسرت نفسها على الذهاب الى المطبخ
والتكلم بصورة طبيعية ، وجعلت تنتظر فى تخوف شديد
ان يقول مرة ثانية انه يريد الانسحاب من العمل .. بيد انه لم
يفعل ...

ومضى اسبوع سارت خلاله الامور على وتيرتها حتى ادركت انه
لن يذهب وانه استجاب لدموعها واستعطافها .. انها لم تكن
تحتمل التفكير بانها نالت غرضها بهذه الاساليب ، ولكونها لم ترد ان
تتذكر هذا ، فقد استردت جاشها رويدا ..

وبعد ان سرى عنها هكذا ، وتخلصت من عذاب التفكير فى
غضب ديك ، ومع انحسار ذكرى انهيارها المخزى من خيالها ،
بدأت من جديد فى استخدام تلك اللهجة اللاذعة لبدء ملاحظاتها
التهكمية على شغل الخادم .. حتى كان ذات يوم وهما فى المطبخ ،
اذ استدار اليها مواجهة وقال لها بصوت منفعل فيه عتاب :
— ان « السيدة » طلبت منى ان ابقى .. سألنى لمساعدة « السيدة »
... واذا غضبت « السيدة » فسوف اذهب ...

ان نبرات الحسم فى صوته أوقفتها عن الكلام .. وشعرت
بانها مغلوبة على امرها ، خاصة وقد تذكرت مكرهة سبب وجوده هنا
... ثم ان نبرات الانفعال فى صوته المحتدم شفت عن تفكيره بانها
غير منصفة ... غير منصفة ! .. انها لم تر الموقف ، على هذه
الصورة ..

كان واقفا بجانب الموقد ، انتظارا لانضاج الطعام ... ولم تعرف
هى ماذا تقول ... وما لبث ان تقدم الى الطاولة ، وفى انتظار

ردها أخذ قطعة قماش لكي يمسك بها مقبض الفرن الساخن .. ثم قال دون ان ينظر اليها :

— هل أقوم بعملى جيدا ، نعم ؟ ..

فردت قائلة على كره منها :

— نعم ...

— اذن لماذا تفضب « السيدة » دائما ؟ ..

شد ماضايقتها ان رآته يتكلم ببسر وبغير كلفة وكأنه يلاطف طفلا ... وشعرت أنه ينبغي لها ان تخرج على الفور ، بيد أنها لم تتحرك ، وبدا كأنها مسمرة مكانها عجزا وهي تراقب يديه الضخمتين تقلبان الطعام .. ذلك ولم تقل شيئا .. وشعرت بالفضب المألوف يثور فى دخيلتها ، ولكنها فى نفس الوقت كانت مبهورة ، ولم تدر ماذا تفعل أزاء هذه العلاقة الدائبة .. وهكذا ، عندما رآته لا ينظر اليها وإنما مضى يتداول عمله بهدوء ، سارت خارجة دون ان ترد ...

هذا ، وبهطول الامطار فى الشطر الاخير من شهر اكتوبر بعد ستة اسابيع من الحرارة المدمرة ، صار ديك — كعادته دائما فى هذا الوقت من السنة — يتخلف عن موعد الغداء بسبب ضغط العمل فى المزرعة .. كان يخرج فى السادسة صباحا ويعود فى السادسة ليلا ، وهكذا لم تكن تعد سوى وجبة واحدة : اما الافطار والغداء فكانا يرسلان اليه فى الحقول .. وجريا على ما كانت مارى تفعله من قبل ، لقد اخبرت موسى أنها لن تتناول طعام الغداء وانه يمكن ان يأتيها بالشاى ، اذ قدرت انه لا لزوم لاقلاقتها بالاكل ...

وفى اليوم الاول لغياب ديك عن البيت ، وبدلاً من صحيفة الشاى ، جاءها موسى ببيض ومربى و « توست » ، ووضعتها بعناية فوق الخوان الصغير بجانبها .. قالت له بحدة :

— قلت لك اننى اريد الشاى فقط ! ..

فرد بهدوء قائلا :

— ان « السيدة » لم تتناول الافطار ، ولا بد ان تأكل .. وكان بالصحفة ايضا فنجان مكسور اليد به مجموعة من زهور الغابة تراوحت ألوانها بين الاصفر والوردي والاحمر ، ضمت بعضها

الى بعض بصورة بدائية ، ولكن كان لها لون صارخ فوق المفرش العتيق ...

ان ماضيها في جلستها تلك وهى خافضة البصر بعد ان اعتدل موسى اثر وضع الصحيفة ، هو هذا الدليل على رغبته في ارضائها بهذه الزهور .. وكان ينتظر كلمة تأييد وسرور من جانبها .. فلم تستطع ان تقولها .. غير ان بادرة التأنيب التى انبعثت الى شفيتها بقيت مكانها ولم تفه بها ، وجذبت الصحيفة اليها وبدأت تاكل ، دون كلام ..

لقد قامت الان علاقة جديدة بينهما .. ذلك لانها شعرت بانها مغلوقة على امرها وتحت سلطانه .. ومع ذلك لم يكن ثمة سبب يلزمها بان تكون كذلك .. وفيما كانت لا تكف لحظة واحدة عن الاحساس بوجوده في دائرة البيت ، او الوقوف صامتا خارجة مستندا الى الحائط في الشمس - فان احساسها كان هو الشعور بخوف شديد وغير منطقي ، وبقلق عميق ، بل وحتى بانجذاب قائم ، وان كانت لا تعرف هذا ، وتفضل الموت على ان تعترف به ... كان الامر كما لو ان بكاءها امامه كان من قبيل الاستسلام والتخلي عن سلطتها ، وقد ابي هو ان يرد اليها ماتخلت عنه .. وكم من مرة سارعت عبارات التأنيب والزجر الى شفيتها ، وكانت تراه ينظر اليها عمداً وغير متقبل لها ، ولكن متحدياً اياها .. ومرة واحدة فقط عندما نسي ان يؤدي شيئاً وكان مخطئاً فعلاً ، عاد الى حالته الاولى خاضعاً ممتثلاً .. اذ ذاك تقبل التأنيب ، لانه كان على خطأ ...

والآن مالبت ان اخذت تتجنبه .. وفيما كانت من قبل تلزم نفسها بمتابعة عمله وتفقد كل شيء يقوم به ، فقد أصبحت الآن لا تذهب الى المطبخ الا لماماً ، تاركة الاهتمام بشئون البيت له ... وحتى مفاتيح دولاب المئونة غدت تتركها على السرف حيث يجدها لأخذ البقول التى يحتاج اليها ...

وحدث مرتين ان وجه اليها أسئلة ، بتلك اللهجة الجديدة المتوددة ، البعيدة عن الكلفة ..

كانت المرة الاولى عن الحرب .. قال لها :

- هل تظن السيدة ان الحرب سوف تنتهى قريباً ؟ ..

كان ذلك مفاجأة أزعجتها .. بالنسبة اليها وهي تعيش خارج نطاق الاتصال بكل شيء ، بل وهي لا تقرأ حتى الجريدة الاسبوعية - فقد كانت الحرب سماعية كشائعة ، كانت شيئاً يدور في عالم آخر ... بيد انها كانت تراه وهو منكب على الجريدة القديمة المفروشة فوق مائدة الطعام فى المطبخ .. وقد ردت بجفاء قائلة انها لا تعرف ...

وفى المرة الثانية قال لها بعد أيام وكأنه كان يفكر فى تلك الفترة :

- هل يرضى يسوع أن يقتل الناس بعضهم بعضاً ؟ ..
فى هذه المرة تملكها الغضب للسؤال ، وقد ردت ببرود قائلة ان يسوع مع الناس الاخيار .. بيد انها ظلت طوال اليوم وهي تتميز استياء .. وفى الليل سألت ديك :
- من اين جاء خادمنا هذا ؟ ..
فرد قائلاً :

- هو من فتيان الارساليات .. وهو احسن من وجدت ..
كان ديك مثل أغلب المستوطنين فى افريقيا لا يحبون فتيان الارساليات ، لانهم « تعلموا اكثر من اللازم » ، وما كان ينبغي فى عرفه ان يتعلموا القراءة والكتابة ، وانما يعلمون قيمة العمل الذى يجدى على المستوطنين ! ..
ثم قال لها فى ارتياب :

- لم السؤال ؟ .. ارجو الا تكون هناك متاعب جديدة ؟ ..

- كلا ...

- هل ابدى شيئاً من قلة الاحترام ؟ ..

- كلا ...

ان ماوقفت عليه مارى قد فسر لها الكثير ، خصوصاً مخاطبتها لها « بالسيدة » مما كان يضايقها وودت ان تطلب منه الكف عن هذا .. ولكن على الرغم من انه لم يكن بحال قليل الاحترام لها ، فقد اجبرها الان على ان تعامله كآدمى .. وغداً من المستحيل ان تنزعه من مجال تفكيرها كمخلوق أدنى من ذلك ، كما كانت تفعل مع الآخرين من سابقه .. لقد فرض عليها ان تكون على اتصال

به ، ولم تتوقف لحظة عن الاحساس بوجوده عن كذب .. وكانت مدركة ان فى هذا شيئا محفوفا بالخطر ، ولكن ما هو كنه هذا الخطر فذلك ما لم تستطع له تحديدا ولا وصفا ..

والآن فقد ذهبت تحلم من خلال نومها المتقطع ليلا احلاما مروعة بشعة .. وبات نومها الذى كان من قبل اشبه بستار اسود يسدل عليها ، اقرب الى الحس الواقعى واليقظة الحقيقية .. مرتين حلمت بالزنجى مباشرة ، وفى كل مناسبة كانت تستيقظ فى فزع وهو يلمسها .. وفى كل مرة فى الحلم كان يظل عليها قويا وآمرا ، ولكن رقيقا ، محركا لها فى وضع لا بد لها فيه من ملامسته .. وفى احلام اخرى كانت لاتراه فيها مباشرة ، غير انها كانت احلاما مشوشة ، مرعبة ، فظيعة - كانت تستيقظ منها والعرق يفرها رعبا ، محاولة ابعادها عن خاطرها .. حتى لقد صارت تخاف ان تاوى الى الفراش .. وكانت تتمدد فى الظلام مشدودة الاعصاب الى جانب جسد ديك المستغرق فى النوم ، مجبرة نفسها على البقاء مستيقظة ..

وكثيرا ما كانت اثناء النهار تراقبه خفية ، لا كسيدة تراقب خادما وهو يعمل ، ولكن بفضول مروع وهى تتذكر تلك الاحلام .. وكان هو كل يوم يرعى شئونها ، فيشرف على ما تأكل ، ويجيئها بالوجبات دون ان تأمر بها ، ويقدم لها هدايا صغيرة من البيض من دجاج مساكن العمال ، او مجموعة ازهار من الغابة .. وذات مرة حين طال الوقت بعد غروب الشمس ولم يعد ديك ، قالت له ماري :

- ابق العشاء ساخنا .. ساذهب لارى ماذا حدث « للرئيس » .. وعندما دخلت الى غرفة النوم لارتداء معطفها طرق موسى الباب وقال انه سيذهب للبحث عنه ، فان « السيدة » يجب الا تخرج الى الغابة المظلمة وحدها ..

فقالت مغلوبة على امرها وهى تخلع المعطف :

- لا بأس ..

لكن ديك لم يلم به شيء ... فقد تأخر بسبب ثور كسرت ساقه ...

ومرة اخرى عندما تأخر ديك طويلا عن موعد عودته ، وانتابها

القلق ، لم تبدل ماري جهدا للبحث عما حدث ، خوفا من ان يبادر الخادم ببساطة وطواعية لتحمل المسؤولية من اجل راحتها .. فقد طرحت على نفسها هذا السؤال : هل تسمح لموسى بأن يقوى تلك الصلة الانسانية الجديدة بينهما ، بحيث لايمكنها ان تقاوم ولا يكون ثمة رد فعل من ناحيتها ، ومن ثم قررت ان تتحاشى مثل هذه المواقف ...

وفي شهر فبراير مرض ديك بالمalaria للمرة الثانية .. وكما حدث من قبل ، كانت النوبة مفاجئة وقصيرة ، ومشتدة في الفترة التي استغرقتها .. وكالعادة ارسلت ماري رسالة الى مسز سلاتر مع رسول خاص ترحوها وزوجها استدعاء الطبيب .. وكان نفس الطبيب الذي جاء من قبل .. وقد ادار نظره في البيت الصغير ممتعضا وسأل ماري لماذا لم تهتم بتوصياته السابقة .. ولما لم تجب قال لها :

— لماذا لم تعملوا على ازالة الاشجار حول البيت حيث يمكن توالد البعوض ؟ ..

— ان زوجي لم يستطع الاستغناء عن عمال الزراعة .

— لكن يمكنه الاستغناء عن الوقت الضائع في المرض ؟ ..

لم تكن هذه القمزة من الطبيب اهتماما حقيقيا ، فقد كان في قرارة نفسه غير مكترث ، فقد علمته السنوات الطويلة في تلك الاقاليم الزراعية انه لا فائدة من النصيح والتوجيه ، خصوصا وهو لا ينتظر اجرا من اناس يدل كل ماحولهم على رقة الحال .. ولكنه بحكم المهنة فحص ديك المحموم المرتعد ووصف العلاج .. وقال ان ديك منهك الى اقصى حد ، وانه حطام رجل ، وعرضة للاصابة بأي مرض آخر .. وكان حديثه الى ماري شديد اللهجة ، بقصد تخويفها حتى تنشط للعمل .. ولكن لسان حالها كان يقول : وما الفائدة ؟ ..

وفي النهاية انصرف الطبيب مع تشارلي سلاتر الذي كانت افكاره تدور في اتجاه آخر ... فقد بدا له انه عندما يملك المزرعة فسوف يجري فيها تعديلات جذرية ..

وسهرت ماري قرب ديك في الليلتين الاوليين من مرضه جالسة على كرسي صلب لكي تظل مستيقظة وهي تشد الاغطية من حول

المريض .. غير أن حالة ديك لم تكن شديدة السوء مثلما كانت في المرة الأولى .. وهو لم يكن خائفا هذه المرة ، لعلمه ان النسوبة ستستغرق دورتها المعروفة ..

ولم تبذل ماري جهدا للاشراف على العمل في المزرعة ، ولكن رغبة منها في تهدئة ديك ، قامت بدورة في السيارة خلال المزرعة ثم تكن تفقدية بقدر ما كانت مظهرية ، وقد ألفت العمال متسكعين ، بيد أنها لم تكن مبالية ، فقد غدت المزرعة في نظرها شبيها لا يعنيتها ...

وفي النهار بعد ان كانت تفرغ من اعداد المشروبات الباردة لديك وهي كل ما كان يتناوله - كانت تجلس متكاسلة قرب الفراش مستغرقة في خدرها المعهود دون ان تفكر في شيء ... وكان موسى يأتيها بصحفة الطعام في المواعيد المعتادة ، فكانت تأكل بصورة آلية دون ان تتزود الا بالقليل .. وفي اليوم الثالث سألها موسى وهو يمزج باللبن بيضة جاء بها من مقر اقامته :

- هل نامت « السيدة » في الليلة الماضية ؟ ..

كان سؤاله بذلك الأسلوب السهل المباشر الذي كان يجعلها مغلوبة على أمرها لا تدري كيف تجيب

وقد ردت وهي تنظر إلى اللبن الفائر متحاشية عينيه :

- لا بد ان اسهر بجائب « الرئيس » ..

- وهل نامت السيدة في الليلة الأخرى ؟ ..

قردت بنعم ، واسرعت إلى غرفة النوم بالشراب ..

كان ديك ممتددا في سكون ، تغشاه الحمى ، ويرهقه النوم ، ويفمره العرق .. وكانت حرارته تتزايد طوال النهار ، ثم تهبط عند منتصف الليل ، فيشكو من البرد ويطلب مزيدا من الاغطية ، حتى اضطرت ماري إلى تسخين أحجار في الفرن ووضعها عند قدميه بعد لفها بقماش ..

وفي تلك الليلة جاء موسى إلى غرفة النوم وطرق الأظفار الخشبي كما كان يفعل دائما .. فواجهته ماري من خلال طيات ستار الخيش المزوق قائلة :

- نعم ؟ ..

- « السيدة » ستبقى في هذه الغرفة هذه الليلة ، وسأبقى أنا

مع « الرئيس » ..

فقال ماري وهي تفكر في ليل طويل تقضيه في سهر مع هذا الرجل :

— لا ... لا .. عد الى مقر اقامتك ونم هناك .. سأبقى انا مع « الرئيس » ...

غير انه تقدم من خلال الستار حتى تراجعت قليلا اذ رآته قد زاد اقترابا منها .. ورات يده ممسكة بكيس خيش مطوى قدرت انه عدته لفراش ليلي ، وقال لها :

— « السيدة » لا بد ان تنام .. انها متعبة .. والواقع انها شعرت بالبشرة فيما حول عينيها مشدودة جهدا واعياء ، ولكنها قالت باصرار وفي عصبية حادة :

— لا ياموسي .. لا بد ان ابقى انا .. بيد انه تقدم شطر الحائط حيث وضع الكيس بعناية بين دولابين وقال بلهجة المتأذى ، بل والمعاتب :

— « السيدة » لا تظن انني سأبأشر « الرئيس » كما يجب ؟ ... انا أيضا امريض احيانا .. ساكثر من الاغطية حول « الرئيس » . وأقترب من الفراش قليلا ونظر الى وجهه ديك المحتقن وقال :

— سأعطيك هذا الشراب عندما يستيقظ .. « السيدة » تظن انني لن اعتنى بالرئيس ؟ ..

ظلت ماري مترددة ، ثم قالت بعصبية :

— لا .. لكن لا بد ان ابقى انا .. وكان عصبيتها وترددها كان فيهما الرد الكافي ، فقد انحنى الرجل وسوى الاغطية فوق النائم ، قائلا :

— اذا اشتدت حالة « الرئيس » ، فسوف أستدعي « السيدة » وراته واقفا قرب النافذة يحجب بجسده الضخم النجوم المتناثرة في رقعة السماء البادية من فراغ النافذة ، منتظرا خروجها ، وقد اضاف قائلا :

— ان « السيدة » ستمرض ايضا اذا بقيت بغير نوم .. هكذا ذهبت ماري الى دولابها حيث اخرجت معطفها الكبير ... وقبل ان تبرح الغرفة قالت لكي تؤكد سلطتها :

— عليك ان تناديني اذا استيقظ .. وذهبت بحركة غريزية الى ملاذها ، الاريقة ، في الغرفة المجاورة حيث كانت تمضي الكثير من ساعات يقظتها ، وجلست مغلوبة على

أمرها ، في ركن منها .. ولم تستطع أن تفكر في وجود موسى ، طوال الليل ، على هذا القرب الشديد منها ، ولا حائل بينهما سوى حائط الطوب الرفيع ..

وبعد فترة دفعت الوسادة إلى رأس الأريكة ، ثم تمددت وغطت ساقيها بالمعطف ..

كانت الغرفة محتبسة الهواء تلك الليلة ، تغلب عليها العتمة والظلال فيما عدا دائرة من الضوء الحسنى المرسل من المصباح الوانى إلى المائدة في وسط الغرفة .. وقد أدارت رأسها قليلا لتنظر إلى الستائر فوق النافذة ، فكانت جد ساكنة .. وعندما أرهفت سمعها بدت لها الاصوات الخافتة السارية من الغابة متعالية فجأة متزايدة مثل دقات قلبها .. وسمعت حركة أغصان ذات حفيف ، وكأن شيئا ثقيلًا كان يشق طريقه من خلالها ، وفكرت والخوف يستحوذ عليها في الشجيرات الكثيفة الرابضة في كل ماحولها .. أنها لم تألف قط هذه الغابة ، ولم تشعر يوما بالطمأنينة في جوفها حيث الحيوانات الصغيرة في حركة دائبة ، والطيور الغريبة تنشق بلا انقطاع ..

هكذا تمددت ماري فوق الأريكة مرهفة مشدودة الحواس ، ترتعش مثل حيوان صغير مطارد يتلفت لمواجهة مطارديه ، شاعرة بوضوح في كل كيانها من أثر الجهد العصبى .. لقد جعلت تنصت إلى الليل في الخارج ، وإلى قلبها الخفاق ، وإلى أصوات تصدر من الغرفة المجاورة .. فلم تلبث أن سمعت حفيف أقدام تتحرك فوق الحصير الرفيع ، وصليل أكواب تتحرك ، وعميقة خافتة من الرجل المريض .. وبعدها سمعت حركة الأقدام عن كذب ، ثم صوت جذب كيس الخيش بين الدواليب لكي يتمدد موسى فوقه .. هكذا هو مائل في الغرفة المجاورة ، لا يفصل بينه وبينها سوى ذلك الحائط الرفيع ، إلى حد أنه لو زال هذا الحائط لكان ظهره لا يبعد عن وجهها بأكثر من ست بوصات ! .. تخيلت الظهر العريض القوى العضلات ، فلم تتمالك أن ارتعدت .. كانت صورته تملك عليها حواسها إلى حد خالت معه أنها تشم رائحته الحارة النفاذة ... فأدارت رأسها إلى جانب ، ودفنت وجهها في الوسادة

ولبثت فترة مديدة لاتسمع شيئا ، فيما عدا صوت تنفس خفيف منتظم .. أهو ديك ؟ .. لكن ديك غمغم ثانية ، وعندما نهض موسى لتسوية الاغطية ، توقف صوت التنفس ..

وعاد موسى ثانية الى مضجعه ، حيث استشعرت انزلاق ظهره عند الحائط ، وبدء التنفس المنتظم من جديد ..

وظلت هذه الحركات تتكرر كلما قلب الرجل المحموم وخف موسى الى جانبه ، حتى غلبها النوم اخيرا ...

كان نوما مضطربا تخالطه الاحلام .. ومرة استيقظت منتفضة لدى حركة ، ورات الهيكل الضخم القائم يزيح الستائر .. فكتمت انفاسها .. بيد انه لدى سماع حركتها صوب نظيرة عجلي الى ناحيتها ثم اشاح عنها ، ومزدون صوت من الباب الاخر الى المطبخ ... كان خارجا لقضاء حاجته كما فهمت .. وقد تتبعته بعقلها وهو يجتاز المطبخ ويفتح الباب ويختفي في الظلام وحده .. فأعادت رأسها الى الوسادة ثانية وهي ترتعد ، وبدا لها انه عائد عاجلا .. فتمددت مكانها جامدة حتى تبدو وكأنها نائمة .. بيد انه لم يعد على الاثر ، وبعد انتظار دقائق خفت ماري الى غرفة النوم حيث كان ديك بلا حراك .. ولما لمست جبينه ألقته رطبا باردا ، فعرفت ان الوقت يناهز منتصف الليل .. ولم يلبث ان سمعت حركة الستائر ، وسرى نسيم رطب مس رقبتها .. فأغلقت جانب النافذة القريب من الفراش ... وما ان سمعت صوتا من الخلف حتى سارعت الى الأريكة تستلقى كما كانت .. وبعدها سمعت خطى موسى وهو يمر عن كثر منها الى مرقده في الجانب الاخر للحائط ، ولمحتة ينظر نحوها لكي يرى أنها نائمة .. الان شعرت بأنها في تمام اليقظة ولم تستطع ان تعاود النوم .. وكان ديك ساكنا الآن ، ولم يصدر من الغرفة الاخرى سوى صوت التنفس اليسير المنتظم ..

ثم أخذ النوم بمعاقد أجفانها مرة أخرى .. وفي هذه المرة تراءت لها أحلام مروعة ..

عادت طفلة من جديد ، تلعب في الحديقة الصغيرة المتربة أمام بيت أبويها ، مع أترابها من أطفال كانوا في الحلم بلا وجوه .. ثم سمعت أمها تناديه بصوتها الحاد لكي تدخل الى البيت : فتركت الحديقة متمهلة وصعدت الى الشرفة وهي خائفة .. فلم تجد أمها وهكذا دلفت الى القرقة الداخلية .. وعند باب قرقة النوم توقفت

مغمومة .. فقد أبصرت أباهما القصير المستكرش الذى تفوح منه رائحة الجعة والذى تكرهه ، محتضنا أمها وهما واقفان قرب النافذة ... وكانت أمها تتظاهر بالمقاومة متعابثة .. وعندما انحنى أبوها فوق أمها جعلها هذا المشهد تفر مبتعدة ..

وفى موضع آخر من الحلم تراءى لها انها استيقظت من النوم فى بيتها هذا فى المزرعة وظلت فترة طويلة تنصت الى صوت التنفس اليسير المنتظم فى الغرفة المجاورة .. ثم ساد السكون حتى تملكها رعب متزايد لم تستطع معه ان تدير رأسها خوفا من اقلاق موسى خلال الحائط الفاصل بينهما .. وفى تقلبات الحلم زادت اقتناعا بأن ديك قد توفى ، وان موسى ينتظر قدومها الى الغرفة المجاورة .. وفى محاولة مستميتة غابت رعبها ونهضت عن الارىكة وتقدمت الى وسط الغرفة بجهد جهيد ، ووقفت تقيس المسافة الفاصلة بينها وبين غرفة النوم وقد تراءت لها اشكال جلود الحيوانات على الأرض مرعبة وكأنها تتحرك نحوها فى ضوء المصباح المهتز .. فلم تتمالك أن فرت الى الباب للأفلات منها .. ووقفت محاذرة ومدت يدها لازاحة الستار الثقيل ونظرت من فرجته .. كان كل ما أمكنها رؤيته هو هيكل ديك ممددا ساكنا تحت الاغطية .. ولم تستطع أن تبصر موسى ، ولكنها كانت تعرف انه قائم ينتظرها فى العتمة .. ولما أزاحت الستار اكثر امكنها ان تراه نائما ، مقرفصا عند الحائط ، منهاكا بعد طول سهر .. وفى الحلم توقعت أن ترى شيئا من واجباته لم يتم كما كان يحدث فى اليقظة ، ولكنها بعد النظر الفت كل شئ على مايرام .. ومرة أخرى اتجهت بنظرها الى ديك الذى كان ممددا فى الفراش دون حراك ، فتقدمت نحوه فى سكون وظهرها الى النافذة .. وعندما انحنت فوقه شعرت بهواء الليل الرطيب يلفح كتفيها ، فقالت لنفسها مفضبة ان الخادم قد فتح النافذة مرة أخرى وتسبب فى موت ديك بردا .. وبدا ديك قبيحا فى موته ، مصفر الوجه ، فاغر الفم، محمق العينين ... وفى الحلم مدت يدها للامسة جثمانه ، فكان باردا ، ولم يخامرها سوى الارتياح والغبطة .. وفى نفس الوقت شعرت بالتأثم بسبب غيبتها ، وحاولت ان تبعث فى نفسها الحزن الذى ينبغى ان تستشعره .. وفى وقفها تلك منحنية فوق ديك ، كانت تعرف ان موسى قد استيقظ واخذ يراقبها

... ودون أن تدبر رأسها أحست أنه قام واخذ يتقدم نحوها ..
وبدا كأن الغرفة قد اتسعت وانفسحت وأنه يقترب منها ببطء من
مسافة شاسعة .. هكذا وقفت متصلة رعبا والعرق البارد
ينحدر من جسدها .. ومضى يقترب منها ببطء ، ماردا عريضا ،
ولم يكن هو وحده ، ولكن كان معه أبوها الذي اخذ يتوعدا ..
وتقدم الاثنان معا ، شخصا واحدا ، وكان بوسعهما أن تشم
لا رائحة موسى ، بل رائحة أبيها المشبعة بالبيرة ... كانت رائحة
عطنة اقرب الى رائحة الحيوانات ، وقد ملأت جو الغرفة ، ومن
شدة وطأتها وسعت خياشيمها التماسا للهواء النقي وهي تشعر
بدوار .. ولم تتمالك في ابان شبه الغيبوبة التي ألمت بها ان
أسندت ظهرها الى الحائط تشددا ، فكادت تقع من خلال النافذة
المفتوحة .. وقد اقترب منها ووضع يده على ذراعها .. وكان
الصوت الذي سمعته هو صوت موسى .. وراح يعزيها في وفاة
ديك مواسيا حاديا ، ولكن في نفس الوقت كان أبوها المتوعد الفظيع
هو الذي لامسها في رغبته ...

ثم صرخت بعد أن أحست فجأة أنها كانت نائمة وتحت كابوس
... صرخت وصرخت يائسة ولهي ، محاولة ايقاظ نفسها
من هذا الهول .. وناجت نفسها : ان صرخاتي لا بد أن توقظ ديك
.. وأنشأت تتملص وتكافح للخلاص من غواشي النوم .. وافلحت
في اليقظة والجلوس لاهثة الانفاس ..

ألفت موسى واقفا بجانبها محمر العينين ونصف نائم ، يقدم
اليها الشاي في الصحفة .. كانت الغرفة مملوءة بضوء رمادي
كثيف ، والمصباح المشتعل يرسل شعاعا سيرا فوق المائدة ..
وعند رؤيتها موسى ومازال فزع الحلم يراودها ، اذا هي تنكمش
على نفسها فوق الاريقة ، بأنفاس متلاحقة وغير منتظمة ، وهي
تراقبه في نوبة فزع غامر ... وما لبث أن وضع الصحفة بحركة
مهتزة بسبب أعيائه ، وهي تجاهد في وعيها للتفريق بين الحلم
والواقع ...

قال الرجل وهو يراقبها باستغراب :

— « الرئيس » نائم ...

وعندها تلاشت من ذهنها فكرة موت ديك ...
ومع ذلك ظلت تراقبه بحذر ، عاجزة عن الكلام .. وراحت في

وجهه الدهشة لخوفها ، وجعلت تراقب ما ارتسم فى ملامحه من تلك النظرات التى كثيرا ما رأتها اخيراً : مزيج من السخرية ، والتأمل ، والصرامة ، وكأنه يسبر غورها .. وفجأة قال بركة :

- « السيدة » خائفة منى ؟ ..

كان الصوت هو الذى سمعته فى الحلم ، وما ان رن فى سمعها الان حتى وهى منها الجلد واخذت ترتعد .. فجاهدت نفسها للسيطرة على صوتها ، وردت بعد دقائق فى شبه همس :

- لا ، لا ، لا .. لست خائفة ! ..

وهنا تقمت على نفسها لانكار شيء لا يمكن بحال ان تعترف بحدوثه ...

ثم رآته يبتسم ، وراقبت عينيه تستقران على يديها اللتين كانتا ترتعدان فى حجرها .. وارتفعت عيناه ببطء مروراً بجسدها حتى وجهها ، مستوعبتين الكتفين المنحنيين ، والجسد المنضبط فى الوسادة التماساً للسند ..

وقال فى سر وبلا كلفة :

- لماذا تخاف « السيدة » منى ؟ ..

فقالت بلهجة شبه هستيرية وبصوت عالى النبرات وهى تضحك ضحكة عصبية :

- لا تكن سخيفاً .. انا لست خائفة منك ..

وما ان سمعت الكلمات تخرج من فيها ورات التعبير المرتسم فى وجه الرجل حتى كاد يغمى عليها .. فقد رآته ينظر اليها نظرة طويلة ، وانية ، لا وزن لها وغير ذات مدلول ، ومالبث ان استدار وخرج من الغرفة ..

وعندما ذهب شعرت كأنها اعتقت من محنة قاسية .. فجلست متهافئة راعشة ، مفكرة فى الحلم ، محاولة تبديد غواشى الهلع الذى لا يسته فيه ...

وبعد فترة صبت لنفسها بعض الشاي الذى اراقته فى طبق الصغير .. ثم تحاملت على نفسها كما فعلت فى الحلم وتقدمت الى الغرفة المجاورة .. ألقت ديك نائماً فى هدوء ، وبدأ أحسن حالا .. فتركته دون أن تلمسه وخرجت الى الشرفة حيث وقفت مستندة الى الحاجز الحجرى القارس واخذت تستنشق هواء

الصبح الرطيب .. لم تكن الشمس قد أشرقت بعد .. وكانت السماء صافية الاديم ، تخالطها خيوط وردية من الضوء ، ولكن الظلام مابرح غالبا على الاشجار الساكنة .. ولمحت دخانا يسيرا يتصاعد من اكواخ عمال الزراعة فى محلتهم ، فادركت ان عليها أن تذهب وتقرع الناقوس ايدانا ببدء عمل اليوم ..

وطوال هذا النهار جلست فى غرفة النوم كالمعتاد تراقب ديك وهو يتمثل للشفاء ساعة بعد ساعة ، وان بقى شديد الوهن ..

ولم تذهب يومها هذا الى المزرعة متفقدة .. وتجنبنا لقضاء موسى .. فقد شعرت بأنها تفتقد الثقة بالنفس الى حد بعيد ، وليست لديها القوة لمواجهة .. وعندما خرج من البيت بعد الغداء فى فترة راحته ، اسرعت الى المطبخ فى شبه خفية واعادت المشروبات الباردة لديك ، ثم عادت ادراجها وهى تنظر خلفها كمن هو مطارده ..

وفى تلك الليلة اوصدت كل ابواب البيت ، ودلفت الى الفراش بجانب ديك ، جامدة القرب منه ، ربما لأول مرة منذ زواجهما .. وعاد ديك الى عمله بعد اسبوع ..

ومن جديد اخذت الايام تتعاقب سراعا يوما بعد يوم - الايام الطوال التى قدر لها أن تمضيها وحيدة فى البيت مع موسى ، وديك غائب فى المزرعة .. لقد آلت نفسها تكافح ضد شيء لم تستطع له فهما .. وبتعاقب الوقت غدا ديك عندها اقرب الى الوهم منه الى الواقع ، فى حين غدا التفكير فى موسى مستحوذا عليها .. كان بمثابة كابوس .. فهذا الرجل القوى كان على الدوام فى البيت معها ، وهكذا لم يكن ثمة مهرب من وجوده .. فكان هذا هو الاستحواذ المسيطر عليها ، ولم يكدها يبقى لديك من وجود لديها .

منذ اللحظة التى كانت تستيقظ فيها صباحا لتجد موسى قائما امامهما بالشاى ، مشيحاً بعينه عن كتفها العاريين ، وحتى اللحظة التى يخرج فيها من البيت - لم تكن ماري لتستطيع ان تتحرر من محاولة الابتعاد عن طريقه .. واذا وجدته فى غرفة ذهبت الى التوتر العصبى .. وكانت تمارس عملها المنزلى فى خوف دائم ، غرفة اخرى .. وكانت لاتنظر اليه ، عالمة ان فى التقاء عينيه بها عينيه خطرا داهما ، اذ كانت ذكرى خوفها منه ، وكيفية حديثها اليه فى

تلك الليلة ، ماثلة دائما في إخطارها ... واصبحت الآن تصدر اليه
أوامرها متعجلة ، في صوت متوتر ، ثم تسارع بمفادرة المطبخ ..
وغدت ترتاع من سماع كلامه ، اذ طرأت على صوته نبرات جديدة
من رفع الكلفة ، والاجترأ ، والتسلط .. وكثيرا ما همت ان تطلب
من ديك ان يطرده ، بيد أنها لم تجسر على هذا قط .. كانت دائما
تمسك عن هذه المحاولة ، اشفاقا مما يعقبها من غضب ديك .. غير
أنها كانت تشعر كما لو كانت في نفق مظلم ، مقتربة من شيء نهائي
فاصل - شيء لم تستطع ان تتصوره ، ولكنه ينتظرها بلا رحمة فيه
ولا مهرب منه .. ومن ناحية موسى ، فان مسلكه في حركاته وفي
لهجة كلامه ، بما ينضح فيه من الاعتداد والقحة والقسر - كان
ينبئها بأنه ينتظر هو الآخر .. كانا مثل خصمين يتحفران في صمت
... والفرق بينهما انه هو القوى الواثق بنفسه ، وهي المنهارة من
الخوف ، بسبب لياليها المفعمة بالاحلام المرعبة ، وذلك الاستحواذ
الذي ملك عليها شعاب نفسها ...

الفصل العاشر

على الرغم من تمسك ماري وديك بحياة العزلة التي كانت مشار الاستغراب في ارجاء المنطقة ، فان تشارلى سلاتر وزوجته لم يفقدا الاهتمام بهذين الزوجين الغريبين الاطوار ، ولاسيما تشارلى الذى كان يريد الاستيلاء على مزرعة ديك لضمها الى اراضيه واتخاذها مراعى لقطعان مواشيه المتكاثرة - وذلك برغم انه يمتلك مزرعة مساحتها خمسمائة فدان ، اى ضعف مزرعة ديك خمس مرات ، اشباعا لنزعته فى المزيد من الثراء ... وهكذا عندما تذكر سلاتر ذات يوم انه لم يلتق بديك منذ نحو عامين ، فقد شد رحاله عصر ذلك اليوم ، واتجه بسيارته الى مزرعة ديك ..

ولدى وصوله شاهد ديك جالسا فوق حجر كبير قرب مخزن الحبوب يراقب العمال وهم يختزنون محصول الذرة بعيدا عن طائلة النمل فوق الواح من الصاج مدعمة بالطوب .. وعند رؤية القادم تطلع ديك اليه من تحت قبعته العريضة واوما برأسه مسلما .. فقال له سلاتر وهو يراقب اكياس الحبوب المتقادمة العطنة التى قدر فى نفسه انها لن تدوم مدى العام :

- جئت لكى اطمئن على احوالك .. اننى لم ارك منذ شهر طويل ..

فقال ديك وهو ينهض متثاقلا :

- لا بأس .. هذا يوم آخر يوشك ان ينتهى .. وعندما لاحظ سلاتر ان ديك اخذته رعدة رغم حرارة الطقس قال له :

- هل بك حمى ؟ ..

- كلا .. لا تظن هذا .. هو الدم يتناقض بمضى العمر ! ..

فقال تشارلى وهو ينظر الى يديه الراعشتين وكتفيه المقوسين :

- العلة فيك اكثر من تناقص الدم .. هل الحمى تعاودك كثيرا
هذه الايام ؟ ..

فاجاب ديك :

- اننى مرضت بها مرتين فى السنة الماضية ..

- هل ترعاك الزوجة كما يجب ؟ ..

فبدت امارات القلق على وجه ديك وهو يقول :

- نعم ...

- وكيف حالها ؟ ..

- احوالها كما هى ...

- هل كانت مريضة ؟ ..

- لا ... لم تكن مريضة .. لكنها ليست على مايرام .. انها

تبدو عصبية ، ومرهقة ... انها اقامت فى المزرعة اكثر من

اللازم ..

ثم تلاحقت الكلمات من فيه وكأنه لم يستطع ان يفالس

نفسه :

- انا فى اشد القلق عليها ...

- لكن ماهى مشكلتها ؟ ..

قال تشارلى هذا بصوت حياى ، بيد انه لم يرفع نظراته طوال

الوقت عن وجه ديك ...

فى خلال ذلك كان العمال قد فرغوا من نقل الحبوب الى داخل

المخزن واخذوا يتقاطرون عائدين الى محلتهم فى هذه الامسية ..

ولكن ديك تحاشى الرد على السؤال ، متشاعلا باغلاق باب المخزن

... ثم قال لصاحبه :

- هلا ذهبنا الى البيت ؟ ..

فاوما تشارلى ايجابا .. ثم قال وهو ينظر حواليه :

- اين سيارتك ؟ ..

- آه .. انا امشى هذه الايام ..

- هل بعثها ؟ ..

- نعم .. كانت تكلفنى اكثر من اللازم .. وانا ارسل العربة

الى المحطة اذا احتجت الى شىء ..

وركبا سيارة تشارلى الضخمة .. وفى الطريق عاود تشارلى

سؤاله عن ماري ، قائلا :

— ما هذا الذى كنت تقوله عن زوجتك ؟ ..

— انها ليست على مايرام ..

— لكن ما السبب يارجل ؟ ..

لم يجب ديك فترة .. واخيرا راح يقول :

— لا أعرف .. انها مختلفة عما كانت .. احيانا اظن انها تحسنت

كثيرا ... من الصعب ان يصف الانسان احوال النساء .. انها ليست كما كانت .

فقال تشارلى بالحاج :

— لكن باى كيفية ؟ ..

— حسن ... اقول لك على سبيل المثال .. عندما جاءت الى

المزرعة لأول مرة كانت وافرة الحيوية والنشاط .. اما الآن فانها

لا تبالى ، ولا تهتم باى شىء .. انها تجلس ببساطة ولا تفعل شيئا

... بل انها لا تكلف نفسها عناء الاهتمام بتربية الدجاج كما كانت

تفعل ، وغيرها من الدواجن .. وانت تعرف انها كانت تجنى بعض

الايراد الاضافى كل شهر .. وهى لا تهتم بما يفعله الخادم فى البيت

... و احيانا كانت تثير جنونى بتدميرها المتواصل .. تدمر

وشكوى طوال اليوم .. أنت تعرف كيف تتغير احوال النساء عندما

يبقين فى المزرعة مدة طويلة ..

فقال تشارلى :

— مامن امرأة تعرف كيف تتعامل مع الخدم هنا ...

فقال ديك وهو يضحك ضحكة تشف عن التعاسة :

— المهم اننى قلق جدا ...

وفجأة قال تشارلى :

— اسمع ياتيرنر .. لماذا لا تتخلص من العملية كلها وتفارق هذا

المكان ؟ .. انك لا تصنع خيرا لالنفسك ولا لزوجتك ..

— آه .. أنا نكافح ..

— انت مريض يارجل ! ..

— انا بكل خير ..

وتوقفت السيارة خارج البيت .. وكان الضوء ينبعث من

الداخل ، لكن مارى لم تظهر .. ولاح ضوء آخر من غرفة النوم ،

فقال ديك :

- انها تغير ملابسها ..
 وشفت لهجته عن السرور وهو يضيف قائلا :
 - لم يحضر أحد عندنا منذ مدة طويلة ..
 - لماذا لا تبيع المزرعة لى ؟ .. سأعطيك ثمنها طيبا لها ..
 فقال ديك فى ذهول :
 - والى أين يمكن ان اذهب ؟
 - اذهب الى المدينة .. ابعد عن الارض .. انت غير صالح
 لاعمال المزارع .. اوجد لنفسك عملا ثابتا فى اى مكان فى
 البلدة ..
 فقال ديك باستياء :
 - انا اكافح ما امكن ...
 ولاح خيال امرأة نحيلة فى الضوء لدى الشرفة ، فنزل الرجلان
 من السيارة ودخلا الى البيت .. وقال سلاتر :
 - مساء الخير يامسنز تيرنر ..
 - مساء الخير ..
 راح تشارلز يتفرس فى وجهها بامعان عندما تقدا الى الغرفة
 المضائة ، بسبب لهجتها وهى ترد التحية .. وظلت واقفة امامهما
 مترددة وهى اقرب الى امرأة عجفاء بشعرها المدلى حول وجهها
 المهزول والمعقود فوق رأسها بشريط أزرق .. وكان عنقها الناحل
 المصفر بارزا من ثيابا ثوب رخيص بدا أنها لبسته توا ، وتدلى من
 اذنيها قرط طويل ملون كان يرتطم برقبتها مهتزا لدى كل حركة
 ... وشفت عيناها الزرقاوان اللتان كان الناظر اليهما يتوسم
 فيهما الحياء والترفع والحساسية عن بريق جديد غير معهود
 فيهما ...
 ثم قالت بلهجة طفولية :
 - عجبا .. يامستر سلاتر ! .. لم يحصل لنا السرور برؤيتك منذ
 مدة طويلة ...
 وشفت هذا بضحكة وهزة من كتفيها كانت اقرب الى التدلل
 الشنيع ...
 لم يتمالك ديك ان اشاح بنظره مكسروبا .. وجعل تشارلى
 يحدق اليها طويلا تحديقا سافرا حتى احمر وجهها وانشئت الى
 جانب هازة رأسها ، وقالت لديك :

— ان مستر سلاتر لا يحبنا ، والا لجاء لرؤيتنا اكثر من
هذا ..

وجلس في ركن من الاريكة العتيقة التي فقدت شكلها واستحالت
الى نتوءات وفجوات غطتها قطعة قماش ازرق حائل اللون ..
وقال تشارلى وعينه على قطعة القماش ..

— كيف حال المتجر ؟ ..

فاجاب ديك بحدة :

— صرفنا النظر عنه .. لم يجلب لنا اى ربح .. ونحن نستهلك
ماكان فيه من موجودات ..

وادار تشارلى نظره فى ارجاء الغرفة مقطباً ... كانت الستائر
ممزقة ، وزجاج احدى النوافذ مكسوراً ومغطى بالورق .. وكان
اثاث الغرفة كلها فى حالة يرئى لها من التلف والترقيع ، حتى لقد
شعر سلاتر بمرحه الخشن المعهود يذهب عنه ولزم الصمت
مقطباً ...

وقال له ديك فى النهاية :

— هل تحب ان تبقى لتناول العشاء ؟ ..

فقال تشارلى :

— لا ... شكراً .

ثم غير رايه من قبيل الفضول وقال :

— نعم ... سابقى ..

ودون وعى كان الرجلان يتكلمان وكأنهما فى حضور انسان
مريض ، بيد ان ماري تحاملت على نفسها قائمة من المقعد وصاحت
من مدخل الغرفة : موسى ! .. ياموسى ! ..

ولما لم يظهر الخادم التفتت اليهما وقالت مجاملة فى استحياء :

— معذرة .. لكنكم تعرفون تصرف هؤلاء الاولاد ! ..

وخرجت .. وبقي الرجلان صامتين .. وكان ديك مشيحاً براسه
عن تشارلى ، الذى راح يحدق فيه طويلاً كأنما يحاول ان يجبره
على التفسير او الاعتراف بما هناك ..

وكان طعام العشاء الذى جاء به موسى مؤلفاً من صحفة بهسا
شاي وخبز وزبد زنج وقطعة من اللحم البارد .. ولم تبد قطعة
من الحزف سليمة .. وشعر تشارلى بسكينة ملوثة بالشحم ،

وراح يأكل مزورا دون محاولة لاختفاء ازوراره ، فى حين لم يقل
ديك شيئا ، وكانت مارى تبدى فجأة ملاحظات غير مترابطة عن
حالة الطقس بذلك الخضر المروع وهى تهز قرطبيها وكتفيها الناحلين
وترمق ديك بنظرات متحيرة خادعة ..

وعن كل هذا لم يبد تشارلى أدنى تجاوب ، وانما كان يقول
« نعم يامسز تيرنر » أو « لا يامسز تيرنر » - متطلعا اليها ببرود ،
ونظرات صارمة تشف عن الاحتقار والنفور ..

وعندما جاء الخادم لآخذ الاطباق حدث شيء جعله يضبط على
أسنانه ويمتقع غضبا .. فقد كانوا لا يزالون جالسين حول بقايا
الطعام الفث بينما كان الخادم يدور حول المائدة ليجمع الاطباق
متباطئا ولم يلحظ وجوده حتى تشارلى ، واذا مارى تقول :

- هل تحب بعض الفاكهة يامستر سلاتر ؟ .. موسى : هات
البرتقال .. انت تعرف مكانه ..

وهنا رفع تشارلى نظره وهو يحرك فكيه بالطعام الذى يمضغه
وقد بان الاهتمام فى عينيه .. فان نبرات صوت مارى عندما
خاطبت الخادم قد صكت سمعه ، اذ كانت تشف عن رفع الكلفة
والعفوية كلهجتها مع ديك ومعه ...

وقد رد عليها الخادم على الفور بلون من الخشونة :

- البرتقال انتهى ...

فقالت له مارى بما هو اقرب الى الاستعطاف وهى تتطلع اليه
فى ركوان :

- انا عارفة ان البرتقال لم ينته .. هناك برتقالتان باقيتان ..

- البرتقال انتهى ..

لقد كرز عبارته السالفة باستياء ولا مبالاة واعتداد بالنفس جعلت
تشارلى يحبس أنفاسه برهة عاجزا عن الكلام ... وتطلع الى ديك
الذى كان جالسا يحدق فى يديه حتى استحال على تشارلى أن يعرف
ان كان مستغرقا فى التفكير أو أنه لاحظ أى شيء على الاطلاق ..
ولما حول نظره الى مارى الفى وجهها المصفر شأبته حمرة واكتسى
مسحة من الخوف لا تخطئها العين .. فقد بدا انها فهمت أن
تشارلى لاحظ شيئا ، وراحت ترمقه بعينيها فى تأثم وهى
تبسم ...

اخيرا قال تشارلى مومثا برأسه الى ناحية موسى الذى كان واقفا لدى الباب يتسمع جهاراً :

— منذ متى يعمل عندكم هذا الولد ؟ ..
تطلعت مارى الى ديك مغلوبة على امرها .. فقال بلا اكتراث :
— منذ اربع سنوات ، كما اظن ..
— ولماذا تبقونه عندكم ؟ ..

فاجابت مارى وهى تهز رأسها :
— هو ولد طيب ، يقوم بالعمل جيداً ..
فقال تشارلى بخشونة وهو يتحداها بعينيه :
— لا يبدو انه هكذا ...

لكنها زأغت بعينيهما وبان فيهما القلق .. وفى نفس الوقت بدا فيهما بريق شف عن ارتياح خفى جعل الدم يصعد الى دماغ تشارلى حتى مضى يقول :

— لماذا لا تتخلصون منه ؟ .. لماذا تتركينه يكلمك بهذه اللهجة ؟ ..
لم تجب مارى .. فقد أدارت رأسها واخذت تنظر فوق منكبها الى ناحية الباب حيث كان موسى واقفاً .. ولاحظت على وجهها مسحة بلاهة تكراء جعلت تشارلى يصرخ فجأة فى الخادم :

— اخرج من هنا ! .. استمر فى عملك ..
اختفى الخادم الضخم ، مطيعاً فى الحال أمر تشارلى .. ثم ساد السكون .. وانتظر تشارلى ان يتكلم ديك ، ان يقول شيئاً يدل على انه لم يستسلم تماماً .. ولكن رأسه مازال منكساً ، ووجهه يشف عن مقاساة صامتة .. واخيراً اتجه اليه تشارلى بالرجاء مباشرة ، متجاهلاً مارى وكأنها غير موجودة ، قائلاً :

— تخلص من هذا الولد ياتيرنر ..

فكان الرد المتباطيء الخاوى :

— ان مارى تفضله ..

— تعال معى الى الخارج .. اريد ان اتكلم معك ..

رفع ديك رأسه ونظر الى تشارلى باستياء .. وكان استياؤه لانه ألفى نفسه يجبر على الاهتمام بشيء كان يريد تجاهله .. بيد انه انتزع نفسه من المقعد وتبع تشارلى الى الخارج .. ونزل الرجلان درجات الشرفة وتقدما مسافة قرب الاشجار ...
وقال تشارلى باقتضاب :

— لابد لك من الابتعاد عن هنا ..

فقال ديك بلهجة عرجاء :

— وكيف لى بهذا ؟ .. كيف يمكننى ان افعل ماتقول وانا مازلت مدينا ؟ ..

وما لبث ان اضاف وكان المسألة مسألة مال ولا صلة لها بأى شىء آخر :

— أنا أعرف ان غيرى من الناس لا يقلقون لهذا .. وأعرف ان كثيرين من اصحاب المزارع يعانون الضيق مثلى ويشتررون السيارات ويذهبون فى اجازات .. لكننى لا اقدر على هذا .. لايمكننى ان افعل هذا ياتشارلى .. ليس هذا من طبعى ..
فقال تشارلى :

— سأشترى منك المزرعة ويمكنك ان تبقى هنا مشرفا عليها ياتيرنر .. لكن لابد ان تبتعد أولا للقيام بأجازة لمدة ستة شهور على الاقل .. لابد ان تبعد زوجتك من هنا ..
كان ديك أبعد عن قبول عرض تشارلى .. فقد شعر أنه يطلب منه التخلّى عن الحياة ذاتها ، ومدلولها عنده المزرعة وملكيته لها ...

ومضى تشارلى يقول بالحاح واصرار :

— سأخذ المزرعة بحالتها القائمة ، واعطيك مايكفى للتخلص من ديونك ... وسوف أستخدم مشرفا لادارتها الى ان تعود من شاطئ البحر ... لابد ان تبتعد لمدة ستة شهور على الاقل ياتيرنر .. ولا يهم الى أى مكان تذهب .. سوف اتكفل بكل النفقات التى تمكنك من هذا .. لن يمكنك ان تستمر فى حياتك هكذا مهما كانت الظروف ..

لكن ديك لم يسلم بمثل هذه السهولة .. وظل يقاوم مدى اربع ساعات .. أربع ساعات فى نقاش محتدم وهما يسيران ذهابا وجيئة تحت الاشجار ...

وفى النهاية استقل تشارلى سيارته ومضى بها دون أن يعود الى بيت ديك .. اما ديك فقد رجع ماشيا بخطى متثاقلة وهو يكاد يتطاوح بعد أن بدا له ان عماد حياته يوشك ان ينهد .. فهو لن يغدو مالكا للمزرعة بعد الآن ، وسيكون مجرد تابع للمالكها الجديد ..

والقى ماري جالسة مكومة على نفسها في ركن الاريكة ، بعد ان زال عنها ذلك التكلف الذي اصطنعته في وجود تشارلي .. وهي لم تنظر الى ديك عندما دخل .. وتوالت ايام بأسرها دون ان تكلمه ، وكأنه غير موجود في نظرها .. وبدا أنها غارقة الى أعماق بعيدة في حلم لها .. وكانت لا تعود الى عالم الحياة والواقع ولا تعي ماهي فاعلة إلا حين يدخل موسى الى الغرفة لعمل شيء ما .. واذا ذلك لا ترفع نظراتها عنه . اما ما كان يعنيه هذا فهو ما لم يعرفه ديك ، ومالا يريد ان يعرفه .. فهو قد تجاوز الان حدود المقايضة في الكفاح ..

اما تشارلي سلاتر فلم يضيع وقتا .. فقد راح يطوف المنطقة بسيارته من مزرعة الى مزرعة محاولا إيجاد شخص يمكن ان يحل محل ديك في الاشراف على المزرعة مدة شهور قلائل .. وهو لم يقدم تفسيرات لهذا المسمى ، والتزم التحرز بصورة غير عادية .. قال فقط أنه يساعد تيرنر في مصاحبة زوجته في رحلته .. واخيرا سمع عن شاب هبط من انجلترا حديثا يريد عملا .. فقصد الى البلدة على الفور بسيارته للبحث عنه وعندما وجدته لم يترك في نفسه أثرا خاصا ، اذ كان من الشباب المتحفظ المعتد بنفسه .. وبعد لقاء قصير عاد به دون ان يخبره الا بالقليل .. قال له ان عليه ان يتسلم زمام الاشراف على المزرعة في خلال اسبوع ، حتى يتمكن ديك من السفر الى الشاطئ ، وانه سيتكفل هو بدفع راتبه وشرح واجباته في العمل .. غير انه عندما ذهب الى ديك ليخبره بما تم ، وجدته على الرغم من تسليمه بضرورة السفر ، معترضا على السفر في الحال ..

ووقف تشارلي وديك والشاب توئي مارستون في أحد الحقول حيث بدا تشارلي غاضبا محتدما لما وجدته من معارضات ديك وعناده وتسويفه في آخر لحظة مما يهدد باحباط خطط تشارلي ، ووقف الشاب مارستون بينهما محرجا محايدا .. وكان ديك يقول :
- بيا لهذا يا تشارلي ! .. لماذا تطردني بهذه الكيفية ؟ انا هنا طوال خمسة عشر عاما ! ..

- استخلفك بالله يا رجل ! .. أنا لا اطردك .. اريدك ان ترحل قبل ان - لابد ان ترحل في الحال .. عليك ان ترى هذا بنفسك ! ..

فراح ديك يقول وقد احمر وجهه النحيل الاسمر :

- خمسة عشر عاما !.. خمسة عشر عاما !..
وانحنى دون وعى وقبض قبضة من التربة واستبقاها فى يده
كمن يتمسك بحقه .. كانت الحركة سخيفة فى نظر تشارلى الذى
علته ابتسامة ساخرة يسيرة ، وقال :
- لكن ياتيرنر .. أنك ستعود الى هنا ..
- لن تكون ارضى !..

واحتبس صوته ، واشاح بنظره ومازال قابضا على التراب ..
واشاح تونى مارستون بنظره جانبا هو الآخر ، متظاهرا بفحص
احوال الحقل ، فهو لا يريد ان يقحم نفسه فى هذا الموقف الحزين ..

اما تشارلى الذى لم يكن لديه مثل هذا الاحساس المرهف فقد
جعل ينظر متبرسا الى وجه ديك المنفل .. لكنه احترم فى دخيلته
هذا التأثير الذى لم يستطع ان يفهمه .. كان يدرك انه وليد الاعتزاز
بالملكية ، نعم ، لكن ليس الى حد هذا التعلق الحار بالتربة ، مجرد
التربة !.. انه لم يفهم هذا ، بيد ان نبراته رقت وهو يقول :

- ستكون الارض فى حكم الملوكة لك .. اننى لن اغير شيئا فى
مزرعتك ولن اقلبها رأسا على عقب .. وسيكون لك ان تستمر فى
الاشراف عليها عندما تعود ، بكل ما يحلو لك ..

فقال ديك بذلك الصوت المحزون المؤثر :

- مجرد احسان ! ..

- ليس احسانا .. اننى ساشتريها منك كعملية تجارية ...
انا فى حاجة الى ارض للمراعى .. سأطلق مواشى فيها الى جانب
مواشيك ، ويمكنك ان تستمر فى زرع محاصيلك كما تحب ..
واخيرا ، وبعد طول جدال ، وافق ديك على السفر فى نهاية
شهر ، بعد ان يشرح لتونى كيف يحب ان يسير العمل فى «ارضه»
... غير ان تشارلى غالطه سرا وحجز تذاكر السفر بالسكك
الحديدية لبعث ثلاثة اسابيع ...

وعاد تونى الى البيت مع ديك ، تخامره دهشة سارة بالعثور
على عمل جديد ولما يمض فى البلاد أكثر من شهرين .. وقد
خصص له كوخ مبنى بالطين الجاف ومسقوف بالقش فى موضع
خلف البيت .. وكان الكوخ فى اول العهد مبنيا بالطوب ، ثم اصبح
خاليا لفترة .. وكان به سرير حديدى قدمه تشارلى ، ودولاب

مصنوع من الصناديق ، وستائر من قماش شعبي شائع ، ومراة فوق حوض يعلو صندوق ملابس .. بيد ان تونى لم يهتم بهذا فى كثير رلا قليل .. فقد كان فى حالة معنوية طيبة ، بل شاعرية ، وكانت هذه الاشياء وغيرها من الطعام الرديء ومراتب السرير المتهاكة غير ذات أهمية فى نظره ..

كان فى العشرين من عمره ، وقد تلقى تعليما طيبا ، وكان امامه احتمال بأن يصبح موظفا فى مصنع لعمه .. لكن الجلوس الى المكتب لم يكن همه فى الحياة ، وقد اختار جنوب افريقيا وطننا ثانيا له لان احد ابناء عمومته قد كسب عشرة آلاف جنيه فى العام الماضى من التبغ .. فقرر ان يحدو حذوه ، بل يحقق احسن منه ان أمكن .. وفى غضون ذلك كان عليه ان يتعلم الحياة .. والشئ الوحيد الذى أخذه على هذه المزرعة هو أنه لا تبغ فيها .. لكن ستة أشهر فى مزرعة مختلطة هى تجربة لا بأس بها ، ولعل فيها الخير له ...

وقد شعر بالاسف من أجل ديك تيرنر ، الذى عرف انه غير سعيد فى حياته .. غير ان هذه المأساة بدت له رومانتيكية .. فقد رأى فيها ظاهرة للتجميع الرأسمالى الزراعى المتنامى فى كل أرجاء العالم ، الذى يقوم على التهام كبار اصحاب المزارع لاصغرهم .. وكانت له آراء تقدمية فى صدد التفرقة العنصرية ، حتى لقد جاء معه بحقيبة مليئة بالكتب عن هذا الموضوع قام برصها فى جانب من الكوخ .. ولكن بعد اسبوع تناول كتابا منها ووجد ظهره قد اكله النمل الابيض ، وهكذا سارع باعادة الكتب الى الحقيبة ولم يقرأ شيئا منها بعد ذلك استنادا الى ان من يشتغل اثنتى عشرة ساعة كل يوم لا يتبها له الاستعداد الذهنى للدرس والمطالعة ..

وكان تونى يتناول وجباته مع الزوجين .. وكان عليه ان يلم بالمعرفة الكافية فى مدى شهر لكى يتاح له الاشراف على المزرعة ستة أشهر حتى يرجع ديك وزوجته من رحلتهما ... فكان يقضى النهار كله مع ديك فى المزرعة ، مستيقظا فى الخامسة صباحا ، وذاها الى فراشه فى الثامنة مساء .. وكان الشاب متحدثا لبقا واسع المعرفة ، او بالاحرى كان يمكن ان يستمع اليه ديك ويتجاوب معه قبل عشر سنوات ... أما الان فكان يحدق

امامه بعينين شاردتين .. كان ذيك لا يعنيه الان فى حضور تونى
سوى تمضية الايام الاخيرة دون أن يفقد مابقى من كرامته واعتباره
الذاتى بالانهيار ورفض السفر نهائيا ... وهو قد تحقق الان انه
لا بد أن يذهب ويرتحل .. ومع ذلك فان مشاعره غدت من الاضطرام
والعنف والشقاء الى حد أنه ذهب يقاوم نوازع جنونية لاضرام النار
فى الحشائش الطويلة ومراقبة اللهب وهو يدمر المروج التى عرفها
حق المعرفة حتى كان كل دغل فيها وكل شجرة بمثابة صديق
شخصى .. او ان يهدم البيت الصغير الذى بناه بيديه حجرا حجرا
وعاش فيه طوال تلك السنين .. فقد بدا له انه لمن الانتهاك
الصارخ ان يصدر احد غيره الاوامر هنا ، وان يزرع غيره تربة المزرعة
وربما يدمر عمله الدائب على مدار السنين الطوال ..

اما بصدد ماري ، فان تونى لم يكن يراها الا لما ... لقد اقلقه
حالتها ، عندما كان يجد الوقت للتفكير فى المرأة الغريبة ، الصامته
الذابلة ، التى بدت وكأنها نسيت الكلام .. ثم كان يبدو منها انها
ادركت ان عليها أن تبذل جهدا لذلك ، فكانت تتكلم مدى لحظات
قصار ، فيغدو كلامها مبهما غير متماسك ، مما يشعر تونى معه
بالحرج والارتباك .. ومع ذلك فقد التمس العذر لهذين الاثنين ،
بعد أن فهم ان حياتهما كانت عسيرة ، ولا شك أن الحياة فى هذه
البقاع وحدهما طوال تلك السنين كافية لان تجعل منهما شخصين
غريبى الاطوار ..

انما الذى حيره فى أحوال ماري هو انها لم تبد مايدل على
سرورها بالرحلة الوشيكة التى فهم تونى انها الاولى فى حياتها
هنا ، ولا أى استعداد لاعداد ما يلزم لها من حزم أمتعة وما الى
ذلك .. بل انها لم تشر قط الى الرحلة ... وكان ذيك مثلها
فى هذا ...

ومهما يكن فقد حدث قبل اسبوع من موعد السفر ان قال
ديك لمارى وهم جلوس اثناء الغداء :
— ما رأيك فى تجهيز الحقائب ؟ ..

فأومات برأسها بعد تكرار السؤال ، بيد أنها لم ترد ..
فقال ذيك برقة ، وبصوته الهادىء اليأس الذى اعتاد ان
يخاطبها به :

— لا بد أن تجهزى الحقائب يامارى ..

بيد أنه عندما رجع تلك الليلة مع تونى ، وجدها لم تفعل شيئاً ... فما كان منه بعد الفراغ من العشاء إلا أن أنزل الصناديق وأخذ يحزم الامتعة بنفسه ... وعندما رآته كذلك بدأت تساعد ، ولكن لم يمض نصف ساعة حتى تركته فى غرفة النوم ، وذهبت الى الاريسة حيث جلست شاردة الحواس ...

ولم يتمالك تونى ان قال لنفسه وهو يتهيباً للذهاب الى فراشه :

— انهيار عصبى تام ! ..

وفى الليلة التالية تولى ديك ايضا حزم باقى الامتعة حتى تم كل شيء .. ولما لاحظ ان ملابس ماري قليلة جدا قال لها :

— خذى قماشاً وجهزى لنفسك فستاناً أو اثنتين ..

فأومات برأسها ، وأخرجت من أحد الادراج قماشاً من القطن المشجر » وبدأت تفصله ، غير أنها مالبثت أن ظلت ساكنة وهى منحنية فوق القماش ، الى ان لمس ديك كتفها وايقظها من غفوتها لكى تذهب الى الفراش ...

ان تونى الذى شهد هذا الموقف استنكف ان ينظر الى ديك .. لقد أحزنه حال الاثنين معا .. والحقيقة أنه شعر بالعطف على ديك وكان فى احساسه هذا صادقا .. اما بصدد ماري ، ففي حين أنه أسف من أجلها ، فما الذى يمكن ان يقوله عن امرأة لم تكن « موجودة » ، حاضرة وغائبة فى وقت واحد؟! .. وقال لنفسه مرة اخرى : « هذه حالة للطبيب النفسانى » .. ذلك وان بدا له ان ديك جدير بمثل هذا العلاج .. فالرجل كان فى حالة انهيار ، وكان يرتعش باستمرار ، وقد سرى الى وجهه نحول شديد حتى بدت العظام من تحت جلده .. وقد فى الواقع لا يصلح للعمل بأى حال ، بيد أنه كان يصر على ان يمضى كل لحظة من نهاره فى الحقول ، ولم يكن يحتمل الابتعاد عنها عند الغروب ، حتى كان تونى يضطر الى أعادته الى البيت ، واصبح عمله الآن شبيهاً بمرض لرجل معتل ، وبدأ يتلف لرحيل الزوجين ..

وقبل ثلاثة ايام من موعد السفر ، طلب تونى ان يسمح له بالتخلف عن الذهاب الى الحقول بعد ظهر هذا اليوم ، لشعوره بوعكة مقترنة بصداغ من تأثير الشمس ، وغشيان فى المعدة .. وقد تخلف ايضا عن وجبة الغداء ، وورق فى الكوخ .. وفى الساعة الرابعة عصراً

استيقظ من نوم مضطرب ، شاعرا بمطش شديد .. ووجد زجاجة
الوبسكى القديمة التى كان يملؤها الخادم عادة بماء الشرب فارغة ،
ولعل الخادم نسى ان يملأها .. فقصده تونى فى وهج الشمس
المصفر لجلب الماء من البيت ..

كان الباب الخلفى مفتوحا ، فتقدم فى سكون خوفا من ايقاظ
مارى ، التى قيل له انها تنام عصر كل يوم .. وقد تناول كوبا من
فوق الرف مسحه بعناية ودخل الى غرفة المعيشة لاخت الماء ..
كان ثمة مرشح زجاجى للمياه قائما فوق الرف الذى كان بمثابة
خوان جانبى .. وعندما رفع تونى غطاء المرشح ونظر فى داخله
الفى الطمى عالقا به ، غير ان الماء كان يقطر منه صافيا ، وان كان
مذاقه عطنا ... على كل حال فقد شرب مرة وثانية ، وبعد ان ملا
الزجاجة استدار للانصراف ..

حانت منه التفاتة الى ناحية الستار القائم بين هذه الغرفة
وغرفة النوم ، فكان مزاحا الى جانب ، واستطاع ان ينظر الى
الداخل ...

لقد صمق وجمد فى مكانه ذهولا ! ..

كانت مارى جالسة فوق صندوق امام المراة المربعة المسمرة
فوق الحائط .. وكانت مرتدية قميص نوم ورديا مبهرجا ، برز
منه كنفها العظيمان المصفران بروزا تاما .. وبجانبها وقف
موسى ...

وفيما كان تونى يراقب مايدور ، نهضت مارى وبسطت ذراعيها
وأخذ موسى يلبسها الفستان من خلف ... وعندما عادت الى
الجلوس اخذت تسوى شعرها عند العنق بيديها ، بحركات امرأة
جميلة مفتونة بجمالها .. وزاح موسى « يزور » لها الفستان
وهى تتطلع الى المراة .. وكان مسلكه كمسلك زوج مفتون بزوجه
مطواع لها ... وبعد ان فرغ من « التزير » تراجع الى الخلف
ووقف يراقب المراة وهى تمشط شعرها ... ثم قالت له بصوت
مرتفع تغلب عليه رنة الامر :

- أشكرك يا موسى ...

ثم استدارت ، وأضافت بالفة :

- يحسن ان تذهب الان .. هذا وقت عودة « الرئيس » ..
فخرج الرجل من الغرفة ..

وعندما أبصر الشاب واقفا هناك ، يحملق فيه غير مصدق ،
تردد هنيهة ، ثم تقدم ومر به خفيف الوطاء بقدميه العاريتين ، ولكن
بنظرات شذراء شريرة ، حتى لقد شعر تونى من شسدها
بالخوف ..

وبعد ان خرج موسى جلس تونى فى مقعد واخذ يجفف العرق
الذى غمره من فرط الحرارة ، وهز رأسه لاستجماع جأشه
المذهوب .. فان أفكاره كانت تضطرم ، وهو لا يكاد يصدق مدلول
ماشهدته عيناه ..

وأفاق من ذهوله لدى رؤية مارى خارجة من غرفة النوم ،
واحدى يديها لاتزال مرفوعة الى شعرها .. كانت ملامح وجهها
تشف عن البهجة ، ممزوجة بالبلاهة .. وما ان شاهده حتى
حملقت فيه بخوف ، ومالبثت ملامحها ان استحالت وتبدلت الى
الخواء واللامبالاة

لم يستطع ان يفهم هذا التبدل المفاجيء فى حالتها ، ولكنه قال
ممازحا بلهجة المخرج :

— كانت هناك أمبراطورة روسية تستخف بالرقيق من خدمها ،
ككائنات بشرية ، الى حد انها اعتادت أن تغير ملابسها وهى عارية
أمامهم

من هذا الجانب فقط كان ينظر الى الموقف .. اما الجانب الاخر
فقد صعب عليه مدلوله ..

فقالت اخيرا متشككة ، ناظرة اليه فى حيرة :

— هل كان هناك هذا ؟ ..

فسألها تونى :

— هل اعتاد هذا الخادم أن يلبسك ملابسك ويخلعها لك
دائما ؟ ..

رفعت مارى رأسها بقوة ، وبان المكر فى عينيها ، ثم قالت وهى
تهز رأسها :

— أن عمله هنا قليل .. ولا بد أن يكسب نقوده ..

ثم فجأة قالت له :

— كانوا يقولون عنى « اننى لست من هذا النوع » ! .. لست
من هذا النوع ! .. لست من هذا النوع ! ..

فقد رددت العبارة مثل « فونوغراف » توقف عند مقطع واخذ يكرر الكلمات ..

اما تونى فقد سألها وهو عازب الذهن :
- « لست من هذا النوع » ؟! ..

والواقع أن تلك العبارة التى كررتها المرأة بلهجة خفية مأكرة ولكن منتصرة ، جعلته يقول لنفسه انها امرأة مجنونة .. بيدانه راجع نفسه مستدركا : لا يمكن ان تكون مجنونة ، لانها لا تتصرف كالمجانين .. انما تتصرف وكأنها تعيش فى دنيا خاصة بها ، لاتحفل فيها بالمعايير السارية لدى غيرها من الناس .. لكن ماهو الجنون ؟. اليس هو الملاذ لمن ينسحبون من دنيا الناس حولهم ؟!

هكذا فكر تونى المتحير المحزون وهو جالس على الكرسي بجانب مرشح الماء ومازال الكوب والزجاجة بين يديه ، محدقا بقلق فى مارى ، التى انشأت تتكلم بصوت هادىء جعله يغير رأيه مرة أخرى بأنها ليست مجنونة ، أو على الاقل ليست هكذا الآن :

- لقد مضت مدة طويلة منذ ان جئت الى هنا .. منذ متى لا استطيع ان اتذكر .. كان يجب ان ارحل منذ مدة طويلة-ولااعرف لماذا لم افعل .. ولا اعرف لماذا جئت .. لكن كل شيء هنا مختلف ... مختلف جدا ..

وتوقفت عن الكلام . وبدت ملامح وجهها مؤثرة .. وغدت عينها كثيبين مغممين بالالام .. ومضت تقول :

- انا لا اعرف أى شيء .. انا لا افهم شيئا .. لماذا يحدث كل هذا ؟ .. لم يكن فى نيتى ان يحدث اى شيء .. لكن لايمكن ان يذهب لا يمكن ان يذهب ! ..

- وفجأة احتدمت لهجتها وقالت له بصوت متغير :

- لماذا جئت الى هنا ؟ .. كان كل شيء على مايرام قبل مجيئك ! ...

وانفجرت باكية ، وازافت وهى تن :

- لا يمكن ان يذهب ! ..

نهض تونى لكى يتقدم نحوها ، فقلد تحول شعوره الآن الى الرثاء لحالها ، ونسى قلقه ... ولكن شيئا جعله يتلفت ، فرأى موسى واقفا بالباب ينظر اليهما معا ، ووجهه ينذر بشر مستطير .. فقال تونى :

- اذهب ! .. اذهب حالا ! ..
 ولف ذراعيه حول كتفى ماري ، اذ الفاها تنكمش ذعرا حتى
 انشبت أصابعها في لحمه .. وفجأة قالت للخادم من فوق
 منكبه :
 - اذهب ! ..
 - أدرك تونى أنها تحاول تأكيد ذاتها ، فقد اتخذت من وجوده
 هنا درعا كدرع المعركة لكي تسترد السيطرة التي فقدتها .. وكان
 كلامها مثل كلام طفل يتحدى من هو أكبر منه سنا ..
 وقال موسى بهدوء :
 - « السيدة » تريد منى ان اذهب ؟ ..
 - نعم ... اذهب ! ..
 - « السيدة تريد منى ان اذهب بسبب هذا » الرئيس « ؟ ..
 لم تكن الكلمات فقط هي التي جعلت تونى ينهض على قدميه
 ويتقدم نحو الباب ، ولكنها اللهجة التي تفوه بها .. فبادره وهو
 يكاد يختنق غضبا :
 - أخرج ! .. اخرج قبل ان اقدم بك ! ..
 وبعد نظرة طويلة ، مثقلة شريرة ، خرج .. ثم مالبت ان عاد
 ادراجه ، وخاطب ماري متجاهلا تونى ، قائلا :
 - « السيدة » سترحل عن هذه المزرعة ؟ ..
 فردت ماري بصوت متخافت :
 - نعم ..
 - « السيدة » لن تعود أبدا ؟ ..
 فهتفت :
 - لا ... لا ... لا ! ..
 - وهل هذا « الرئيس » سيذهب ايضا ؟ ..
 فصرخت قائلة :
 - لا .. أذهب ! ..
 وعندئذ صاح فيه تونى :
 - الا تذهب ؟ ..
 ودد تونى فى هذه اللحظة لو يمسك بخناق موسى ويخمد أنفاسه
 لولا أنه اختفى .. سمعا خطاه وهو يجتاز المطبخ ، خارجا من
 الباب الخلفى .. وخلا البيت ..

انشأت ماري تنتحب .. وراحت تهتف قائلة ورأسها بين ذراعيها :

— لقد ذهب !.. ذهب !.. ذهب !..
لقد شف صوتها عن الحالة الهستيرية التي انتابتها .. ثم فجأة دفعت تونى عنها ، ووقفت أمامه مثل امرأة مجنونة ، وأخذت تقول بصوت كالفحيح :

— انت أبعده !.. لن يعود أبدا !.. كان كل شيء على مايرام الى أن جئت ! ..

وانهارت فى عاصفة من الدموع ..
جلس تونى مكانه وذراعه حولها يواسيها ويسرى عنها .. لم يكن يخامرہ الآن سوى هذا السؤال : « ماذا أقول لتيرنر ؟ » ..
لكن ما الذى كان يستطيع منها ؟. كان الاحجى ان يدع المسألة كلها ويتجاوزها .. أن ديك الآن فى حالة اقرب الى الخبال بما هو فيه من هم وغم .. ومن القسوة ان يقول له اى شيء .. وعلى اى حال فلن يمضى يومان حتى يكونا قد ارتحلا عن المزرعة ..

واستقر رايه فى النهاية على ان ينتحى بديك ناحية ويقترح عليه فقط ان يعمل على طرد الخادم فى الحال ..
غير ان موسى لم يرجع .. لم يشاهد فى البيت تلك الليلة ..
وسمع تونى صوت ديك وهو يسأل أين موسى ، فكان ردها ان قالت انها أبعده .. واستشف تونى من صوتها عدم الاكتراث المطبق ، وبدأ له أنها كلمت ديك وهى لا تبصره ..

لم يستطع تونى الا أن يهز كتفيه يأسا ، وقرر الا يفعل شيئا ..
وفى صباح اليوم التالى قصد الى المزرعة كالمعتاد ..
كان هذا هو اليوم الاخير .. وكان امامه عمل كثير ..

الفصل الحادى عشر

استيقظت مارى فجأة ، كأنما وكزها شيء .. كان الوقت لايزال ليلا ، وديك راقدا بجانبها .. وكان للنافذة صرير على مفصلاتها ، وعندما نظرت فى فراغها المظلم ، تبينت أنبلاج الفجر ، وسمعت صياح ديكة على البعد ، وان هو الا نصف ساعة ، حتى تشرق الشمس ...

راحت تتشاءب ، وتتمطى ، وتتفكر .. كانت أوقات يقظتها فى المعتاد مشوبة بالتململ والقلق والعزوف عن مفادرة رضى الفراش .. أما اليوم فقد شعرت بالسكينة والصفاء وراحة الجسم والعقل معا ... ولم تلبث أن شبكت يديها خلف رأسها فوق الوسادة وأطلقت لخيالها العنان ، بعيدا عن المزرعة وعن البيت ومن فيه ، وحتى عن الدنيا التى قسنت عليها وتنكرت لها ..

وبعد فترة بدا لها أنه لابد لها من البكاء ، وفعلت شعرت بالدموع تنحدر على خديها ، واستمرت تبكى حتى سرت إليها راحة نفسية ..

وتحرك ديك ثم استيقظ وجلس فجأة ، واحسب أنه يدير رأسه يمنة ويسرة فى الظلام ، متسمعا .. فتمددت ساكنة ... وشعرت بيده تلامس خدها خفيفا ، ولكن هذه الملامسة التى كانت أقرب الى الاعتذار ضايقتها ، فأبعدت رأسها الى الخلف ، فقال لها :

— ماذا بك يامارى ؟ ..

فردت قائلة :

— لا شيء ..

— هل أنت متكدرة لانك ستسافرين ؟ ..

بدا لها السؤال سخيفا ، ولا صلة له بها على الإطلاق .. ثم انها لا تريد ان تفكر فى ذلك ، الا بشعور الرثاء الذى كأنه لا يعنيه ..

أفلا يمكنه أن يدعها تعيش لحظتها القصيرة الأخيرة هذه فى سكونة ؟
وهكذا قالت له :

— اكمل نومك .. لم يطلع النهار بعد ...

بدا له صوتها طبيعيا .. وحتى اعراضها عنه كان شيئا معهودا
وما كان ليوقظه تماما .. وفى دقيقة عاد الى النوم ، وتمدد كأنه
لم يتحرك منذ هنيهة .. لكنها الآن لم تستطع أن تنساه .. كانت
تعرف أنه زائد بجانبها ، وأنها تشعر بأطرافه ممددة لصق أطرافها ،
فما لبثت أن رفعت نفسها ، يخامرها شعور المرارة حياله ، ذلك
الذى لم يدعها أبدا فى سلام .. على الدوام كان هناك ، يذكرها
وجوده بما تود أن تنساه لكى يبقى لها كيانها .. وجعلت تتأرجح
فى جلستها أماما وخلفا بحركة مبهملة لا واعية ، محاولة أن تعود
بفكرها الى ذلك الحيز من ذهنها الذى ليس فيه وجود لديك .. ذلك
لأنها وصلت الى الحد الذى لامناص فيه من الاختيار بين ديك وبين
« الآخر » ، وهذا ديك قد انمحي من حياتها منذ عهد بعيد ..
« مسكين ديك » ! .. « مسكين ديك » ! .. هكذا رددت هذه
العبارة لآخر مرة ، ولم تعد تفكر فيه بعد ذلك ..

ولم تلبث أن قامت من الفراش ووقفت بجانب النافذة ، حتى
احسبت بحافتها الواطئة تلاصق فخذها .. لو أرادت أن تنحني
الى الامام ثم الى أسفل ، لاستطاعت أن تلامس الأرض التى كانت
تمتد حتى نطاق الأشجار .. وفى خلال ذلك غابت النجوم فى
السماء ، ولاحت تباشير الصبح ، وإن هو الا قليل حتى تشرق
الشمس ، فيكون شروقها إيذانا بانتهاء فترة السكونة والصفاء
التي نعمت بها فى بواكير هذا الصباح .. والتصقت بحافة النافذة
جامدة فى مكانها ، متعلقة ببقايا السعادة التى كانت تغمرها ،
والصفو الذى شمل مداركها .. لكن لماذا ، فى هذا الصباح الأخير
قد استيقظت بهذه السكونة من نوم هانىء ، وليس كما كان يعرض
لها ، من نوم تخالطه الأحلام المفزعة ، التى كانت تمتد الى ساعات
من النهار ، حتى كان يبدو لها أحيانا أنه لافاصل بين أهوال الليل
وأهوال النهار ؟ .. لماذا تراها واقفة حيث هى الآن ، ترقب مشرق
الشمس ، وكأن الدنيا قد خلقت لها من جديد ، يخامرها ذلك
الافتباط الرائع الذى سرى فيها الى الأعماق ؟ .. بل أنها من فرط
احساسها بالسعادة تركت الغرفة وخرجت الى الشرفة بخفة ريشة

طيرتها الريح .. يالهذا الجمال الذى تجلى فى كل ماحولها ، من
سماء تضرجت زرقتها بالحمرة ، واشجار ساجية فى سكونها
مثقلة بالاطيار الصادحة !..

ثم لاحت طلائع الشمس ، تلك الشمس المتقدة التى طالما كرهت
لظاها .. واذا رأسها ينبض بقوة ، وكتفاها تتألمان .. فاستيقظت
فجأة واجالت النظر حوالىها ، ملامسة شفيتها اليابستين بلسانها
.. الفت نفسها ملتصقة بسور الشرفة الحجرى ، فتراجعت عنه ،
وبعد خطى قليلة نظرت من فوق منكبها الى حيث كانت متكئة ،
واذا هى تقول بصوت مسموع :
— هناك !.. سيحدث هناك !..

فكان لوقع صوتها الساكن ، المتنبئ ، المستظير ، اثر النذير
بما يوشك أن يحدث .. ولم تتمالك أن دلفت الى الداخل وهى
تضغط على رأسها بيديها ، لكى تتحاشى تلك الشرفة المنذرة
بالشر ..

الفت ديك قد استيقظ وهو يرتدى بنطلونه لكى يخرج ويقرع
الناقوس ايدانا بجمع العمال .. واقرنت دقات الناقوس بانبعاث
الفرع فى نفسها .. « هو » واقف فى مكان ما ، يتسمع دقات
الناقوس التى تعلن عن اليوم الاخير .. كان يوسعها ان « تراه »
بوضوح .. « هو » واقف تحت شجرة فى مكان ما ، مستندا الى
جذعها ، ونظراته مسمرة على البيت ، ينتظر .. كانت تعرف هذا
تماما .. ثم استدارت قائلة لنفسها : « لكن ليس الان بعد ..
لن يكون هذا فى التو » ... لا يزال امامها نهار بطوله ..
قال لها ديك بصوت هادىء متعجل :
— البسى يامارى ...

نفذ الصوت الى سمعها بعد تكرار ، فدخلت طائفة الى غرفة
النوم واخذت ترتدى ملابسها .. وفى التماسها لمكان الاضرار ،
توقفت ، وذهبت الى الباب وهى تهم بمناداة موسى ، لكى يلبسها
الفستان ، ويناولها الفرشاة ، ويعقد شعرها ، ويحتمل عنها
الاستولية حتى لا تحتاج الى التفكير لنفسها .. ومن خلال الستار
وقع نظرها على ديك وذلك الشاب جالس الى المائدة يتناولان
وجبة لم تقم هى باعدادها .. ثم تذكرت ان موسى قد ذهب ،
فغمرها الارتياح .. لسوف تكون وحدها ، وحدها طوال النهار ..

سيكون بوسعها ان تركز على الشيء الوحيد الباقي الذي غذا يههما
الان ..

ورأت ديك ينهض ، بوجه منحزون ، ويجذب الستار الى مكانه
... فأدركت أنها كانت واقفة في المدخل بملابسها التحتية ، على
مشهد من ذلك الشاب .. لقد احمرت خجلا وخزيا ، لكن قبل
أن يغالب الاستياء خجلتها ، نسيت ديك ونسيت الشاب ، واثمت
ارتداء ملابسها ، وثيدا ، وثيدا ، وبتوقف طويل بين كل حركة -
ولماذا التعجل ، اليس النهار كله امامها ؟ .. واخيرا ذهبت الى الخارج
... كانت المائدة قد تناثرت فوقها الاطباق ، ومضى الرجلان الى
العمل ...

جمعت الاطباق متمهلة ، وحملتها الى المطبخ ، وملأت الحوض
بالماء ، وعندئذ نسيت ماكانت تفعله ..

وقفت جامدة ، مدلاة اليدين في خمول ، وفكرت في نفسها :
« في مكان ما في الخارج بين الاشجار ، « هو » واقف ينتظر » ..
وسرعان مااندفعت في أرجاء البيت في ذعر واخذت تغلق الابواب
والنوافذ ، ثم ارتمت في النهاية فوق الاريقة ، مثل ارنب انكمش
بين خصلة حشائش ، يراقب كلاب الصيد وهي تقترب .. لكن
بدا لها انه لا جدوى الآن منه في هذا الانتظار ، فأمامها النهار
بطوله ، الى ان يحين الليل .. ومرة اخرى ، ولفترة محدودة ،
عاد اليها صفاء التفكير ..

راحت تسائل نفسها وهي تضغط بأصابعها على عينيها
المغمضتين : لماذا كل ما يحدث ؟ .. لست افهم ! .. لست افهم ! ..
كان عذابها لا يطاق عندما تخيلت صورتها كما سوف تقع أعينهم
عليها : هيك عظمى لامرأة ناعسة ، شوهاء ، مسلوبة الحياة ، بفعل
نصل حاد ذريع ! ...

لكن ما الذي فعلته حتى تصل الى هذه النهاية ؟ .. لاشيء تم
بارادتها .. وخطوة خطوة وصلت الى ماهي فيه الان : امرأة
مسلوبة الارادة ، متهاوية الآن فوق اريكة عتيقة بالية ، تنتظر
قدوم الليل الذي سيضع حدا لوجودها .. لكن لماذا ؟ .. وفي أي
شيء أذنبت ؟ ..

بعد حين رفعت رأسها وتطلعت حولها .. الفت نفسها جالسة
في غرفة ضيقة يعلوها سقف من الصاج ، والعرق يغمر جسدها

.. كانت الحرارة لا تطاق بعد اغلاق النوافذ والابواب .. هبت واقفة وجرت الى الخارج .. فما فائدة الجلوس هكذا ، لمجرد الانتظار ، انتظار فتح الباب وقدم الموت ؟ ..
خرجت من البيت ركضا عبر التربة الملتهبة لائذة بالاشجار ، بعد ان استحال عليها البقاء حبيسة الجدران .. ومضت الى داخل الغابة وهي تفكر : سوف أصادفه امامي ، وسينتهي كل شيء ! ..
واخيرا وقفت مستندة الى جذع شجرة وأغمضت عينيها ، وظلت حيناً تنتظر .. تنتظر ..

ولما أفاقت لنفسها الفت الشمس قد احاطت بها من كل جانب ، فرفعت يدها تجذب غصنا وارفا تستظل به ، واذا جسم يمرق فجأة مبتعدا .. فندت منها صرخة رعب واندفعت خلال الاشجار والحشائش المتطاولة عائدة الى البقعة المكشوفة امام البيت ، حيث وقفت جامدة ممسكة بحلقها ..

شاهدت عاملا واقفا خارج البيت ، فوضعت يدها على فمها لتكتم صرخة .. ثم تبينت انه شخص آخر غير موسى ، ممسكا بورقة في يده .. فاتجهت اليه واخذتها منه ، فكانت بها هذه الكلمات : « ان نرجع للغداء . الاشغال كثيرة ونريد ان نرتب كل شيء . ارسلني اليها شايا وشطائر » ...

فكرت ماري مستاءة : هذا ديك مرة اخرى ، يذكرها بوجوده ... ودخلت الى البيت بالورقة وفتحت النوافذ بحركات غاضبة ... وفي اعياء بالغ أعدت الشاي وملأت به زجاجة ويسكي قديمة وارسلته مع العامل ، ناسية الشطائر تماما ...

لقد خطر لها ان تونى الشاب الوافد شعر بالعطش ، ومن ثم كان طلب الشاي .. وجعلت تفكر فيه وهي مغمضة العينين .. كم كان رفيقا بها ، ولم يندد بمسلكتها ! .. وفجأة الفت نفسها متعلقة به .. هو أجدر ان ينقذها ! .. انها ستنتظر عودته ! ..
ووقفت في المدخل تتطلع الى الاشجار والغابة من ورائها .. لا بد ان الشاب سيأتي قبل حلول الليل لانقاذها ! ..

وتقدمت الى الشرفة حيث استندت الى جدارها ووقفت تحديق امامها لترى مزار القبار وهو يعلن قدوم السيارة .. لكنهم لا يملكون الان سيارة ، فقد بيعت منذ حين ! ..
عادت الى الداخل حيث جلست متقطعة الانفاس ، مغمضة

العينين ... وعندما فتحتهما كانت حالة الضوء قد تغيرت واستطالت الظلال أمام البيت ، وسرى في الهواء احساس بقرب انصرام النهار .. لقد أستولى عليها النوم .. لقد نامت في يومها الاخير هذا ! .. ترى هل جاء « موسى » ودخل الى البيت باحثا عنها ؟ .. لقد هبت قائمة في دفق من الشجاعة والتحدى وذهبت الى الغرفة الامامية ... كانت خالية .. لكنها عرفت ، دون أدنى شك ، انه جاء الى هنا وهي نائمة وتظر من خلال النافذة لكي يراها .. ان باب المطبخ مفتوح ، وهذا دليل على ذلك .. وربما كان هذا هو الذي أيقظها : حضوره ، وإطلاله من خلال النافذة ، بل ربما مد يده لمحاولة لمسها ؟ .. لقد انكمشت وذهبت ترتعد ...

وطال جلوسها فوق الأريكة المتقادمة وهي مشبكة اليدين في انتظار النهاية ... نهايتها ! .. وبعد اغفاءة طويلة أفاقت لتدرك ان ديك كان جالسا الى المائدة تحت مصباح مضاء ، يحسب اليها ...

سمعتة يقول لها :

— هل اتممت حزم حاجياتك ؟ .. تعرفين انه لابد لنا من الارتحال صباح الغد ..
أخذت تضحك ، مرددة : الغد ! ..
وطال ضحكها ، الى ان رآته ينهض فجأة ، ويخرج واضعا يده فوق وجهه ..

بديع ! .. الان هي وحدها ! ..
ولكنها فيما بعد راقبت الرجلين يجيئان بأطباق وطعام وياخذان في الاكل ، جالسين في مواجهتها .. وقد قدما اليها فنجانا فيه سائل لم تلبث ان رفضته متضجرة ، منتظرة ذهابهما عنها .. الا سينتهى كل شيء عاجلا ! .. في مدى ساعات معدودة سينتهى كل شيء ! .. لكنهما لا يريدان ان يذهبا عنها .. وبدأ أنهما جلسا هناك من اجلها .. فذهبت الى الخارج ، في عصى ، متحسنة طرف الباب بيديها .. بدا كان السماء الغائبة في الظلمة قد هبطت فوق البيت .. ومن خلفها سمعت صوت ديك يقول كلاما عن مطر ... فقالت لنفسها : « سوف تمطر — بعد ان يحل بى الموت » !
وقال ديك اخيرا من الداخل :

— الى النوم ؟ ..

لم يكن هذا السؤال يمت اليها بسبب .. فقد وقفت في الشرفة حيث كانت تعرف أنه يتعين عليها الانتظار ، ومراقبة الظلام تسمعا لآية حركة ..

- تعالى للنوم يامارى !..

رات أنه لابد لها قبل أى شيء من الذهاب الى الفراش ، لانهم لن يتركوها وحدها مالم تفعل هذا .. وبحركة آلية أطفأت المصباح في الغرفة الامامية ، وذهبت لايبصا الباب الخلفى .. فقد بدا لها انه من الضروري ان يوصد الباب الخلفى .. شعرت انه لابد ان تكون محمية من الخلف .. والضربة لابد ان تأتى من الامام .. خارج الباب الخلفى كان موسى واقفا .. مواجهها لها .. وبدا لها ان هيكله مائل فى بصيص النجوم .. فارتدت الى الخلف وقد تخاذلت ركبتيها ، وأوصدت الباب ..

- « هو » فى الخارج !..

فاهت بهذا لديك متقطعة الانفاس ، وكان هذا هو المتوقع والمرتبب ..

- من هو ؟!

لم تجب .. فذهب ديك الى الخارج .. واستطاعت أن تسمع حركته ، ورات اشعة المصباح المنقول الذى حمله وهى تتحرك .. ولما عاد قال لها :

- لا شيء هناك يامارى ..

فاومات براسها تصديقا ، وذهبت مرة ثانية لايبصا الباب الخلفى ... الان كان الظلام حالكا .. وموسى لم يكن موجودا .. ولا بد انه ذهب الى القابة ، من ناحية الباب الامامى ، لكى ينتظر حتى تظهر .. وعندما عادت الى غرفة النوم توقفت فى وسطها ، وكأنها نسيت فى اى اتجاه تتحرك ..

قال لها ديك بذلك الصوت اليائس المصابر :

- الا تخلعين ملابسك للنوم ؟..

فاطاعت ، وخلعت ملابسها ، ودلقت الى الفراش ، وتمددت وهى يقظى ترهف السمع .. وشعرت به يمد يده لكى يلمسها ، وفى الحال جمدت مكانها .. لكنه كان أبعد مايكون عنها ، ولم يعد يهتما فى شيء .. كان مثل شخص قائم لدى الجانب الاخر لجدار زجاجى سميك ..

قال لها :

- ماري ؟ ..

فبقيت صامتة ..

- ماري .. اصفى الى .. انت مريضة .. لابد ان تدعيني آخذك الى الطبيب ...

بدا لها كأن الذي يكلمها هو الشاب الانجليزى الوافد .. منه صدرت هذه الكلمات ، دليلا على اعتقاده ببراءتها من الخطيئة .. قالت بثقة ، مخاطبة الشاب الوافد .

- انا مريضة طبعاً .. اننى كنت دائماً مريضة ، منذ ماوعته الذاكرة .. انا مريضة فى هذا الوضع ..

وأشارت الى صدرها .. لكن سرعان ما نسيت الشاب الوافد ، ورن صوت ديك فى سمعها كأنه صدى صوت عبر واد سحيق .. جعلت تنصت الى الليل فى الخارج .. ورويدا اخذ الفزع يستحوذ عليها وهو الذى كانت تعرف انه آت لا ريب فيه ولا دافع من دونه ..

ومرة ادارت وجهها فى ظلام الوسادة ، بيد ان عينيها كانتا متوقدتين بالضياء ، ومن خلال الضياء ابصرت هيكلاً قائماً ينتظر فجلست وهى ترتعد .. هاهو ذا فى الغرفة ، عن كذب منها ... غير ان الغرفة كانت خاوية .. ولا شيء هناك .. وسمعت قصف الرعد ، وابصرت وميض البرق يتراقص على الحائط .. ثم بدا لها كأن الليل اخذ يطبق عليها ، وان البيت الصغير يلتوى فوقها مثل شمعة تذوب بالحرارة .. وتردد قصف الرعد مقترباً بصلصلة السقف الصاجى فوق رأسها ، وبدا لها كأن جسماً ضخماً ، مثل عنكبوت بشرى ، يزحف فوق السقف ، محاولاً النفاذ الى الداخل .. هاهى ذى وحدها .. هاهى ذى عزلاء .. انها حبيسة فى صندوق صغير اسود ، جدرانه تطبق عليها ، وسقفه يهبط فوقها .. انها فى مصيدة ، محاصرة وعاجزة .. لكن لابد لها من الخروج وملاقاته .. هكذا حفزها الخوف على التسلل من الفراش والسير خطوات حتى بلغت وسط الغرفة حيث توقفت .. ثم دفعتها ومضة برق جديدة الى مزيد من التقدم حتى توقفت مرة أخرى فى طيات الستار وشعرت بللمسة الخشن وكأنه جلد حيوان .. فدفعته عنها وهماهبت للفرار عبر ظلام الغرفة الامامية التى امتلات

بأشباح مهددة متحفزة .. ومرة أخرى شعرت بفراء الحيوانات ،
ولكن هذه المرة من تحت قدميها .. وتعلق منقلب قط بري مدلى
بقدمها وهى تندفع فوقه حتى لم تتمالك أن بدت منها صيحة خوف
محتبسة وهى تنظر من فوق منكبها الى باب المطبخ .. كان موصدا
ومظلما .. هاهى ذى الان فى الشرفة .. فتحركت الى الخلف حتى
صدها الحائط .. كانت وقفة آمنة تحمى ظهرها ، حيث كان عليها
أن تقف وتنتظر .. هكذا أنقشع عن عينيها ضباب الرعب ، وامكنها
أن تبصر فى وميض البرق كلبى المزرعة الضخمين راقلين مرفوعى
الرأسين فى الشرفة ينظران اليها .. وفيما بعد أعمدة الشرفة الثلاثة
الرفيعة ، وهياكل زهور الجيرانيوم النامية فى اوعيتها ، لم تستطع
أن تبصر شيئا ، الى ان أومض البرق مرة أخرى ، ولاحت رءوس
الاشجار فى آفاق سماء ملبدة بالفيوم .. وراحت تضغط بظهرها
على الحائط بكل قواها حتى شعرت بوخز أحجاره الخشنة فى لحمها
من خلال قميص النوم .. وهزت رأسها لكى يصفو تفكيرها ، وظلت
الاشجار ساكنة تنتظر .. وبدأ لها انها لو أستطاعت أن تركز
اهتمامها فى الاشجار فلن تقدر ان تزحف عليها .. وادركت انه
لابد لها من تركيز فكرها على ثلاثة اشياء : الاشجار ، حتى لاتندفع
اليها على غرة ، والباب الذى بجانبها حيث يمكن ان يجرى ديك
منه ، والبرق الذى كان يتدافع ويتراقص مضيئا جحافل السحاب
العاصفة .. هكذا رسخت قدميها على الارض الحجرية الخشنة ،
مسندة ظهرها الى الحائط ، وقرفت مكانها محدقة مشدودة
الاعصاب مرهفة الحواس ، تتلاحق انفاسها فى شهقات صغيرة ..

ثم مالبت وهى تسمع هزيم الرعد يتجاوب بين الاشجار والبرق
يومض خاطفا ، ان ابصرت هيكلا رجل يتحرك من ثنايا الظلام ويتقدم
نحوها ، صاعدا الدرجات فى صمت ، بينما وقف الكلبان يراقبان
بحواس مرهفة هازين ذنبيهما ترحيبا .. ثم توقف موسى على قيد
ياردتين ، حتى استطاعت أن تبصر كتفيه الضخمتين ، وشكل رأسه
ولعان عينيهِ .. فكان مشهده باعثا على تغير عواطفها بصورة غير
متوقعة ، ليشير فى كيانها شعورا خارقا بالتأثم ، ولكن فى اتجاهه
ذلك الذى تنكرت له وخائته ، منصاعة لامر الشاب الانجليزى ...
ولقد أحست وقتها أن ماعليها الا أن تقدم اليه ، شارحة مبينة ،
ومستعطفة ، فبذنب عنها الروع ويتلاشى الفزع ...

فتحت فمها لكي تتكلم .. وأنها كذلك اذ رأت يده ، التي كانت ممسكة بجسم مقوس ، ترتفع الى مافوق رأسها ، وعندئذ ادركت ان ماهمت به قد فات أوانه .. لقد سبق السيف العذل .
فى تلك اللحظات الرهيبة مرق ماضيها فى غمضة عين ، وانفلتت من فمها المنفرج توسلا ، بداية صرخة كتمتها يد سوداء انحشرت بين فكئها .. غير ان الصرخة استمرت ، فى احشائها ، تخنقها خنقا .. ورفعت يديها ، كمخالب ، تدفعه عنها .. واذا ذاك انتقمت الغابة لنفسها ، كما تفكرت .. فقد تدافعت نحوها الاشجار كالوحوش ، وكان الرعد هو رجع الصدى لهجومها .. وفيما انحسر عنها التفكير فى النهاية ، متلاشيا من هول الفزع ، لمحت - من فوق الذراع الضخمة التى دفعت رأسها بقوة الى الحائط - الذراع الاخرى وهى تهوى عليها .. فارتخت الاطراف من تحتها ، وتوالت البرق من اطواء الظلام ... ثم اغمد النصل الذريع فى الجسد ...

ولما تركها موسى رأها تهوى الى الارض ، فاعتدل فى وقفته ، واخذ يتبين العالم حوله ..

لقى الكلبين يزجران عند قدميه ، ولكنهما مازالا يهزان ذئلهما .. ان هذا الرجل كان يطعمهما ويعنى بهما .. اما مارى فكانت تكرههما .. ومالبث موسى ان ردهما الى الخلف برقة ، ماسحا على وجهيهما براحة يده ، فوقفا يراقبانه متحيرين ، نابحين بخفوت ...

لقد بدا المطر يهطل ، وادركت قطرات كبيرة موسى فى ظهره ، لاذعة قارسة .. وسمع صوت قطرات اخرى جعله ينظر الى المدية التى أمسك بها والتى جاء بها من الغابة وكان يشحذها طوال نهاره ... كانت قطرات الدم تنشال على الارض ، ومالبث ان توزعه عاملان متناقضان تجليا فى حركاته التالية .. فألقى أول الامر المدية بحدة على الارض ، كما لو ساوره الخوف .. ثم ما عكم أن تمالك والتقطها من جديد .. وقد رفع المدية الى مافوق سرور الشرفة تحت المطر الذى كان ينهمر الان ، ثم سحبها بعد لحظات .. ثم بدا عليه التردد وجعل ينظر حوآليه .. ومالبث أن دس المدية فى حزامه ومد يديه تحت المطر ، وبعد تنظيفهما تاهب لى يمشى تحت المطر عالما الى كوخه فى المستوطنة ، منتويا ادعاء براءته ..

غير ان هذا العزم تلاشى ايضا ، فقد جذب المدينة من حزامه ، ونظر اليها ، ثم طوح بها ببساطة الى جانب ماري ، فى لامبالاة مفاجئة ، اذ استحوذ عليه عزم جديد ..

وفى تجاهله لديك الذى ظل يغط فى نوم عميق ، والذى لم يعبأ به موسى طوال ذلك واسقطه من حسابه تماما كإنسان مدحور منذ عهد بعيد - اذا هو يقفز من فوق سور الشرفة ويهبط على قدميه فى المطر المنهمر الذى غمره على الاثر .. وسار فى اتجاه كوخ الشاب الانجليزى مغرقا فى المطر ، وعند الباب وقف يثرب النظر .. لقد استحال عليه ان يبصر شيئا ، فراح يتسمع مرهفا اذنيه من خلال وقع المطر ، ولما لم يسمع تنفسا انحنى فى المدخل وتقدم بهذوء الى مكان السرير ..

كان غريمه ، ذلك الذى استطاع الان أن يخلبه وينتصر عليه ، غارقا فى النوم ، فتحول عنه باحتقار ومشى عائدا ادراجه الى البيت .. وبدا للوهلة الاولى انه ينوى تجاوز البيت ، غير انه عندما جاء بمحاذاة الشرفة مالبث ان توقفت مسندا يده الى السور ينظر من فوقه .. كان الظلام حالكا تتعذر فيه الرؤية .. فجعل ينتظر وميض البرق لكى يضيء له ، لآخر مرة ، البيت الصغير ، والشرفة وصورة ماري المكومة على الارض ، والكلبين اللذين كانا يتحركان على غير قرار حولها ومازالا ينبحان نباحا خافتا .. ثم لاح الوميض ممتدا هذه المرة وكأنه انبلاج الفجر ، فكانت هذه لحظة انتصاره الحاسم - هذا الانتصار الشامل الذى انتزع من تفكيره كل نزوع الى الهروب ، وجعله غير مبالي بأى شيء ..

وبعد أن عاد الظلام رفع يده عن السور وانشأ يمشى الهوينى الى المطر شطر الغابة .. اما ماهية الافكار التى كانت تخامرهم وقتذاك ، سواء كانت تنبأ او رثاء او حتى محبة حابطة مخيبة يمازجها ارتياحه بما تم له من انتقام - فذلك مما يستحيل تقريره على وجه القطع واليقين .. ذلك لانه ما ان قطع ما يناهز مائتى ياردة فى صميم الغابة المفرقة فى المطر حتى توقف ، ثم انثنى الى جلدع شجرة ووقف مستندا اليها ..

وفى موضعه ذاك قرر ان يبقى ، الى أن يجيء مطاردوه ويقبضوا عليه .

تمت

رقم الايداع : ٨٧/٥٧٤٤

الترقيم الدولى : ٢ - ٣٢٢ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

روايات الهلال تقدم

أمجاديسوس

تأليف :
بيتر شافر

ترجمة :
شوقي فهم

تصدر : ١٥ نوفمبر سنة ١٩٨٧

الكويت: السيد 'عبدالعال بسيوني زغلول

الصفاء - ص . ب رقم ٢١٨٢٢

13079 - تليفون - ٤٧٤١١٦٤

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

اشترك
في
روايات
الهلال

هذه الرواية

الحشائش تغنى فوق القبور الساكنة :
من هذا البيت الرائع فى قصيدة للشاعر الانجليزى ت . س . اليوت
استوحت الكاتبة الانجليزية دوريس ليسنج أحداث روايتها "الحشائش
تغنى" التى تترجم لأول مرة الى اللغة العربية . فى ترجمة كاملة رشيقة .
واذا كانت الكاتبة قد استلهمت عنوان الرواية من القصيدة التى قلبت
موازين الشعر الانجليزى المعاصر . فانها قد استوحت أحداث الرواية من
الأحداث السياسية والاجتماعية الدامية التى عاشتها فى جنوب افريقيا ..
فمارى تيرنر بطلة هذه الرواية هى شخصية حقيقية عرفت الكاتبة عن
قرب . وعاشت مأساتها . لذا عبرت عنها بكل صدق وحساسية واستطاعت
دوريس بهذه الرواية ان تصبح علامة مميزة فى الادب الانجليزى ومن
أجلها ترشح فى كل عام لنيل جائزة نوبل .
منذ ثلاثة اعوام ظهرت هذه الرواية فى فيلم سينمائى ضخم قال عنه
مخرجه انه كان خائفا دوما من تحويل هذه الرواية الى السينما . لان كل
وسائل التعبير السينمائى تقف عاجزة امام براعة دوريس ليسنج
تصوير هذا العالم العنصرى المتناقض .
الحشائش تغنى .. رواية فريدة فى المتعة التى تحدثها للق

Библиотека Александрина



0393881

REWAYATALHILAL
466 OCTOBER 1987

٧٥ قرشا